رَوَائِعُ الْبَيَانِ

فِي تَدَبُّرِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تفسير سورة البقرة من آية: ١ إلى آية: ١١٢

لأم تميم

عزَّة بنت محمد

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد؛ فهذه مجموعة محاضرات في تدبر وتفسير سورة البقرة قامت بعض الطالبات بتفريغها بناءً على طلب الكثيرات منهن، ولم أقم بمراجعة هذا العمل بنفسي لضيق الوقت، فقد بلغ البحث ما يقرب من ألف ورقة، وقد سميت البحث بـ: "روائع البيان في تدبر وتفسير القرآن".

فأسأل الله عز وجلَّ أن يجعل له القبول، وأن ينفع به المسلمين.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن

الموقع الرسمي لأم تميم

www.omtameem.com

الصفحة الرسمية لأم تميم على الفيسبوك

https://www.facebook.com/Om.Tameem.Dr.Azza.Mohamed

سورة البقرة

نبدأ بحول الله وقوته، ونستعين به، وما توفيقي إلا بالله، {أعوذ بالله من الشيطان الرجيم} {بسم الله الرحمن الرحيم}[(١)].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ
فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ
هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾

---

(١) الاستعاذة والبسملة مهمة جدًّا جدًّا، وَذكَرتُ معناها في تفسير فاتحة الكتاب.

{الم} هي حروف مُقطعة ذُكِرتْ في أوائل بعض السور؛ منها {حـم، الـمـص}، وللعلماء فيها أقوال كثيرة، نذكر منها قولين لأهل السُّنة، وقولًا باطلًا لا يصح من التفسير الإشاري الصوفي.

من أقوال أهل السنة:

القول الأول: أنها من الحروف المقطعة من المتشابه الكلي الذي استأثر به الله في علم الغيب عنده.

والمتشابه الكلي هو الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى؛ فلا أحد يعلم معناه.

وقد اعترض على هذا القول البعض من أهل السنة فقالوا: إن الله أنزل القرآن لنفهمه ونتعبد به، فكيف أخفى علينا معنى هذه الحروف؟!.

القول الثاني: أن الله ذكر هذه الحروف التي استعملها العرب في لغتهم والتي تحتوي على (ثمانية وعشرين حرفًا أو تسعة وعشرين حرفًا على اختلاف العلماء) ليس أكثر، فهذه الحروف التي قلتم بها الأشعار وأقمتم بها المحافل هي نفس الحروف التي أُنزل بها القرآن.

فهذا نوع من التحدي لكفار العرب وجهابذة اللغة؛ قال جَلَّ ذِكْرُه: {قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾} [الإسراء]، وقال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ

مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣} [هود]، وقال تعالى: {فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ٢٣} [البقرة].

فالمقصود بهذه السور التحدي لكفار قريش وكفار العرب الذين أنكروا مبعث النبي ﷺ وقالوا إنه افترى عليهم وإن هي إلا أساطير الأولين، فتحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور فقط مثله، أو حتى سورة واحدة.

وهذا القول لا ننكره، ولكنه اجتهاد ليس عليه دليل، فالنبي ﷺ لم يبين لنا معنى هذه الحروف.

أما القول الباطل في تفسير قوله تعالى {الـم}: هو التفسير الإشاري الصوفي ويقول: إن {الٓمٓ} جمعت المخارج الثلاثة: الحلق واللسان والشَّفَتان!!

فهي ترتيبها على ترتيب (البداية والتوسط والنهاية)، فالبداية والتي هي الخَلق (الحلق)، والتوسط الذي هو المعاش الذي نحن فيه (اللسان)، والنهاية التي هي المعاد والمعاش الأكبر (الشَّفتان)!!.

وهذا قول باطل نسأل لقائله الهداية، وأن يدعو لدين الله بمنهج الحق منهج النبوة وأهل السنة والجماعة؛ لأن التجرؤ على كتاب الله أمر عظيم جدًّا.

{ذَٰلِكَ} اسم إشارة للبعيد، والعلماء الراسخون في العلم

اعترضوا على هذا القول، فهذا المصحف الذي بين أيدينا كيف يكون بعيدًا؟!

وللعلماء في هذه المسألة أقوال:

القول الأول: (ذلك) مقصودٌ به أصل الكتاب، وأصل القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف].

فالمقصود بـ (ذلك) هو أصل الكتاب الذي تَكلَّم اللهُ به ثم سمعه جبريل من الله ثم نزل به على رسول الله.

القول الثاني: (ذلك) المقصود به الكتاب الذي بين أيدينا، ولكن ليس كله، فبعض السور يطلق عليها قرآنٌ.

مثال: إذا قلتَ: سأقرأ القرآن. فهل معناه أنك ستقرأ القرآن كله أم بعض السور أم بعض الآيات؟ تريد بعض السور أو بعض الآيات؛ لذا فبعض الآيات يُطلق عليها قرآن.

إذًا (ذلك) المقصود به السور التي نزلت على النبي ﷺ أول البعثة في مكة.

هل بعض القرآن يطلق عليه قرآنٌ؟

نعم، ويستدل على ذلك بقوله تعالى في كلامه عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن]، فهم قد سمعوا آيات من النبي ﷺ

وليس القرآن كله، لذلك بعض القرآن يطلق عليه قرآن.

وقد اعتُرِض على هذا القول فقيل: (ذلك) ليس اسم إشارة للبعيد فـ (ذلك) و(هذه) أسماء إشارة كل منهما يستخدم للبعيد والقريب.

فكلمة (ذلك) إذا حذفنا منها اللام والكاف، وكلمة (هذا) إذا حذفنا منها الهاء صارت (ذا)، و(ذا) اسم إشارة أراد الله به التنبيه؛ قال تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة].

ما الفرق بين (هذا) و(ذلك)؟

(هذا) تنبيه للقريب والبعيد، و(ذلك) تنبيه للقريب والبعيد، لكن فيه مبالغة للتنبيه؛ والدليل قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص].

ثم قوله ﴿هذا ذِكْر﴾ أي اذكر إبراهيم وإسحاق وأفعالهم الخيرة، ثم قال ﴿هذا ذكر﴾، أين الذِّكْر؟ في اللوح المحفوظ مكتوب فيه أخبار القوم، فأشير بهذا إلى البعيد.

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ [ص]؛ ومن المعلوم أن القاصرات في الجنة فأُشِير باسم الإشارة هذا للبعيد.

وفي قوله تعالى ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق]؛ فسكرة الموت قريبة وأشير بها باسم الإشارة (ذلك).

فدلّ ذلك على أن (هذا) و(ذلك) أسماء إشارة تُستخدم للقريب والبعيد.

{ٱلْكِتَٰبُ} القرآن، وله ثلاثة أسماء:

الكتاب: {ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴿٢﴾} [البقرة].

القرآن: {إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾} [الإسراء].

الفرقان: {تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴿١﴾} [الفرقان].

ويُطلق أيضًا على التوراة اسم الكتاب، ونعرف من خلال السياق ما المقصود بالكلام.

لماذا سُمِّي القرآن بالفرقان؟

لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وبين المجمل والمبيّن، والمحكم والمتشابه، ويستنبط منه العلماء كل أحكام أصول الفقه والناسخ والمنسوخ وغيره.

{لَا رَيْبَ فِيهِ} قال تعالى: {لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ} ولم يقل لا شك فيه.

ما الفرق بين الرَّيْب والشَّك؟

العلماء قالوا: إن الفرق بين الشك والريب له وجوه منها: أنه في عادتنا نقول: (شك مريب) وليس (ريب مشكك)، يُقال: (رابني هذا الأمر) وليس (شكَّني).

وأصل الريب انزعاج وقلق ضد الطمأنينة وهو أقوى من الشك؛

فلقد مر النبي ﷺ على ظَبْي حَاقِف (مثني الرَّقبة) فأَمَر رَجُلًا يَقِفُ عِندَه لَا يريبُه أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ حتى يُجاوِزَه[(١)]. (لا يريبه أحد: أي لا يزعجه أحد).

فالريب كلمة تدل على الإزعاج وعدم الطمأنينة والقلق والاضطراب وضعف اليقين، فالريب أقوى من الشك؛ فالشك كمن شك في صومه هل الشمس غربت أم لا؟ إذًا الريب أقوى وأعلى.

والله عز وجل نفى الأعلى للتنبيه على نَفْي الأدنى؛ وأنه ليس به أدنى شك أو عدم يقين، فهذا الكلام كله من عند الله.

مثال: إذا قلتُ لك: إن هذا الرجل لا يقدر أن يصرعه خمسة رجال، فبالتالي لن يقدر عليه ثلاثة أو اثنان، وهم أقل من ذلك، فنفي الأعلى دلالة على نفي الأدنى.

﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يُفهم من هذه الآية مفهوم المخالفة، ودليل الخطاب أن غير المتقين لا يهتدون بالقرآن كمثل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدَى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٌ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت]؛ فهذه الآية وآيات أُخر تدل على أن الهدى للمتقين فقط، وليس لغير المتقين.

فهل الهداية تكون للمتقين فقط؟

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥٧٤٤).

الهُدى نوعان:

هُدًى خاص: وهو الذي تفضّل به الله تعالى على عباده المؤمنين إلى دين الحق وانشراح الصدر والعمل بما علموا، وهذا مقصود قوله تعالى {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وهذه الهداية لا تكون إلا لله.

هدًى عام: وهو لجميع الإنس والجن؛ فقد هداهم الله لبيان الحق وأرسل إليهم الرسل والأنبياء؛ مثل قوله تعالى {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴿١٧﴾} [فصلت].

فهل ثمود قد اهتدوا أم ماتوا على الكفر؟ الهداية هنا هي الهداية العامة التي تصل لجميع الناس، وكذلك قوله تعالى: { إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾} [الإنسان] إذًا هناك مَن شكر، وهناك مَن كفر ولم يتبع الحق.

ولا تعارض بين قوله تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾} [القصص] (المقصود بها الهدى الخاص وهو توفيق الله عز وجل لعباده المتقين)، وبين قوله تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾} [الشورى] (المقصود بها الهدى العام وهو البيان والإيضاح للطريق المستقيم).

وفي قوله تعالى {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} فائدتان:

الفائدة الأولى: أن الغفلة سبب في عدم الانتفاع وإعراض القلب عن القرآن وعدم الانتفاع به.

الفائدة الثانية: أن تقوى الله سبب للهداية.

فعلى المرء أن يراقب نفسه في تقواه دائمًا، فحُسن المراقبة تورث الإحسان، وقوة المحاسبة تصد عن المعاصي.

قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣}.

بيَّن الله عز وجل أن المتقين هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة

ومما رزقناهم ينفقون، فبيَّن صفات هؤلاء المتقين، فهذه الآية كاشفة أو مادحة أو مخصصة:

كاشفة: إذا كان الشخص الذي يقرأ يجهل صفات المتقين لأنها تبين صفات المتقين، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا كما ذكرنا فيعلم صفات المتقين من هذه الآية.

مادحة: إذا كان الشخص يعلم صفات المتقين فهؤلاء مدحهم الله وأثنى عليهم في كتابه فهم آمنوا بالغيب، وأقاموا الصلاة إقامة وليس مجرد أداء الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم الله.

مخصصة: إذا كان الشخص لا يعلم المعنى اللغوي وما يقاربه؛ لأن التقوى لها معانٍ كثيرة منها فعل المأمور وترك المحظور، فهذا الوصف تعريف قريب للتقوى على وجه الخصوص.

{وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ} لم يبين الله عز وجل المقصود بالإنفاق في هذه الآية؛ هل النفقة الواجبة أم المستحبة؟

فالنفقة الواجبة معروفة مثل (زكاة المال والعروض وبهيمة الأنعام، وأنواع الزكوات المعروفة ونصابها).

أما لو كان المقصود بالنفقة المستحبة فهناك ثلاثة أمور: (القَدْر، الحالة، المَصْرَف).

القَدْر: من المعلوم أن الصدقة من أعظم الأبواب التي يتقرب بها إلى الله؛ فما هو القدر الذي يُنفقه العبد؟

قال تعالى { وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ ﴿٢١٩﴾} [البقرة]، والعفو قيل: هو الشيء الزائد عن الحاجة؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف {حَتَّىٰ عَفَواْ} يعني زادت وكثرت أموالهم وأرزاقهم.

لكن لا أصل لحالة الجَهْد وإنفاق كل المال؛ لقوله تعالى {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾} [الإسراء]، وقوله تعالى { وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾} [الفرقان]؛ إذًا النفقة تكون على التوسط في الإنفاق والبعد عن الإسراف والتقتير.

الحالة: يكون الإنفاق على التوسط، وقد أثنى الله عز وجل على الذين يؤثرون على أنفسهم فقال تعالى { وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ ﴿٩﴾} [الحشر] أي رغم احتياجهم الشديد؛ وقد أثنى

جَلَّ ذِكْره على هؤلاء المؤثرين على أنفسهم في حالة أنهم لن يضيعوا مَنْ يعولون؛ أي لا يكون في هذا الإنفاق ضرر، وقد قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١).

المَصْرَف: وهو لمَن تُعطَى النفقة المستحبة؟ قال تعالى: {قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٥﴾} [البقرة] هذه الآية في الصدقة المستحبة فلا يجوز إعطاء زكاة المال للوالدين، ولا يكون الإنفاق على الفساد والضلال فهؤلاء الذين ينفقون أموالهم في غير مراد الله { فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴿٣٦﴾} [الأنفال].

فالإنفاق المحمود الذي هو في سبيل الله للفقراء المستحقين بقدر معين دون تبذير ولا تقتير.

قوله تعالى: { وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾}.

اختلف المفسرون: هل هؤلاء هم الذين أخبر الله عنهم في الآية السابقة لهذه الآية أم هم صنف آخر من الناس؟ لهم في ذلك ثلاثة أقوال:

القول الأول: الآيتان هم صنف واحد من الناس وهم جميع المؤمنين سواء المؤمنون من العرب أم المؤمنون من أهل الكتاب؛ أي أن {ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

يُنْفِقُونَ} هم أنفسهم {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} وهم جميع المؤمنين.

القول الثاني: الآيتان هم صنف واحد من الناس وهم المؤمنون من أهل الكتاب فقط؛ أي أن {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} هم المؤمنون من أهل الكتاب فقط، وواو العطف في هذه الحالة تكون عطف صفات على صفات فقط، وليس صنفين من الناس.

القول الثالث: آية {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} هم المؤمنون من العرب، أما آية {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} هم المؤمنون من أهل الكتاب.

وقد رجَّح بعض أهل العلم (القول الأول) أن الآيتين في جميع المؤمنين؛ لأن الآيات التالية تخبر عن الكافرين ثم أخبرت عن المنافقين، إذًا هذه الآيات تخبر عن صفات المؤمنين عامة.

{أُنزِلَ إِلَيْكَ} فيه مسألتان:

المسألة الأولى: هناك بعض الكتب الخاصة بالتدبر تقول إن كلمة (أُنْزِلَ) تفيد بأن الإنزال جملة واحدة، أما كلمة {نُزِّلَ} تفيد معنى الإنزال التدريجي.

ولكن لا يصح أن نقول إنها قاعدة مطردة في كل الآيات؛ لأن بعض الآيات جاءت على غير ذلك؛ مثل قول الله تعالى: { وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٌ﴿٤٦﴾} [العنكبوت] مع أن القرآن نزل تدريجيًّا. وقول الله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً ﴿٣٢﴾} [الفرقان] فجاءت (نُزِّلَ) في الآية مع جملة واحدة.

إذًا ليست قاعدة أن كلمة (أَنْزَلَ) تفيد بأن الإنزال جملة واحدة، و(نَزَّلَ) تفيد معنى الإنزال التدريجي.

المسألة الثانية: للإنزال في القرآن معنى عند أهل السنة ومعنى عند أهل البدعة، وهذا أمر عقدي سنخبر عنه مجملًا.

هناك ثلاثة أقوال لثلاث طوائف في معنى (أنزل):

القول الأول: طائفة من الناس قالوا: إن (أنزل) بمعنى خلق، واستدلوا بقول الله تعالى {وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٌ شَدِيدٌ ﴿٢٥﴾} [الحديد] فأنزل الحديد؛ أي خلق الحديد!

وهذه الطائفة هم الجهمية أحد الفرق الضالة وذلك لكي يبتعدوا عن أن القرآن كلام الله؛ لأنهم ينفون ذلك. وهذا لا يصح لغةً ولا شرعًا في معنى أنزل أن تكون بمعنى خلق.

القول الثاني: طائفة قالوا: إن الإنزال بمعنى الإعلام والإفهام؛ أي أن الله عز وجل يُفْهِم ويُعْلِم المَلَكَ بمراد الله!

وهذه الطائفة هم الأشاعرة والكُلابية؛ وذلك لأنهم ينفون صفة كلام الله.

وهذا أيضًا قول باطل لا يصح لغةً ولا شرعًا؛ لأن القرآن كلام الله، والكلام لا بُد أن يكون بحروف وصوت عند جميع العلماء وأهل اللغة، لكن كلام الله ليس ككلام العباد، وهذا منهج أهل السنة والجماعة يثبتون صفة كلام الله كما أثبتها لنفسه سبحانه لكن بلا تكييف ولا تمثيل، فليس كمثله شيء.

فالله تعالى تكلم بالقرآن، وسمعه جبريل عليه السلام، ونزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، وسمعه النبي ﷺ من جبريل عليه السلام.

القول الثالث: الإنزال عند أهل السنة والجماعة ثلاثة أشياء:

١- إما أن يأتي مقيدًا بأنه من عند الله:

قال تعالى: {وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴿١١٤﴾} [الأنعام] أي منزل من عند الله.

كذلك أيضًا قوله تعالى: { تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾} [الزمر]. إلى غير ذلك من الآيات.

٢- وإما أن يأتي مقيدًا بالنزول من السماء:

قال تعالى: { وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴿١٨﴾} [المؤمنون] فالسماء

اسم جنس لكل ما عَلَا، فإذا قيدت كان معناها السماء التي نعرفها مثل قوله تعالى { ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ ﴿٦٩﴾} [الواقعة].

٣- وإما أن يأتي مطلقًا؛ لا يُقيد بأنه من عند الله ولا من السماء:

قال تعالى: {فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٦﴾} [الفتح] فأنزل السكينة على القلب؛ ليهدأ.

فمعنى الإنزال معروف أنه من أعلى لأسفل، وليس كما زعم أهل الباطل من الفرق الضالة.

قوله تعالى: {أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥﴾}.

{أُوْلَٰٓئِكَ} مَن هُم؟ هم الذين وصفهم الله عز وجل بالأوصاف السابقة من إنفاق في سبيل الله وإيمان ويقين وإذعان لأمر الله.

{عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ}: لماذا جاءت (هدًى) نكرة ولم تأتِ (الهدى) معرفة؟ لأن التنكير للتعظيم؛ فعظَّم الله أمرهم وشأنهم، وأيُّ هداية أعظم ممن اعتقد اعتقادًا صحيحًا وعمل به واستقام على الطريق.

{عَلَىٰ} حرف استعلاء؛ لأن المؤمن مستعلٍ بإيمانه ويقينه وتقواه وحبه وإقباله على الله وتركه للدنيا والانتصار على النفس؛ وأعظم شيء الانتصار على النفس الأمَّارة بالسوء التي تسحب النفس للشهوات، وكل هذا بفضل من الله دون عُجْب أو غرور.

وعلى خلاف ذلك نجد استخدام الحرف (في) في القرآن يُستخدم مع أهل الضلال مثل قوله تعالى: {وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤} [سبأ] جاءت (على) مع الهدى و(في) مع الضلال؛ فلفظ (على) مع المؤمنين من العلو، أما الضال منغمس في الشهوات فيصعب عليه أن يخرج من هذا البحر بحر الشهوات والشبهات.

{وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ}: الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، فما دام الإنسان على طريق أهل السنة والجماعة فهو من المُفْلحين الفائزين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ
لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ
أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ
ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ
ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ
وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ
إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ
بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ ﴾

بعدما ذكر الله عز وجل أحوال المؤمنين وأثنى عليهم شرع في الكلام عن المنافقين وعن الكفار .

قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} المعنى أن فريقًا من الكفار سواء أَأَنْذرتهم يا محمد أم لم تنذرهم لن يؤمنوا بك يا محمد، وليس كل الكفار؛ لأن بعضًا من الآيات الأخرى أخبرت أن بعض الكفار سيؤمنون مثل قوله تعالى {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوَاْ إِن يَنتَهُواْ يُغفَرْ لَهُم مَّا قَد سَلَفَ (٣٨)} [الأنفال].

والسبب في كفرهم أن الله ختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم غشاوة، وأيضًا لهم عذاب عظيم.

{كَفَرُواْ} الكُفر من التغطية، وكَفْر الشيء ستره وتغطيته، والكفر أنواع منه: (الجحود) ككُفر فرعون، وكفر (إباء واستكبار) ككفر إبليس.

{ءَأَنذَرْتَهُمْ} الهمزة الأولى الراجح فيها أنها همزة التسوية؛ أي سواء أَأَنْذَرْتَهُمْ أم لم تنذرهم فالنتيجة واحدة.

قوله تعالى: {خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧}.

{خَتَمَ} الخَتْم معناه الاستيثاق من الشيء كي لا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما دخل فيه، ومعنى الاستيثاق أي أن الشيء الذي خرج لن يدخل والذي دخل لن يخرج؛ فإذا ثبت في القلب

النفاق والكفر فلن يخرج، وبالتالي لن يدخل الإيمان؛ وذلك نتيجة لعدم اتعاظهم بكل الرسائل والآيات التي تُرسَل إليهم مرة بعد مرة، فختم الله على قلوبهم.

{عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ} أي أن كل الآلات التي تؤدي للانتفاع لن ينتفع بها.

وبدأ بـ {قُلُوبِهِمۡ} لأنها أكثر آلة يمكن أن ينتفع بها الإنسان؛ فالقلوب التي يعقل بها الإنسان هي التي تنتفع.

{وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ} المقصود هنا الاستجابة والاتعاظ والفهم، أي مهما سمع الحق لا يستجيب ولا ينتفع.

{وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ} نلاحظ أن كلمة (قلوب) و(أبصار) جاءت جمعًا بينما كلمة (سمع) جاءت مفردة، فلماذا وضع المفرد بين جمعين؟

(القلوب) و(الأبصار) أسماء، والاسم يُجمَع لا مانع، لكن (السمع) مصدر، والمصدر لا يُجمع ولا يُثَنَّى لأنه يجري مجرى الفعل.

{غِشَٰوَةٞۖ} أي تغطية الشيء تغطية كاملة بحيث لا يظهر منه شيء.

{وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ} العذاب في القرآن يأتي على أنواع:

مهين وأليم وعظيم ومقيم. وكل كلمة لها معنى ومغزى خاص بأهلها:

(العذاب العظيم): قد يُذكر مع المسلم وغير المسلم مثل قول الله تعالى في حادثة الإفك {وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾} [النور].

(العذاب الأليم): قد يُذكر مع المسلم وغير المسلم، وهو العذاب المؤلِم، والألم قد يكون نفسيًا أو بدنيًا فتتألم النفس أو يتألم الجسد.

(العذاب المهين): فلا يُذكر في القرآن إلا مع الكافر مثل قوله تعالى: {فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾} [البقرة] لماذا؟ لأن الكافر في الدنيا كان متكبرًا مستعليًا على الله وأوامره فكان الجزاء من جنس العمل.

(العذاب المقيم): أيضًا لا تأتي إلا مع الكافرين؛ لأنهم مخلدون في النار فمعنى مقيم: دائم لا ينفك عنه؛ فعقيدة أهل السنة والجماعة أن المسلم العاصي الذي يموت على التوحيد غير مُخَلَّد في النار؛ فهو إما أن يعفو الله عنه ويدخله الجنة، أو يُعَذَّب في النار بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة.

لذلك لا يُذكَر العذاب المقيم ولا المهين مع المسلم، وهذا من فضائل التوحيد فحتى العذاب لا يُهان المسلم فيه ولا يُخلد.

قوله تعالى: { وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا

هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾}.

هذه الآيات نزلت في المنافقين؛ والمنافق مَن يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

قوله تعالى: {يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ} والخِداع من الإخفاء أي أخفى الكفر وأظهر الإيمان، والخداع من البشر مذموم من كل وجه، أما صفة الخداع في حق الله فهي من صفات الكمال نُثبتها لله لكن ليس من كل وجه؛ ففي قوله تعالى {إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾} [النساء] لفظ الخداع واحد لكن المعنى مختلف فخداع الله لهم كان مقابل خداعهم فكان ذلك من صفات الكمال لله عز وجل.

قوله تعالى: {فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾}.

أي في قلوبهم مرض الشك، والمرض هو خروج الشيء عن اعتداله وقد يكون في القلب أو الجسد، ومرض القلب في هذه الآية شُبهة وليس شهوة؛ لأن الشك في الدين يُعد من أمراض الشبهات، وهذه الكلمة جاءت في سياق الحديث عن المنافقين.

{فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا} على الرغم من أن الله رحيم لا يعجل بالعقوبة إلا أنه زادهم مرضًا لأنه سبحانه يعلم في سابق علمه أن هؤلاء لن يؤمنوا فختم على قلوبهم، فلا يدخل فيها ما خرج منها،

ولا يخرج منها ما دخل فيها، فزادهم مرضًا على مرض.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} أي لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا ألم الفضيحة وإظهار نفاقهم أمام الناس، وفي الآخرة العذاب أعظم وأشد.

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾}.

هذه المناظرة بين المؤمنين والمنافقين، والمناظرات في القرآن تزيد المسلم فَهمًا وإقرارًا وتكون إبطالًا للشبهات الفاسدة مما يشفي القلوب ويزداد المرء معها إيمانًا.

{وإذا قِيلَ} الفعل مبني للمجهول كي يخبر أن أي قائل يقول هذا القول سواء كان الرسول أو المؤمنون أو غيرهم فهم لن يقبلوا وذلك حتى يُبيّن شدة الإنكار والاعتراض منهم.

وإذا قال المؤمنون لهم {لا تفسدوا في الأرض} أجاب المنافقون {إنما نحن مصلحون} وكأنهم يحاولون قطع المناظرة لأنهم لا يريدون الهداية أبدًا، لكن الله لم يُعطِ لهم هذه الفرصة، فسجل عليهم أربع إسجالات:

١ـ تكذيبهم.

٢ـ أخبر أنهم مفسدون.

٣ـ حصر الفساد فيهم {هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ}.

٤ـ وصفهم بغاية الجهل؛ فنفى عنهم الشعور {وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ} وبعد ذلك نفى عنهم العلم {وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ}.

وهذا أشد أنواع الذم والتجهيل من الله لهم؛ لأن الإنسان إذا كان فاسدًا وفساده ظاهر للجميع وهو وحده الذي لا يراه فهذا غاية السَّفَهِ، والسَّفَهُ غاية الجهل.

{ٱلسُّفَهَآءُ} السَّفَهُ هو الجهل بما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه بل والإقبال على ما يضره في الدنيا والآخرة، وهذا غاية الجهل.

فنفي (الشعور) نتيجة فساد آلات الإدراك التي يدرك بها الإنسان الحق، ونفي (العلم) نتيجة السَّفَهِ الذي هو غاية الجهل، فتضمنت الآيتان جهلهم، وفساد آلات الإدراك لديهم بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا، والشر خيرًا.

ففي المرة الأولى أثبتوا لنفسهم الصلاح، وفي المرة الثانية زادوا على ذلك وذَمّوا مَن أراد الإصلاح.

وعلى الرغم من أن الآية تتحدث عن المنافقين إلا أن بعض المسلمين يفعلون مثل هذه الأفعال، نسأل الله أن يُعَلمنا ويُفَهمنا

ويُبصِّرنا ويصلح لنا آلات الإدراك حتى نرى الحق حقًّا والباطل باطلًا.

{وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} المنافقون هم الفئة المقصودة بهذا الخطاب؛ لأن سياق الآيات كان في الحديث عنهم، فالمنافق إذا جلس بين المؤمنين ادّعى الإيمان والتقوى والحب للإسلام؛ لأنه يريد بذلك أن يحفظ ماله ونفسه وغير ذلك.

{وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ} حرف الجر (إلى) قد يأتي بمعنى (الباء) أي بشياطينهم، وقد يأتي بمعنى (مع) كقوله تعالى:{ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢} [النساء] أي مع أموالكم.

{شَيَٰطِينِهِمۡ} المقصود هنا هم شياطين الإنس؛ فكلمة شيطان يمكن أن تُطلق على الإنس كما تطلق على الجن وهذا بنص القرآن { وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ ۝١١٢} [الأنعام].

فالمقصود بقوله: {إلى شياطينهم} أمثالهم من المنافقين، وأُطلِق عليهم شياطين؛ لأن حالهم كحال الشياطين بعيدين عن كل خير.

{إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ} أي ساخرون بأصحاب محمد ﷺ، فهم يُظهرون الإيمان في حين أنهم يُبطنون الكفر.

قوله تعالى: {ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٥}.

لقد جازاهم الله عز وجل باستهزائهم استهزاء مثله، ولكن

الاستهزاء هنا ليس صفةً لله على الإطلاق، ولكنها من صفات الأفعال إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كما أنه يُنسب لله فيها أكمل الوجوه، ولقد جاء الاستهزاء من الله بهم لأنهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين.

{ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ} لماذا لم تأتِ معطوفة على ما سبق؟ فقد يُقال: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ واللَّهُ يَسْتَهْزِئُ) وهذا سياق محتمل، ولكن الله عز وجل بدأ استئنافًا في غاية الفخامة والعظمة؛ بدأ الآية باسم الجلالة الله {ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ} لأنه سبحانه جلّ وعلا هو مَنْ تولى أمرهم والرد عليهم فقد استهزأ بهم بنفسه.

واستخدام الفعل المضارع {يَسۡتَهۡزِئُ} أفاد استمرار الاستهزاء بهم مرة بعد مرة؛ أي على الدوام، ولم يقل (مستهزئ) في مقابل مستهزئون.

وقفات:

-إذا اجتمعت على الإنسان العقيدة الفاسدة والمعاصي، ومع ذلك تأتيه العطايا فيجب عليه ألا يأمن. لماذا؟ لأن عطاء الله سبحانه ربما يكون مكرًا واستهزاءً واستدراجًا منه سبحانه وتعالى، وقد لا يكون علامة رضا وخير.

-العبد إذا كان لديه صفة سيئة فعليه أن يحذر. لماذا؟ لأنه يُحاسَب على كل سيئة فعلها في الدنيا والآخرة، فلا بُد من السعي

لإصلاح القلب وإصلاح الحال مع الله عز وجل؛ لأن الاستمرار في اعتقاده أنه يمر ويدخل الجنة بالرغم من فساد قلبه، فإن هذا الاعتقاد يؤدي بصاحبه إلى النار.

{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ} يتركهم ويُمهلهم فِي ضلَالتهم يَتَرَدَّدُونَ ويتحيرون، والإمداد والمد شيء واحد أصله الزيادة ولكن في أكثر الأحوال نجد أن أمدَّ تأتي في الشر، أما الإمداد فإنه يأتي في الخير إلا إنها ليست قاعدة مطردة.

قوله تعالى: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾}.

{ٱشْتَرَوُاْ} تقول العرب: كل من ترك شَيْئًا وَتمسك بِغَيْره فقد اشْتَرَاهُ، تلك كانت لغة العرب، فلا يلزم أن يكون الشراء والبيع محصورًا في الأشياء المادية بل هي الرغبة في الأشياء، (وهذا حتى لا يُقال: هناك مجاز)، فمجرد التمسك بالشيء والرغبة فيه يُقال عنه شراء.

{ٱلضَّلَٰلَةَ} أصل كلمة الضلالة هو الجور عن القصد وفقد الاهتداء، فكل مَن حاد عن الطريق الصحيح والصراط المستقيم فقد ضل، وبهذا فقد باع الهدى واشترى الضلالة.

{بِٱلْهُدَىٰ} الباء تأتي للعوض، فدائمًا ما تُضاف الباء للشيء القيم الذي سيُشترى، والألف واللام تضاف إلى الخاسر؛ قال

تعالى:{ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾} [البقرة].

{فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ} ما نافية، والربح أُسند للتجارة وليس لهم (فلم يقل: فما ربحوا في تجارتهم) وهذا فيه اختصار يدل على سعة الكلام وحسن البيان.

{وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} نفى الهداية عنهم؛ لأن ترك الطريق المستقيم وشراء الضلالة يؤدي إلى العمى والبعد عن الحق.

والنفي في الآية شمل الربح في التجارة وكذا الهداية، إذن مدار الربح والخسارة يتوقف على الهداية، فالرابح هو مَن هداه الله فانشرح صدره واستقام على الطريق، أما الخاسر فهو كل مَن حاد عن الحق وضل عن الصراط المستقيم ظن أنه رابح أو لم يظن.

قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا
حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ
عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ
وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ
مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ
وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ
بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا
تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ
عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: {مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾}.

{ٱلَّذِى} اسم يدل على مفرد، والشق الثاني من الآية (بنورهم، تركهم، يبصرون) كلها جمع، فلماذا جاء الشق الثاني من الآية جمعًا بينما (الذي) اسم مفرد؟ لأن لفظ (الذي) يُذكر مفردًا ولكن المعنى يُقصد به الجمع وهذا بدليل السياق فسياق الآية يدل على أن الكلام للجمع (وقد ورد هذا في الكثير من الآيات)، والإتيان بهذه الألفاظ على هذه الصورة يدل على عظمة القرآن وحسن البلاغة وبيان الإعجاز اللغوي.

ومن فوائد ضرب الأمثال في القرآن:

١- تعطي سعة في الفهم.

٢- تُقرِّب المعاني.

{ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا} طلب إيقاد النار؛ قال سبحانه: {ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ} ولم يقل (ذهب بضيائهم) لأن النور يشمل القليل منه والكثير، أما الإضاءة فلا تطلق إلا على الإضاءة القوية مثل الشمس والقمر، وبالتالي قال: نورهم؛ ليُبين أنه سبحانه لم يُبقِ لهم أيَّ نورٍ لا كبيرًا ولا صغيرًا.

فكانت النتيجة أنِ انطفأ عليهم نور الهداية بالكلية فلم يبقَ شيء منه في القلوب ولا البصائر ولا الأسماع.

{ظُلُمَٰتٍ} ظلمات الجهل والعمى وظلمات القلوب، وكل هذا كان ناتجَ النِّفاق والابتعاد عن الحق ورفضه.

وهذا المثال يُبين انطفاء النور عليهم في اللحظات التي كانوا فيها في أمس الحاجة إليه.

قوله تعالى: {صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨}.

{صُمٌّ} عن سماع الإدراك والإجابة والتَّفهُم والتعقُّل والرغبة في العمل.

{بُكۡمٌ} لا يتكلم، فهو يعرف الحق ولا يُظهره، فهو منافق.

{عُمۡيٌ} لا يبصر، فقد عميت بصيرته لا بصره.

{لَا يَرۡجِعُونَ} أي لا يرجعون إلى الحق مطلقًا، وهذا هو حال المنافق.

قوله تعالى: {أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩}.

{كَصَيِّبٍ} الصيب هو الماء النازل بغزارة من السماء.

والمُشاهد: أن الماء إذا نزل على هذه الصورة فإنه يكون مصحوبًا بالرعد والبرق، والرعد له صوت قوي جدًّا، أما البرق فله إضاءة ولكنها سُرعان ما تختفي، وهذا هو حال المنافقين، حالهم بين

التجاذب والتدافع كحال النفوس التي تنجذب للخير في لحظة وهي لحظة سماع الحق (ويكون ذلك بسبب ما بقي بداخلها من أثر الفطرة)، ولكن سُرعان ما تبتعد مرة أخرى عن الحق والقرآن، فالفطرة تجذب والشر يدفع هذا الخير عن القلب.

- هذا المنافق بعدما أظلم عليه النور (في الصورة الأولى) وجد فجأة رعدًا وبرقًا فشاهد معهما شيئًا من الإضاءة ولكنه لم يذهب إليه، بل لم يكن منه إلا أن وضع أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع، ولكن ما السبب في ذلك؟ لأنه لم ير من البرق والرعد والصيب إلا الشر، وهذا هو حال مَن ذهبت بصائرهم فهم لا يرون أن المطر هو الذي يُحيي الأرض ومَن عليها فهو يؤدي إلى كل خير، بل ينظرون فقط للمشقة التي تترتب على هذا الصيب، وكذا هو حال ضعيف البصيرة بالنسبة للدين فهو لا يرى إلا التعب والمشاق الموجودة في التكاليف فلم ينظر إلى الخير الذي سيأتيه من وراء الجهد المبذول والتعب والمشقة من أجل الدين؛ لأن القلوب معلقة بالدنيا وهذا النوع ليس لديه استعداد للبذل إلا من أجل الدنيا، وهذا هو حال أكثر قلوب المسلمين، فالكثير من قلوب المسلمين اليوم تلبست بهذه الصفات {صم بكم عمي فهم لا يرجعون} فهم لا يعقلون ولا يتعظون بل يسعون للحصول على الدنيا حتى لو كان هذا على حساب الدين.

{يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم} فالأوامر والنواهي والزواجر شاقة على نفس المنافق.

والمثال الأول: متضمن لحدوث الظلمة لأن القلب كان خبيثًا وكذلك النفس،

ففيه بيان لحال المنافقين حين ينطفئ نورهم وهم أحوج ما يكونون إليه.

والمثال الثاني: تضمن الخوف وهو ضد الأمن، وهنا بيان لحالهم أيضًا فمع الظلام يأتي الخوف وهو ضد الأمن، والضلال الذي هو ضد الهداية (فلا نور ولا أمن ولا هداية).

ومن العلماء مَن فَسَّر تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا أو في البرزخ أو في يوم القيامة، والصواب أن ذلك شأنهم في الدور الثلاث.

قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ﴾ يكاد البرق من قوة لمعانه وهم ينظرون إليه أن يخطف أبصارهم؛ فمثله كمثل النور الشديد الذي إذا نظر إليه الإنسان يمكن أن يذهب ببصره، فبيَّن الله سبحانه حال هؤلاء حيث أنهم كانوا يظنون أن شدة النور يمكن أن تذهب بأبصارهم، ولذلك كانوا كلما أضاء لهم مشوا فيه.

﴿كُلَّمَآ﴾ ولم يقل (إذا) لأن (كلما) تدل على التجديد (أي كلما

نظر سيذهب بصره)، أما (إذا) فهي تُنبه لسبب سيقع ويحدث في الحال.

{وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ} أما إذا هنا فهي للدلالة على شدة حرصهم على الذهاب والنجاة بأنفسهم من هذا البرق والرعد.

{وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ} الله الذي له القدرة الباهرة -التي لا نهاية لها- والعظمة الكاملة وكل صفات الكمال، تَرَكَ هؤلاء لحكمة، فلو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم لأنه على كل شيء قدير (فقدرته مطلقة لا تضاهيها قدرة).

قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾}.

هذا توجيه إلهي بعبادة الله الواحد الأحد، وقد تضمنت الآية كلًّا من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية:

توحيد الربوبية: إفراد الله بـ (الخلق- الملك - التدبير).

توحيد الألوهية: إفراد الله بالعبادة (فالله سبحانه هو المستحق وحده أن يُعبد).

وكذلك تضمنت صِدْق النَّبيِّ ﷺ وصِدق رسالته.

ملحوظة: هناك قول بأن النداء إذا كان {يا أيها الناس} تكون الآية مكية، أما إذا كان {يا أيها الذين آمنوا} فإن الآية تكون مدنية،

وهذا قول خاطئ؛ لأن هناك آيات قيل فيها {يا أيها الناس} وبالرغم من ذلك هي مدنية.

{ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ} أَمْر من الله سبحانه بعبادته وحده لأنه هو المُتفضل عليكم بالإنعام والإحسان والنعم الظاهرة والباطنة وهو خالقكم وخالق آبائكم وأجدادكم.

والرب وحده هو الخالق فلا خالق معه، وهو المالك فلا مالك غيره، وهو المُدبر لكل أمور خلقه سواء الظاهرة أو الباطنة.

سؤال: لماذا قال: اعبدوا ربكم. ولم يقل: اعبدوا الله؟

هذا هو منهج القرآن حيث الاستدلال باعتراف البشر بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فإذا كان هو الرب الخالق صاحب النعم والفضل على كل الخلق وهو المدبر لكل أمر فالواجب علينا فعله هو أن نعبده وحده، لقد كان الحديث موجهًا للمشركين المعرضين عن العبادة بالرغم من إقرارهم الكامل بتوحيد الربوبية فكان القرآن يستدل باعتقادهم على فساد معتقدهم.

فلقد كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق وجاء ذلك في أكثر من موضع في القرآن {وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٥} [لقمان].

لقد اعترف الكفار بخلق الله لهم وللسماوات والأرض، ولم يكن اعترافًا فقط بل كانوا يوقنون أن الله هو الخالق، أليس من الواجب

بعد هذا اليقين أن يعبدوا هذا الخالق بدلًا من الصنم الذي صنعوه بأيديهم؟! فإذا اعترف الإنسان بأن الله هو الرب فالواجب عليه بعد ذلك أن يعترف أنه سبحانه هو الواحد الأحد المستحق للعبادة وحده دون غيره.

{وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ} لقد نبّه سبحانه على أنه الخالق لهم وللسابقين وفي هذا بيان للقدرة والعلم والحكمة.

{لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ} قيل إن المقصود هو (لكي) أي حتى تتقوا الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: {ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾}.

{فِرَٰشٗا} بساطًا، وقيل: منامًا، وقيل: غطاء.

أي ذلَّل لكم الأرض ومهَّدها فجعلها بساطًا وفراشًا كما أنه سبحانه جعل فيها الجبال حتى لا تميد بالعباد.

{وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ} فجعلها سقفًا مرفوعًا ولم يجعلها قريبة من الخلق، كما أنه سبحانه لم يجعل لها أعمدة، وكل هذا حتى يسير الإنسان في الأرض وهو منشرح الصدر.

{وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ} أنزل الماء من السحاب.

{فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ} فلو لم ينزل الماء من السماء لمات الخلق؛ لأن الأنهار مع الوقت ستجف، فنزول الماء من السماء هو الذي يحافظ على الأنهار فلا تجف.

{رِزْقًا لَّكُمْ} فنزول الماء يعني حياة الأرض، وبالتالي ينبت الزرع والثمار

(طعام الإنسان والحيوان)، وحياة البشر والحيوانات متوقفة على هذا المطر.

{أَندَادًا} النِّد: المثيل والشَّبيه والنَّظير.

فبعد ذكر الخلق والرزق وتدبير الأمر والتفضل بالنعم أمر العباد بأن لا يجعلوا له أندادًا وهم يعلمون، ومن أعظم الذنوب على الإطلاق هو أن يجعل الإنسان نِدًّا لله وهو الخالق.

تنبيه: في هذه الآيات دعوة للتفكر والتأمل فعندما يكون الكلام موجهًا للكافر أو المنافق فلا ينبغي أن نمرَّ عليه سريعًا لأن بعض المسلمين عند قراءة هذه الآيات يظنوا أنها مُوجَّهة للكافر أو المنافق فقط وبالتالي لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتأملون، وهذا خطأ عظيم لأن الله يعلم أن هذه الآيات مَن يقرأها هم المسلمون وليس الكفار، فالفائدة تعود على المسلم وليس الكافر، إذن لا بُد من التفكر والاتِّعاظ، فقد يكون المسلم مُتلبسًا ابتداءً بخصلة من خصالهم، وقد يكون في غفلة عن هذه النعم وبالتالي فلا يؤدي

شكرها.

والآيات تحمل التنبيه للكفار والمنافقين والزجر لهم وأمرهم بالكف عن ما هم فيه من المعاصي والذنوب والكفر، ومن ناحية أخرى تُوجه المسلم للتفكر والاتعاظ والتأمل فيتحقق التأثير وتعُم فائدة الآيات من الناحيتين.

{وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي وأنتم تعلمون أن الله هو الواحد الأحد.

فأنتم تعلمون أنه الخالق (خلقكم وخلق آباءكم وخلق أرزاقكم وأنزل لكم الأمطار).

فلم يدَّعِ أحد أن الأصنام هي التي فعلت هذا الأشياء، وبالتالي لا تجعلوا لله أندادًا، أليس هذا بخطاب عقل أم لا؟ وإقامة الحجة ينتج عنها الإتيان بالعمل.

يقول أهل البلاغة واللغة: إن الآيات تتضمن دليلين:

١- الاختراع والإنشاء. ٢- العناية والحكمة.

١- **الاختراع والإنشاء:** والأمثلة كثيرة في القرآن مثل هذه الآية التي نتحدث عنها ومنها أيضًا { ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾} [إبراهيم].

ويوجد في القرآن الكثير من الآيات التي يُعدد فيها الله عز وجل نعمه على العباد وهذا هو دليل الاختراع والإنشاء وهو دليل قوي جدًّا لكل مُلحد أو مُعارض أو منافق.

٢- **العناية والحكمة:** فإذا كان الأمر كذلك إذن هناك عناية بهذا الخلق الذي خلقه سبحانه فهو الرب (الخالق- المالك - مدبر الأمر ثم الحكمة {اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}.

قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾}.

المعنى: إن كنتم في شك بعد كل هذا البيان وبعد إقامة الحجة البالغة عليكم فأتوا بدليل، فبعد أن ساق الله عز وجل الآيات الباهرة وأقام الحجة الدامغة على أنه الرب وأنه وحده المستحق للعبادة أمرهم إن كانوا في شك من الذي أُنزل على النَّبي ﷺ أن يأتوا بدليل (سورة مثل ما في القرآن) دليل ملموس؛ أي سورة واحدة مثل الذي أُنزل على عبدنا (وفي هذا تقرير وإثبات لنبوته ﷺ).

ملحوظة: ورد في بعض الكتب أن هناك فرق بين (أنزل) و(نزَّل) فيقولون أن (نزَّل) تعني النزول التدريجي، أما (أنزل) فتستعمل في النزول الكلي للشيء (جملة واحدة) وهذا القول خاطئ؛ لأن هناك آيات تُبين أن (أنزل) يمكن أن تُستعمل في النزول التدريجي:{ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ

شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾} [النحل]، كما أن (نُزِّل) يمكن أن تستعمل في النزول جملة، قال تعالى:{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾} [الفرقان] وكان المفترض حسب قولهم أن يُقال (أنزل).

فهذا وارد بالفعل لكن لا يجوز أن نجعلها قاعدة مطردة ونبني عليها أحكامًا،

قد يكون هناك من أهل العلم مَن قال بهذا، ولكن هناك أقوال راجحة ومرجوحة في كتاب الله، ولا يصح التحدث بالمرجوح بل لا بُد من الأخذ بالراجح فهو كتاب الله.

سؤال: ما هي أفضل الطرق التي يمكن بها مناظرة (مجادلة) الملحد والشاكِّ في كتاب الله؟

الملحد مُنكر لوجود الله عز وجل، وبالتالي هو منكر لكتابه العزيز، فإذا أثبتنا أن القرآن كلام الله فإننا بذلك نثبت أن الله عز وجلّ موجود (وذلك بذكر الأدلة الواردة في الكتاب والدالة على أن القرآن هو كلام الله) وهكذا تنتهي المناظرة.

كيف نُثبت أن القرآن كلام الله؟

١- هل فصاحة القرآن مساوية لفصاحة كلام العرب أم أنه يزيد بنسبة قليلة لا تعطيه مكانته المعروفة؟ هذان اختياران باطلان؛ فالقرآن هو الأعلى؛ لماذا؟

لأن الله تحداهم به وهذا يدل على أن فصاحة القرآن أعلى بمراحل، وأن البَوْنَ بينه وبين كلام العرب شاسع، فرغم توافر الدواعي لإبطال القرآن لكنهم عجزوا تمامًا عن ذلك.

٢- القرآن مُنزَّهٌ عن الكذب؛ فالله سبحانه هو الحق وقوله حق.

فالكلام بصورة عامة والإطالة فيه (وهذا معروف عند بُلغاء العرب) عندما يُنتزع منه الكذب فإن جودة الشعر تقل، ولكن القرآن بالرغم من خلوه من الكذب إلا أنه لم تقلّ جودته عن مستوى كلام العرب بل على العكس؛ فالناظر في القرآن يجده غايةً في البلاغة والفصاحة، وأهل اللغة منهم يعلمون ذلك.

٣- الفصيح من الشعراء كان بإمكانه أن ينظم عدة أبيات من الشعر بدرجة عالية من البلاغة والفصاحة ولكنه لا يستطيع أن ينظم القصيدة كاملةً بنفس الدرجة العالية منهما، أما القرآن الكريم كاملًا فإنه غاية في البلاغة والفصاحة من أول آية إلى آخر آية.

٤ ـ الملاحظ في الشعر العربي الفصيح أنه عند تكرار الكلام يكون المُكرَّر أقل منزلة من القول الأول، وكذا أي كتاب إذا سبق للإنسان قراءته فإن إعادة قراءته للمرة الثانية لا تكون بنفس درجة الانجذاب الأولى، بل قد يشعر القارئ بالملل، أما بالنسبة للقرآن فهناك باب كامل في علوم القرآن يسمى باب التكرار

(ألفاظ، قصص،...) ومع ذلك لا يشعر قارئ القرآن أبدًا بالملل

أو ضعف مستوى البلاغة أو عدم فصاحة الكلام.

٥ - آيات القرآن ما بين (عبادات، أحكام، قصص، معاملات) أما أشعار العرب فكانت تتناول ذكر (النساء، الخيل، الخمر، وغير ذلك من ملذات الدنيا) هذه الأشعار كانت تجذب أسماع العرب عند سماعها نظرًا لموضوعاتها التي تتحدث عنها، فإذا ما قُرِئَتْ عليهم آيات القرآن بما تحمله من موضوعات فإن المنتظر حينئذٍ أن تنصرف النفوس عنها، لكن ما حدث كان خلاف ذلك فلم تقلّ درجة انجذاب الأسماع للآيات القرآنية، فالقرآن لا يُقارن بفصاحة العرب في الشعر الجاهلي؛ لأنه هو الأعلى وهذا سبب ما كانوا فيه من حالة الغِل والغليان وجعلهم يحاولون اتّباع كل الطرق التي يمكنهم بها إثبات بطلان هذا الكتاب إلا أنهم عجزوا عن فعل ذلك.

٦- لقد كان الجن يسمعون كلام البشر وكذا أشعارهم إلا أنهم تعجبوا حين استمعوا للقرآن ولهذا أسلم البعض منهم: {قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢} [الجن] لما رأوا هذه البلاغة وتلك الفصاحة التي عجز العرب عن مجاراتها، وهذه القضية عرفها الكفار جيدًا فقاموا بمحاربة المسلمين منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام حتى اليوم للوصول إلى ضياع اللغة.

٧- حتى في الترغيب والترهيب والزجر والوعظ كانت الآيات غاية في البلاغة والجمال؛ قال تعالى في الترغيب: { فَلَا تَعۡلَمُ

نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧} [السجدة]، وقال سبحانه: {إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥} [القمر]. وفي الترهيب يقول سبحانه: {ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧} [الملك]؛ فالآيات على الرغم من الاختصار والحذف إلا أن هناك جزالة في الألفاظ وجمالًا وروعة في التعبير وفخامة في المعنى (اختصار بلا ملل ولا خلل).

٨ - يتضمن القرآن أصل كل العلوم: (الفقه، العقيدة، أصول الفقه، البلاغة، الحديث) فإذا أراد شخص ما أن يكتب (مادة أو شعرًا) ويجمع فيه كل هذه الموضوعات فإنه من المستحيل أن يكون متماسكًا، فموضوعات القرآن مختلفة ما بين ترهيب وترغيب وأحكام وزواجر ووعظ وقصص وعلوم متعددة جُمعت في هذا الكتاب العظيم، وبالرغم من ذلك نجده خالٍ من النقص بل هو كامل متكامل ليس به ثغرة ينفذ أحد من خلالها فيقوم بالطعن فيه { لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢} [فصلت].

{فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ} الفاء: جواب الشرط. {بِسُورَةٖ} السورة في اللغة قيل: سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض: سور، وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب

للناقة التامة: سورة.

{وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم} أي أعوانكم وأنصاركم، والشهيد هو: مَن شَهِدَ شيئًا أو أخبر بشيء.

لماذا قال الله تعالى: (شهداءكم)؟

لقد أراد أن يشهد عليهم أعوانهم وأنصارهم حين تحداهم في الإتيان بسورة من مثل القرآن، وبهذا يكون التحدي أبلغ؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا ولو بسورة من مثله (فهذا مقام تحدٍّ).

{مِّن دُونِ ٱللَّهِ} من غير الله، والدون: هو نقيض الفوق، وقيل: الشيء الحقير.

{إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ} ففي أي شيء يُراد صدقهم؟ المراد قولهم: {قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ٣١} [الأنفال].

قوله تعالى: {فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤}.

{فَإِن} إن الشرطية، الأصل فيها: عدم القطع بوقوع الشيء، فيمكن أن يحدث ويمكن أن لا يحدث.

لماذا قال سبحانه {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا}؟

رغم أن المقام هنا هو مقام تحدٍّ وتعجيز لهم ويقين من عجزهم

وعدم قدرتهم على فعل ذلك إلا أن هذا من باب المُلاينة والتحريض على أن يأتي المُنَاظَر بدليله ولكن بدون عنف (وهذا من باب المجادلة بالتي هي أحسن).

وقد قال الله سبحانه: {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا} ولم يقل: فإن لم تأتوا ولن تأتوا؛ قيل: إن الإتيان هنا عليه شاهد وعليه مشهود، ولذلك فالأولى أن يقول {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا}.

{وَلَن تَفۡعَلُواْ} (لن) تأتي لنفي الفعل على سبيل التأبيد أي عدم وقوعه في المستقبل، وهذا يدُل على مدى الإعجاز وقوة التحدي.

{فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ} هذا أثر لجواب الشرط، وجواب الشرط يأتي لبيان المعنى الذي من أجله وُضع الشرط، ولكن جواب الشرط به محذوف للإيجاز، وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على عظمة بلاغة القرآن (الكلام مفهوم لا يحتاج إلى إطالة النفس في بيانه)، فالإيجاز بديع والاختصار عظيم يعجز كل البلغاء والفصحاء على الإتياء بمثله ولو اجتمعوا للقيام بذلك.

{وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ} هل الحجارة هنا هي حجارة الكبريت أم أن المقصود هو أي حجارة؟ قيل: إن الحجارة التي سيُعذب بها الناس ورد ذكر صفاتها في سورة الأنبياء؛ قال تعالى: { إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾} [الأنبياء]؛ فنظرًا لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله في الدنيا

لتقربهم إلى الله زُلفى؛ فقد جاءتهم العقوبة بإلقائهم هم وآلهتهم في النار؛ فقيل: إن الحجارة هي الآلهة التي صنعوها بأيديهم في الدنيا.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن
ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ
كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ
ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾

{وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} أصل كلمة البشارة هو الشيء الذي يظهر على البشرة (السرور، الحزن)، وأغلب استعمالات البشارة يكون في الخير والسرور كما أنها تستعمل مقيدة وغير مقيدة، أما إذا ذُكرت على وجه التبشير بالشر فإنها تُذكر مقيدة؛ قال سبحانه:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١} [آل عمران].

{هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ} هل المقصود هو: مِن قَبْل (في الجنة) أم من قبل (في الدنيا)؟ قال علماء السلف: فيها قولان:

الأول: التشابه في الحسن والجمال واللذة والنعيم (في الجنة).

الثاني: قالوا: المراد (في الدنيا)، وهذا هو الراجح؛ لأن أهل الجنة يقولون هذا عند دخولهم الجنة والأكل من رزقها، فهؤلاء لم يرزقوا منها قبل ذلك، ولكن سبق لهم ذلك في الدنيا، حيث أن التشابه كان في الأسماء والأصناف، ولكن النعيم وكيفية الثمار مختلفة تمامًا.

{وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا} المتشابه هنا المقصود به الطعام؛ فطعام أهل الجنة يشبه بعضه بعضًا في الجمال والحُسن واللذة.

{وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ} أطلق الحق تبارك وتعالى لفظ التطهير ولم يُقيده بذكر عيبٍ بعينه أو بصفة ذميمة بعينها، وعند إطلاق لفظ الطهارة فإن هذا يعني أنه مُطرد في كل أخلاقها وأفعالها

وخلقتها.

ولقد جاء في هذه الآية أربعة أشياء:

١ـ المُبَشِّر. ٢ـ المُبَشَّر به.

٣ـ المُبَشَّر. ٤ـ السبب المُوصِل للبُشْرَى.

١ـ **المُبَشِّر**: هو رسول الله ﷺ؛ فلقد بشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنة.

٢ـ **المُبَشَّر**: هم المؤمنون.

٣ـ **المُبَشَّر به**: الجنة.

٤ـ **السبب الموصل للبشرى**: الأعمال الصالحة التي ينبغي أن تتضمن شيئين:

ـ أن تكون على هدي النبي ﷺ.

ـ أن تكون كما يحب اللهُ ويرضى.

ولكن علينا أن ننتبه: لأن البُعد عن الهدي النبوي يؤدي إلى هدم الشريعة، وهدم الشريعة أكبر عند الله وأعظم من المعصية؛ لأنها شريعة ملك الملوك.

والبُشرى تحدث للمؤمن في: حياته، وعند موته، وعند القيام من القبر:

البشرى في الحياة: لها علامات وإشارات ودلائل منها

الاستقامة على الطريق؛ أي على العمل الصالح (أعظم الكرامة أن تُرزق الاستقامة) فيكون العمل خالصًا لله وعلى هدي رسول الله ﷺ (إخلاص، اتباع) تلك عاجل بشرى المؤمن.

البشرى عند الموت: وهذا يكون عند نزول الملائكة لقبض روح العبد؛ فإذا رآهم العبد بهيئة معينة كما في الصحيح «**نَزَل إليه ملائكةٌ من السَّماءِ بيضُ الوجوهِ كَأنَّ وُجُوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفانِ الجنَّةِ وحَنوطٌ من حنوطِ الجنَّةِ، حتَّى يجلِسوا منه مدَّ البصر**»(١) فتلك هي البشرى.

البشرى عند القيام من القبر: وهنا أيضًا يجد العبد الملائكة في استقباله ومن عظمة هذا الاستقبال يعرف العبد أنه من أهل الجنة.

{وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} في هذه الجنة وهذا النعيم المقيم هم خالدون؛ خُلودًا سَرْمديًّا أَبَدِيًّا؛ فمع كمال النعيم ودوامه ورضا الله عنهم وهو أعظم أنواع النعيم على الإطلاق كتب لهم الخلود.

قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦}.

الحياء صفة جميلة وعظيمة في كل شيء، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) مسند أحمد (١٨٥٣٤).

«الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[١]، وقَالَ ﷺ: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**[٢].

وهذا يعني: أن مَن انتُزِعَ منه الحياء انعدم بالنسبة له الخلق الحسن، وبالتالي فإن كل سيئ يُمكن أن يَصْدُرَ منه (السرقة، الكذب، الفجور، وكل شيء).

ولكن هل الحياء يمنع من السؤال في أمور الدين؟

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ امْرَأَةُ أَبِي طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، هَلْ عَلَى المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«نَعَمْ إِذَا رَأَتِ المَاءَ»**[٣].

إذًا لا يمنع الحياء من السؤال، ولكن يُشترط أن يكون السؤال مصبوغًا بالأدب، ولا يخرج عن حيز الحياء.

{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ} نثبت صفة الحياء لله عز وجل من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، فالحياء في حق الله سبحانه وتعالى حياءً يليق بكماله وجلاله؛ فصفاته سبحانه ليست كصفات البشر فنثبت المعنى دون الكيف.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢).

سؤال ربما يطرحه البعض: أين إنكار الكفار في هذه الآية؟

- يقول الكثير من العلماء: إن الإنكار جاء في قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} فلماذا ضرب مثلًا بالبعوضة؟

{بَعُوضَةً} هي حشرة صغيرة.

{فَمَا فَوْقَهَا} الأبلغ والأوضح من قول العلماء أي: الأكبر منها.

{فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} دَيْدَن المؤمن هو عدم الإكثار من الاعتراض كما أن أسئلته قليلة؛ لأن قلبه سليم، غير مضطرب عند سماع أوامر الله، فشأنه: إذا قال ربنا هذا فإنه حق.

{وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا} أما الكافر فإنه معترض دائمًا نظرًا لأنه متردد ومتخبط فهو يعرض الأمور أولًا على عقله ويحتاج إلى تبريرات لكل شيء.

وسؤالهم: {مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا}، جوابه: {يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا}؛ أي أن المثل جاء ليميز الخبيث من الطيب؛ قال سبحانه: { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾} [التوبة].

ونزول آيات الكتاب من أعظم النعم التي أنزلها الله على العباد، ولكن البشر انقسموا إلى فريقين:

- فريق ازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم.

- فريق ازدادوا رجسًا إلى رجسهم.

{وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ} وفي هذا بيان للعلة حيث ذكر أن الضلال لن يكون إلا من نصيب المعاند المكابر المجادل {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ}.

والفسق: الخروج عن الشيء المعتاد، والخروج عن الطاعة.

والفسق نوعان:

أحدهما: مُخرج من الملة.

والآخر: غير مخرج منها: قال سبحانه وتعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾} [الحجرات] فهو مسلم عنده شيء من الفسوق، ولكن لا يُخرجه من الملة.

وقفات مع الآية:

١- {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} إثبات لربوبية الله عز وجل العامة والخاصة والتي جُمعت في قوله تعالى:{ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾}

[الأعراف]؛ رب العالمين (ربوبية عامة)، رب موسى وهارون (ربوبية خاصة).

* والربوبية العامة والخاصة يُقابلها عبودية عامة وعبودية خاصة؛ قال تعالى: {إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾} [مريم] هذه هي عبودية القهر التي لا يستطيع أحد أن يخرج منها (عبودية اضطرار عامة)، أما العبودية الخاصة فإنها (عبودية اختيار لا اضطرار) وكلاهما يُؤجر العبد عليهما، ولكن الخاصة أعلى من العامة.

وكما سبق أن قيل: إن حال الكافر دائمًا هو الاعتراض، ووجوه الشريعة لا تُعجبه.

2- {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا} لفظ (كثيرًا) لا يعني الأكثر؛ لأنه لو يعني الأكثر لكانت نسبة الضالين مساوية لنسبة المهتدين في حين أن الواقع بخلاف ذلك؛ (فالكثير) يمكن أن يطلق على القليل والكثير، ولكن لفظ (الأكثر) تعني الأغلبية.

3- ثم عقَّب {وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ} وهذا من أجل إبطال قول القدرية والجبرية.

وقول القدرية (نُفَاة الْقَدَر): إن أفعال العباد ليست مخلوقة بل هم مَن يخلقون أفعالهم، فضلال عقولهم هداهم إلى أن الله إذا كان هو مَن خلق أفعال العباد فكيف يُحاسبهم عليها، ولكنهم هم الذين خلقوا

أفعالهم وخلقوا الشر فجعلوا مع الله خالقًا آخر مثلما فعل المجوس.

- كما أنه رَدٌّ على الجبرية الذين يعتقدون أن الإنسان مجبر، وأن أعماله سواء الصالحة أو الطالحة مجبر عليها وكأنه ريشة في الهواء تتحرك. وكلاهما اعتقاد فاسد[(١)].

٤ – {وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ} لقد كانت علة إضلالهم هي فسقهم.

قوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾}.

{ٱلَّذِينَ} نعت لكلمة (الفاسقين) قبلها. ولم يُذكر في الآية ما الذي نقضوه، لكن ينبغي أولًا أن نعلم ما هو النقض؟ النقض هو: إفساد أي شيء أبرمه الإنسان من عقد، أو عهد أو بناء... أو أي شيء، فنقض البناء أي: هَدَّه، ونَقَض كلام فلان؛ أي: هدمه.

{عَهْدَ ٱللَّهِ} العهد والمعاهدة هي: الشدة في العقد والربط.

{مِيثَٰقِهِۦ} الميثاق هو العقد المؤَكَّد بيمين، والجمع مواثيق.

وما هو العهد الذي نقضوه؟

---

(١) ولتفنيد شبهاتهم والرد عليها بالأدلة والتفاصيل، يُرجع إلى محاضرات القدر على الموقع: https://omtameem.com/category/lessons/3aqida

الله سبحانه وتعالى لم يبيّن ما العهد الذي نُقض في هذه الآية، ولكن هناك آيات أُخر تُبيّن لنا كما قال العلماء: نقضوا العهد الذي أخذه الله تعالى منهم وهم في ظهر أبيهم آدم، وقيل: هذا أول عهد نُقِض وهو أن الله استخلفهم في الأرض، فقد أخذ الميثاق منهم وهم في ظهر أبيهم آدم لمَّا مسح على ظهر آدم واستخرج الذرية وأشهدهم على أنفسهم؛ قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾} [الأعراف].

وأوصاهم الله سبحانه وتعالى بطاعته طاعة مطلقة، وهذه الوصية جاءت على لسان رسله والكتب التي أنزلها على عباده، فجميع رسالات الرسل -باختلاف الشرائع- هي أن نوحِّد الله سبحانه ونطيع أمره ونتجنب معصيته، لكنهم نقضوا هذه الوصية بعصيان الله والبعد عن طاعته.

وقيل: إن الله نَصَب لهم الأدلة على وحدانيته وبيَّن لهم أنه هو الواحد الأحد، والآيات الكونية كثيرة من خلق السموات والأرض، وكل ما في الكون

آية ظاهرة جليّة لأي عاقل أنه الواحد الأحد الذي خلق هذا الكون، لكنهم نقضوا هذه العهود ولم يلتزموا بها.

وقيل أيضًا: إن الميثاق هو إظهارهم لأمر النبي ﷺ أمام الناس

وأنه مصدق لما أخبرهم به التوراة والإنجيل لكنهم لم يظهروه؛ قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾} [آل عمران]، ومَن الذين أوتوا الكتاب؟ هم اليهود والنصارى، {لتبيننه للناس} لتبينوا للناس ما عندكم في الكتاب أن محمدًا سيُبعَث، وأنه هو خاتم النبيين، وأن صفاته كذا وكذا.. كما جاءت في التوراة والإنجيل وأنه هو الصادق المصدوق، {ولا تكتمونه} لا تكتموا الحق، {فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا} اشتروا الدنيا والمكانة والمنزلة حتى يظلوا هم الأفضل، فلا أظهروا الحق ولا ذكروا ما في الكتاب؛ وإنما نبذوا هذا العقد وراء ظهورهم؛ أي نقضوا العقد.

وقيل أيضًا: إنه الميثاق (العهد) الذي أخذه الله تعالى على النبيين أو أتباعهم إذا عاشوا حتى يأتي النبي ﷺ أن يتبعوه لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾} [آل عمران].

بيان أن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أنه إذا ظهر النبي ﷺ يؤمنوا به ويُعزِّروه وينصروه، وأتباعهم يؤيدوه، والأنبياء بالطبع لا إشكال معهم ولكن الذي نقض العهد ولم يستجب

للنبي ﷺ هم أتباع الرسل من اليهود والنصارى.

{وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ} لم يُذكر في الآية ما الشيء الذي يُوصَل؟ وما الذي قطعوه؟ هل الجواب سيكون في سورة (محمد) في قوله تعالى: { فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾} فهل هذه هي الإجابة؟ لا؛ فالآية في البقرة نص عام (يقطعون)، والآية في سورة محمد نص خاص (لأن القطع خُصِّص بقطع الأرحام) فلا يصح تخصيص آية البقرة؛ لأن الذي أمر الله تعالى به أن يُوصَل هو أشياء كثيرة، فلا يصح التخصيص إلا بقرينة (دليل).

فالمعنى في سورة البقرة أوسع، وللعلماء في قوله تعالى {أَن يُوصَلَ} أقوال كثيرة منها:

١ـ أن الله عز وجل أمرنا بالإيمان، وأمرنا أن نصله بالعمل؛ لأن الإيمان قول وعمل (عقيدة أهل السنة) فنصل الأقوال بالأعمال، فلا نقول: آمنا وأعمالنا تدل على خلاف هذا، فهذا فيه قطع للشيء الذي أمرك الله أن توصله، فأبوا إلا أن يتكلموا فقط كمنافقين، والآية تتكلم في سياق عن نفاق الكفار، فتكلم ولم يعمل فقطع ما أمر الله بوصله.

٢ـ المقصود أنهم قطعوا صلة الأرحام فأمرهم الله عز وجل

بوصلها.

وقفة:

هل الأرحام هنا خاصة بأهل الأم، أم الأرحام من جهة الأب والأم؟

قال تعالى: { وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾} [الأنفال] فريق من العلماء قال: أَوْلى الناس بالأرحام هم أهل الأم. وفريق قال: أولو الأرحام كلهم من الجهتين (من جهة الأب ومن جهة الأم). وإن كان هناك توكيد على صلة الأرحام من جهة الأم.

٣- عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة شريعته ودينه في الأرض واجب على كل مسلم، لكنهم لم يقيموا شرع الله ولا عبادة الله سبحانه وتعالى في الأرض، بل قَطَّعوا هذه الشريعة وأصبحوا يفعلون أشياء منها ويتركون أشياء{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴿٨٥﴾} [البقرة] (سنأتي إليها لاحقًا في التفسير) وكذَّبوا ولم يقيموا شرع الله على الوجه الأكمل، (وهذا هو قول الجمهور).

٤- أُمِروا أيضًا أن يكون تصديقهم بالأنبياء متواصلًا، ولكنهم نقضوا هذا ولم يوصلوه بل قطعوه؛ فأُمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ولا يفرقوا بين أحد من رسل الله تعالى، فقطعوا ذلك وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، وهذا يُعد كفرًا كما سماهم الله في قوله تعالى

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾} [النساء].

{وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ} الفساد في الأرض أنهم عبدوا غير الله، وهذه أعظم مفسدة؛ لأن الإنسان لو ترك عبادة الله الواحد الأحد عَبَدَ كل شيء، وهذه سنة كونيّة، وتراها حتى في المسلمين فضلًا عن الكفار، كل من ترك عبادة الله الواحد الأحد وانشغل عن عبادته سلَّط الله عليه عبادات أخرى.

فالله أمرهم بعبادته سبحانه فلم يعبدوه، فأفسدوا في الأرض وعبدوا مع الله آلهة أخرى، إما: أوثانًا وأصنامًا، وإما عبادات أخرى مثل التي ملأت قلوب المسلمين من عبادة النفس والأموال والأولاد.. وغيرها. وأعظم فساد على الإطلاق هو أن يُعبد إلهٌ من دون الله.

{أُوْلَٰٓئِكَ} مبتدأ، {هُمُ} لها وجهان: الوجه الأول: مبتدأ ثان.
الوجه الثاني: ضمير فصل جاء للتأكيد والحصر؛ فضمير الفصل (هم) زائدة، وكلمة زائدة في علم النحو ليس معناها أنه ليس لها فائدة، بل معناها أنه ليس لها محل من الإعراب، ولكن لها فائدة في زيادة المعنى، وكأنه لا أحد أخسر من هؤلاء الذين تلبَّسوا بهذه الصفات الذميمة التي يبغضها الله عز وجل {ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي

ٱلۡأَرۡضِۚ}.

{ٱلۡخَـٰسِرُونَ} فالذي تلبَّس بهذه الصفات خَسِر ولا بُدّ؛ ولذلك أكدها بـ {أولئك هم الخاسرون}؛ يعني خسارة كاملة من كل وجه، فليس أعظم من ذلك خسارة.

و الخسران هو النقصان؛ لأن الخاسر هو كل مَنْ نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز بما أعدَّ الله لها؛ لأن الله تعالى بيَّن لنا طريق الفوز العظيم، وكذلك طريق الخسران، فالعاقل عنده وَجَل وخوف، يعلم أن هناك وقوفًا بين يدي الله وميزانًا وحسابًا، فيخاف من الخسران والحساب يوم القيامة، أما الإنسان الساهي اللاهي الغافل الجاهل بدينه يعيش في غفلة، ولديه اعتقاد فاسد أنه سيدخل الجنة بغير حساب، أو أن الله سيعفو عنه بأعمال بسيطة قد فعلها وغفل أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أبدًا أن يساوي في الآخرة بين مَن عمل وجهد وتعب وقام على أكمل وجه بمقام العبودية مع شخص عاش في الدنيا بلا هدف ولا يدري لماذا يعيش؟! كان مُستهينًا بأوامر الله.

وبالنظر لأحوال السلف: نجد نموذجًا مثل (سفيان الثوري) وهو عالم لا يحتاج إلى تعريف يقول: «إن الله فتح لي في القرآن وتفسيره وتدبره، فلما قَبِلْتُ صُرَّةً من السلطان أُغلق عليَّ هذا الباب»؛ فالثوري وجد أن ما يفتحه الله عليه في القرآن قد قلّ.. فما السبب؟ فلمّا راجَع نفسه وجد أن هذا بسبب أخذه لصُرّة (مبلغ من المال) من السلطان، فما كان منه إلا أن عاد وتاب، وهو لم يفعل شيئًا مُحرَّمًا،

ولكنه أحس أن هذا بداية وقوعه في شيء لا يرضي الله عز وجلَّ، ومن رحمة الله اللطيف الرحيم أنه عندما يكون العبد تقيًّا ربانيًّا ويقع في ذنب يَمُنّ الله عليه بأن ينتبه له، فلما أُغْلِق عليه باب التدبر انتبه للخطأ الذي وقع فيه، وبالفعل عاد سفيان مرة أخرى.

وبهذا نرى مدى شدة حساب السلف لأنفسهم، وشدة تربصهم لها كأن أحدهم متربص بعدو، فكان لديهم حالة من الخوف الشديدة من أنفسهم ودائمًا هم في مراقبة. فأين هذه القلوب الآن؟! أين هذه العقول الآن التي تحاسب نفسها في كل موقف وفي كل كلمة؟!

فائدة:

وجوب الوفاء بالعهد: يقول الله سبحانه: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ۝١} [المائدة]، وقد أمر الله نبيه ﷺ ألَّا ينقض العهد أبدًا؛ لأن نقض العقود فيه خيانة؛ يقول تعالى: { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨}[الأنفال]؛ أي: يا مُحمد مَن كان بينك وبينه معاهدة لا تحاربهم ولا يحاربونك ثم خفت من خيانتهم فلا تباغتهم حتى تخبرهم أنك لن تقبل خيانتهم.

فالخيانة صفة يبغضها الله، فإياك أن تكون من الخائنين؛ وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[(١)]. فأَيّ معاهدة

(١) أخرجه البُخاري (٦٩١٤).

أبرمها الحاكم بيننا وبين (يهود، نصارى، كفار) أن لا نقتلهم ولا يقتلوننا، فلو حدث وقتلهم أحد غدرًا لن يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين، بالرغم من أنه كافر؛ لماذا؟ لأن الله لا يحب الخائنين وحرَّم الخيانة، فهذا ديننا، وهذه شريعتنا السمحاء.

قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ السؤال وإن كان في صيغة استخبار لكنه للتبكيت والتعنيف.

لماذا قال سبحانه وتعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ ثم ذكر آية الإحياء ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بعد التبكيت والتعنيف؟ لماذا لم يقل مثلًا.. كيف تكفرون بالله وقد أعطاكم من النعم كذا وكذا؟!

الجواب: لأن نعمة الإحياء هي أصل النعم، ولن يحصل للعبد أي نعمة إلا بعد أن يكون حيًّا؛ فذكر (الإحياء) ليدل على سائر النعم؛ لأنه لولا الإحياء ما كان هناك نِعَم يصل إليها أبدًا، فتأمل عظمة وبلاغة القرآن، كلام رب العالمين.

﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الفاء هنا فاء العطف، وأفادت التعقيب والسرعة، فقد كنتم أمواتًا في بطون أمهاتكم فأحياكم سريعًا؛ فالجنين في بطن أمه ميت حتى يرسل الله إليه المَلَك ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يومًا فيصبح حيًّا كما في حديثِ ابنِ مَسعودٍ: «**إنَّ أَحَدَكُمْ**

يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِك، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ»[١].

{ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} حرف العطف (ثم) يفيد التعقيب مع التراخي، أي هناك مدة زمنية؛ لأنه لما أحيانا الله تعالى في بطون أمهاتنا نزلنا على الأرض وعشنا فترة طويلة في الغالب، لذلك ذكر الله تعالى «ثُمَّ» يميتكم.

{ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي سيُحيينا ولكن بعد مدة طويلة في القبور؛ لأنه مهما مكثنا في البرزخ سنُبعَث.

{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي سنرجع مرة أخرى بعد هذا النشور وبعد الحساب... وهكذا.

والآية فيها دلالة وبرهان واضح وقاطع على وحدانية الواحد الأحد، وأي إنسان يكفر بعد هذه الآيات لا يكون ضالًّا فحسب، بل كلمة (ضال) قليلة لأنه مستقر في العقول وفي الفطرة أن الله خالق كل شيء.

والعجيب أن الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى يُقرُّون الأطوار الثلاثة للإنسان، فالكافر مُقرٌّ أن (الله) هو الذي خلقه في بطن أمه، وأعطاه الحياة على الأرض، وهو مَن سيميته وهو الذي سيُحييه!!

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٤٣).

فكيف تكفر بعد ذلك بأن الله خلقك؟! فهذا كفران مبين، ولا يُعذَر صاحبه أمام الله إذا مات عليه؛ ولذلك مَن مات على الكفر بغير توبة يُخلَّد في النار.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

إذا تدبرنا وتأملنا سنجد في الآية أن خَلْق الأرض سبَق خَلْق السموات، وأيضًا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]، فجميع هذه الآيات السابقة في (البقرة، وفصلت) تبيّن أن خَلْق الأرض سبَق خلْق السموات، أي أن الله عز وجل خلق الأرض ثم خلق السماء، ولكن هناك آية في سورة (السجدة) وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴿٤﴾﴾ هنا قدَّم خلْق السموات على خلْق الأرض، فأصبح هنا إشكال لا بد له من حل؛ لأن القرآن ليس به تعارض أبدًا، لكن هي قلة بصيرة وقلة علم، وعدم النظر الجيد، وإذا تدبرنا وتأملنا كما كان يفعل السلف سنجد أنه لا وجود لأي تعارض ولا أي تضاد!! وكيف الجمع بين ذلك؟ للعلماء في ذلك أقوال:

منها: أن الله تعالى خلق الأرض قبل السماء؛ ولكن عندما خلقها لم تكن مَدْحوَّة (بدون دَحّ) والدَّحو معناه: إخراج الماء والمرعى وظهور الخيرات على ظهر الأرض { وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾} [النازعات] فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا؛ فقيل: إنه تعالى خلق الأرض أولًا بدون دَحْو، وبعد ذلك خلق السماء، ثم دحا الأرض، فهكذا يكون الجمع بين الآيات، فبداية الخلق كانت الأرض، ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن سبع سموات، ثم دحا الأرض وأخرج منها الماء والمرعى وأسباب الحياة.

ولكن سيكون هناك إشكالٌ آخر:

لأننا بذلك الجمع بين الآيات نكون قد قسَّمنا خلْق الأرض على مرحلتين، وهذا لا يستقيم مع لفظ (جميعًا) الذي ورد في الآية في قوله تعالى: { هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ} فكلمة (جميعًا) من ألفاظ العموم، والتي لا يستقيم معها قول أن الله خلق الأرض أولًا ثم بعدها السماء ثم دحا الأرض بعد ذلك.

وحل هذا الإشكال كالآتي:

أن الخلق لغة تطلق على التقدير؛ خلق أي: قدَّر؛ لقوله تعالى { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾} [فصلت] فالخلق في سورتي (البقرة وفصلت) معناه التقدير.

فماذا نفعل؟ عندنا معنى شرعي ومعنى لغوي

قاعدة هامة: إذا تعارض المعنى الشرعي مع المعنى اللغوي ماذا نقدِّم؟ نقدم المعنى الشرعي. وهنا نلاحظ:

أولًا: المعنى يستقيم لغةً وشرعًا؛ لقوله تعالى { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا }وقدَّر معناها: خلق.

ثانيًا: إن الأصل يمكن إطلاقه على الفرع بمعنى أنه أصل خلق الأرض، فتقدمت الأرض على السماء بمعنى الأصل؛ وذلك مثل قوله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾}[الأعراف] فالملائكة سجدوا لآدم وليس لنا، ومع ذلك قال الله تعالى {خلقناكم ثم صورناكم} لأن الأصل يجوز إطلاقه على الفرع.

فأصل الخلق هو (آدم) يُطلق على الفرع (كل بني آدم)، إذًا نرد من وجهين:

إما بالمعنى اللغوي (التقدير) ويوافقه المعنى الشرعي. وإما بمعنى أنه أصل خلق الأرض، فتقدمت الأرض على السماء بمعنى الأصل؛ أي خلق أصل الأرض أولًا ثم السماء، ثم قدَّر الأقوات، وقدَّر الأرزاق، وقدَّر ما على الأرض بعد خلق السماء.

{ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ} ما معنى استوى إلى السماء؟

قال فريق من أهل السنة: استوى بمعنى: أقبل وقصد إلى

السماء (وهو قول مرجوح).

وقيل: معنى استوى في الآية: علا وارتفع (وهو الراجح).

ورد ابن جرير الطبري على المؤولة فقال: (والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ} الذي هو بمعنى العلو والارتفاع هربًا عند نفسه من أن يلزمها بزعمه - إذا تأوَّلَهُ بمعناه الْمُفْهِمِ كذلك - أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها!!).

إلى أن قال: (ثم لم يَنْجُ مما هرب منه، فيقال له: زعمت تأويل قوله {استوى} أقبل؟! أفكان مدبرًا عن السماء فأقبل إليها؟! فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها عُلُوَّ مُلك وسلطان، لا عُلُوَّ انتقال وزوال).

وأصحاب قول: (علا واستوى): ابن عباس، ابن أبي حاتم، الحسن البصري، الربيع بن أنس، أبو العالية، البخاري، ابن عبد البر المالكي نقله في (شرح الموطأ)، الذهبي في كتابه (العلو)، الطبري.

أما ابن القيم بعد أن ذكر معنى الاستواء وأنواعه ساق آية البقرة والدخان ثم قال: (وهذا معنى العلو والارتفاع بإجماع السلف)[١].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، المجلد الثاني، (ص٣٤٩).

{فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} التسوية معناها: التوطئة، والإصلاح، والتقويم، فسوّى الأرض لتصلح وتستقيم معها الحياة، وهذا من نعم الله على العباد، فالأرض والسماء كانتا رتقًا ملتصقتين ملتئمتين ببعضهما بلا فاصل، والله فتقهما وفصلهما عن بعضهما بكيفية يعلمها الله سبحانه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي
جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ
ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا
عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم
بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ
غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ (٣٣)
وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا
مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ
لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن
رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) ﴾

{إِذْ} ظرفية، موضع نصب بتقدير: اذكر.

{ٱلْأَرْضِ} الغبراء التي نعيش عليها.

{خَلِيفَةً} له معانٍ في الآية: إما الخالف: أي يخلُف من كان قبله من الملائكة، على اعتبار مَن يقول أن الأرض كان يسكنها الملائكة أو الشياطين أو ما شابه (وهذا ليس عليه دليل). وإما المخلوف: أي يخلفه غيره، الذرية يخلف بعضها بعض (الأرجح).

{قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ} كيف علمت الملائكة أن بني آدم سيسفكون الدماء ويفسدون في الأرض؟! للعلماء في هذا قولان:

القول الأول: هناك محذوف في الآية تقديره (أتجعل فيها مَن يفسد فيها بكذا وكذا..) فالله أعلمهم بما سيكون ولكن حُذفت في الآية.

القول الثاني: أن الله أعلمهم بالفعل بما سيكون وأن بني آدم سيسفكون الدماء وسيفسدون في الأرض (وهذا من ضمن خصائصهم) والآية ليس بها محذوف.

وفي الحالتين علمت الملائكة من الله؛ فيكون إخبارهم إما صراحةً بالقول والآية فيها محذوف، وإما أنه أخبرهم بما سيكون من علم الغيب.

فسؤال الملائكة إما اعتراض تعجبي، وإما لعلمهم أن الله لا يفعل الشيء إلا لحكمة، فسؤالهم: ما الحكمة يا رب العالمين؟

{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} التسبيح: التنزيه والبعد عن كل عيب ونقص، وإثبات الكمال لله.

{وَنُقَدِّسُ} التقديس على معنيين:

الأول: نطهرك عن كل نقص (معنى التسبيح والتنزيه). **الثاني:** نتطهر لك بالأفعال الحميدة ونجمّل أنفسنا بما يرضيك عنا ونترك الأخلاق الذميمة والأفعال الخبيثة.

{لَكَ} اللام هنا تفيد التخصيص والإخلاص.

{قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أجاب الله على الملائكة إجابة مجملة بلا تفصيل، ونفى عنهم العلم نفيًا مجملًا، وبيَّن لنفسه العلم بصورة مطلقة، وذلك لبيان عِظَم علم الله سبحانه وتعالى وعجز مَن سواه.

وقفة: يطمئن القلب ويرضى عندما يعلم أن كل شيء بقدر؛ لأنه تقدير العليم الحكيم، فالله يعلم وأنتم لاتعلمون.

وقد ذكر اللهُ الحِكَم العظيمة في خلْق آدم في مواضع مختلفة من القرآن؛ فمن هذه الحِكَم البالغة التي يعلمها الله من خلق آدم؟

١- { ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ} أول رد على الملائكة «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» وهذا قول أهل الأرض ويُرد به على الملائكة، فقول الملائكة كقول الذين قالوا {وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ

رِسَالَتَهُۥ ۞} [الأنعام] فأجاب الله عز وجل أن حكمته تأبى أن تكون الرسالة في غير محلها ولا لغير أهلها.

٢- التخصيص والتفضيل والتفصيل إذا جاء في آية سنجدها تُعقَّبُ بالعلم.

تأمل قوله تعالى في شأن سليمان: { وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ۞} [الأنبياء] أعطى له الريح، والريح تجري كما يشاء، فتسخير الريح لسليمان كان لحكمة بالغة وعلم كامل من الله سبحانه وتعالى، لذلك ختمت الآية بـ {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}.

ولما اعترض الكفار على المسلمين الذين أسلموا خاصة الفقراء منهم فقالوا:

{ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ} ردّ عليهم سبحانه { أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۞} [الأنعام] التعقيب (بالعلم) هذا من ود الودود اللطيف لعباده أنه يبيّن لهم علمه وحكمته من هذا التفضيل والتخصيص رغم أنه ليس في حاجة لذلك سبحانه.

وفي قوله تعالى: { جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۞}[المائدة] خصص الأزمنة والأمكنة ثم قال: (بكل شيء عليم) حتى لا يعترض

أحد ولو بقلبه.

وقال تعالى: { فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾} [الفتح] وكلمة التقوى: كلمة لا إله إلا الله . أحق بها وأهلها: يستحقون التوحيد دون كفار مكة الذين أبوا إلا الشرك، وذيَّل الآية بعلمه؛ فهو يعلم مَن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وكل شيء عنده بسابق علمه؛ فهو يضع الأشياء في موضعها.

٣- الله أعلم أنه كما سيكون من نسل خليفة آدم على الأرض الذين يسفكون الدماء، سيكون أيضًا أولياء وأَحِبَّاء ورسل وأنبياء ومَن يتقرب إليه سبحانه بأنواع القربات مِن ذُل وخشوع وحب ورضا وخضوع لله، رغم وجود الشهوة به إلا أنه يتركها لله، فيعبد الله عبودية الاختيار التي يحبها الله سبحانه وتعالى.

٤-إن من حكمة الله تبارك وتعالى أنه جعل خلقه أطوارًا وأصنافًا، ومن حكمته أيضًا تفضيله سبحانه لآدم وبنيه على سائر المخلوقات، وهذا التفضيل بين المخلوقات العاقلة لا يكون إلا بتمام العبودية؛ فقد خُلقت الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام، وكانت عبادتهم للخالق سبحانه على أكمل وجه، قال ربنا: {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾} [النحل]، وقال: {فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾} [فصلت] فسنوات وسنوات من العبادة لا يعلمها إلا الخالق سبحانه.

والسؤال: كيف يمكن تفضيل آدم (صالحي بني آدم) على هذه المخلوقات التي لا يسبقها أحد في قوة العبادة، والعليم الحكيم يعلم هذا؟

العليم الحكيم سبحانه جعل عبودية بني آدم عبودية اختيار، وهذا على خلاف عبودية الملائكة فهي عبودية اضطرار، ومن هنا كان السَّبْق والتفضيل للصالحين من بني آدم، خُلِقَتْ الملائكة وليست لديهم شهوة تمنعهم أو تحول بينهم وبين العبادة (مخلوقات كاملة ليس فيها الشهوة التي قد تمنع من الطاعة)، أما بنو آدم فإن الشهوة هي جزء من تكوينهم ولذلك كانت عبوديتهم عبودية اختيار، فلما كانت عبوديتهم على هذا الأساس حقق بعضهم أعلى مقامات العبودية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «**بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**»[(١)].

الشاهد: آثر النبي ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا، ولكن لماذا؟ لأن في عبوديته لله تحقيق لأعلى مقامات العبودية، ولذلك كان النداء في

---

(١) مسند أحمد (٧١٦٠)، صحيح ابن حبان (٦٣٦٥).

أشرف المقامات وأفضل الأحوال بكلمة (عبد)؛ قال سبحانه:{ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩} [الجن]، وقال عز وجل:{ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣} [البقرة].

إذًا المخلوق لا يُفضل على غيره من سائر المخلوقات إلا بتمام العبودية للخالق سبحانه (الاختيار لا الاضطرار): { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣} [الحجرات].

سؤال: كيف يمكن لآدم (وبنيه من بعده) أن يحققوا مقام العبودية على أكمل وجه؟

هناك لوازم وأسباب للعبودية ولكن أولًا: لا بُد من النزول إلى الدار التي تسري على ابن آدم فيها أشياء تُمكنه من تحقيق هذا المقام، وهذه الدار هي دار (الابتلاء، المحن، الاختبار، العوائق، الهوى) ولكن العبد الصادق يُجاهد ويُقاوم حتى يصل إلى الكمال؛ فَلقد أُخْرج آدم من الجنة تنكيلًا (لأنه عصى ربه) ولكنه أُنْزِلَ إلى الأرض إكرامًا (حتى يصل إلى درجة الكرامة).

وهناك نزاع بين العلماء: هل العبد الذي لم يعصِ الله قط أفضل أم مَن كان متلبسًا بالذنوب والمعاصي ثم أقلع عنها فتاب وحقق

درجة عالية من العبودية؟ من العلماء مَن قال بالأول، ومنهم مَن قال بالثاني، ومنهم مَن رجح أن الأفضل هو النوع الثاني أي التائب؛ لأن الأمر بالنسبة له أشد وأعظم، فهو يعبد ربه من جهة ويُجاهد نفسه من جهة أخرى!

وعلينا أن ننتبه: (اختلاع الطبع وانتزاع الدنيا من القلوب ليس بالأمر السهل على النفس)، ومن هنا ارتفعت منزلة آدم فهو في جهاد ومقاومة وترك هوى وشقاء، كل هذا يُواجهه من أجل الوصول إلى مرضات الله سبحانه؛ لأن صفات الله عز وجل لها آثار، وما كانت هذه الصفات وتلك الآثار لتظهر إلا مع مجيء آدم للدنيا، ففي الدنيا يوجد العاصي الذي يندم ويتوب فيتوب الرب عليه (تلك عبودية يحبها الله)؛ كما أن ارتقاء العبد المجتهد في درجات الجنة ووصوله للمقامات العالية لن يكون بدوام الطاعة كالملائكة ولكن يصل بالتضحية والعطاء وجهاد النفس من أجل رضا الله.

٥- ومن حكمة الله عندما أراد خلق آدم وأخبر الملائكة بذلك وأنهم لم يروا في هذا المخلوق إلا الشر، أراد الملك سبحانه أن يُبين لهم أن الشرع لا يأتي إلا بمصلحة كاملة أو راجحة كما أنه لا ينهى إلا عن مفسدة كاملة أو راجحة، فكل خير راجح مغمورٌ فيه شيء من الشر والعكس صحيح فإن كل شر راجح مغمور فيه شيء من الخير.

مثال: نزول المطر فيه من الخير الكثير (إحياء لكل المخلوقات)

ولكن قد يكون فيه بعض الشر المغمور (فقد تحبس الناس عن قضاء حوائجهم، وقد يكون هناك سيول وأعاصير)؛ فلقد أراد الرب سبحانه أن يُبين للملائكة أنهم إذا كانوا قد رأوا أن هذا المخلوق سيُفسد في الأرض ويسفك الدماء (وهذا هو الشر) فإنهم ليسوا على علم بالخير الكثير والمصالح العظيمة التي ستأتي من وراء خلق هذا المخلوق وذريته.

٦- وقد كان من حكمة الخالق سبحانه أن يُسكن آدم وذريته دارًا يأتون فيها بأعمال فيتصفون على إثرها بصفات يُحبها هذا الخالق العظيم.

مثال: الله سبحانه وتعالى يُحب الصابرين (فماذا يحدث؟): يُرزَق العبد بالابتلاء والطاعة والقدر الذي لا يلائمه فيصبر على الابتلاء إيمانًا منه بالقدر ويأتي بالطاعة ويترك المعصية، كل هذه الأمور وُجِدَتْ حتى تُستخرج عبودية الصبر من القلوب (وكذا هو الحال مع التوابين والمحسنين والمتطهرين).

وقفات:

-على الإنسان أن يُدرك أن أي معاناة يتعرض لها يكون المقصود من ورائها إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير، وبالتالي عليه أن يستسلم تمامًا ويرضى عن ربه.

-وعليه أيضًا أن يعلم أنه من المستحيل أن يصل إلى أمر من أمور الدنيا أو الدين إلا بعد أن يتذوق المشقة والتعب (سنة كونية اختص بها آدم وذريته).

يقول الشاعر:

لوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ   الجُودُ يُفْقِرُ وَالإقدامُ قِتَالُ

إذًا الآلام والأحزان والتعب هم السبب الذي يُوصل إلى أعظم اللذات، إن الله سبحانه وتعالى قد حجب أعظم اللذات بأنواع المكاره وجعلها جسرًا موصلًا إليها، كما حجب أعظم الآلام بالشهوات واللذات وجعلها جسرًا موصلًا إليها، ولذلك: أيقن العقلاء قاطبة في كل زمان ومكان أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن الراحة لا تنال بالراحة، وأن مَن آثر اللذات فاتته اللذات وورث أنواع الآلام؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ**

وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»[(١)].

الشاهد: أن كل مشقة تنال العبد فيصبر عليها ما هي في حقيقتها إلا خطوة يخطوها على الجسر الموصل للجنة، وكل لذة مُحرَّمة ينالها ما هي إلا خطوة يخطوها على الجسر الموصل إلى النار.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ هل (ال) في الأسماء للعموم، أم لعموم الأسماء؟

لعموم الأسماء؛ لأنه أتبع كلمة (أسماء) بكلمة (هؤلاء) وهي اسم إشارة للجمع القريب.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ما الذي عُرِضَ على الملائكة: هل هي الأسماء أم المُسميات؟ المسميات لا الأسماء وهذا استنادًا إلى كلمة هؤلاء أيضًا؛ لأن هؤلاء تعني استحضار المُسمى بذاته فأشار إليه وسألهم عليه، إذًا المسميات كانت موجودة ولكن لم يكن لدى الملائكة علم بأسمائها.

﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ هل هذا الأمر يُقصد به القيام بالمأمور أم أنه أمر

(١) سنن أبي داود (٤٧٤٤)، وقال الألباني: حسن صحيح.

للتحدي؟ إنه أمر للتحدي، فقد أنهى الآية بـ {إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ} أي إن كنتم صادقين فيما كنتم تقولونه على آدم، ولقد سأل الله عز وجل الملائكة هذا السؤال حتى يُبين لهم قدرهم وأن علمهم محدود بما أراده هو سبحانه لهم، ولهذا قالوا {سُبۡحَٰنَكَ} تنزيه وتعظيم لله جلَّ جلاله، فلم تكتفِ الملائكة بنسبة العلم لله سبحانه فقط (وكان من الجائز فعل ذلك) بل قالوا (سبحانك) التي تدل على شدة التعظيم للرب عز وجل، فهي لفظة مُجملة تحمل معاني مُفصلة كثيرة.

وقفة: في قوله {قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ} يعني أن الملائكة تتكلم، والمعروف عندالعرب أن الكلام هو عبارة عن صوت وحروف.

{لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ} وفي هذا اعتراف من الملائكة بعلمهم القاصر المحدود بالعلم الذي علمهم الله إياه.

وهذه الجزئية التي توضح أن الملائكة وهم الخلق المقربون تحدد علمهم بتعليم الله لهم فكيف بمن دونهم من الخلائق؟! خاصة مَن يدَّعون علمهم بالغيب (السحرة والكهان).

{إِنَّكَ أَنتَ} جملة تأكدت بـ (إنَّ - أنت).

{ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ} فما من أحدٍ يعلم كعلم الله ولا يُضاهيه في هذا العلم، والحكيم الذي له الحكمة البالغة الكاملة، فما من خير ولا شر ولا مخلوق في هذا الكون إلا وهو موجود لحكمة.

وأسماء الله سبحانه منها اللازمة ومنها المتعدية، فكيف يمكن

لنا أن نُفرق بينهما؟

الاسم المتعدي:

١- اسم أثبتناه لله تبارك وتعالى بالكتاب والسنة (الأسماء توقيفية).

٢- يدل على صفة لله جلَّ جلاله.

٣- أن هذا الاسم له أثر؛ مثل: (العليم / الحكيم).

والاسم اللازم:

١- اسم أثبتناه لله تعالى بالكتاب والسنة.

٢- اسم يدل على صفة لله عز وجل.

٣- ليس له أثر؛ مثل: (الجميل / الواحد).

سؤال: هل اللغات التي يتحدث بها البشر على اختلاف ألسنتهم توقيفية أم أنها تجريبية؟ بمعنًى آخر: هل كان آدم عند نزوله إلى الأرض أبكم ومع مرور الوقت تكلم أم أنه كان يتحدث بأسماء الأشياء؟ وهل تعلم كل الأسماء أم بعضها؟

قال البعض: إن تعليم الأسماء كان تجريبيًّا؛ أي أنه تعلم مع مرور الوقت، وهذا غير صحيح؛ لأن تعليم الأسماء توقيفي إلى جانب أنه اكتسب بعض الأشياء بالتجربة وهذا استنادًا إلى قوله سبحانه {وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا} أي عموم الأشياء ثم تعلم أشياء

أخرى مع مرور الوقت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾.

دلت الآية على أن الملائكة كانوا من الجهل بمواقع تدبيره سبحانه ومحل قضائه قبل إطلاعه إياهم على العلم.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ أي أخبرهم بأسمائهم (الأشياء التي عرضت على الملائكة).

﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ أي فيما أبدوه من اعتراض.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ **هل المقصود بالكتمان الملائكة أم إبليس؟** أقوال للعلماء:

١- البعض ذهب إلى أن المقصود هم الملائكة؛ لأنهم في بداية الأمر اعترضوا ظنًّا منهم أنهم أولى وأحق بالخلافة من آدم. (قول قتادة والحسن: المقصود هم الملائكة).

٢- البعض الآخر قال: إن المقصود هو إبليس نظرًا لما كان يُضمره من كفر وحقد وشر وحسد وكبر فقد كان يكره آدم. (أثر لابن عباس: المقصود هو إبليس).

(تعقيب على أثر ابن عباس): إذا كان المقصود هو إبليس

فلماذا ذكرت الكلمة بصيغة الجمع؟

- قيل: في لغة العرب يمكن أن يتكلم الشخص بصيغة الجمع وهو يقصد المفرد، قال سبحانه:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤} [الحجرات] تحدثت الآيات بصيغة الجمع مع أن المنادي كان واحدًا.

وقفة:

عندما خاطب الرب سبحانه وتعالى الملائكة قال لهم {أَنۢبِـُٔونِى} في حين أنه عندما خاطب آدم عليه السلام قال له {أَنۢبِئْهُم} فلماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى لآدم (أَنْبِئْنِي) كما قال للملائكة (أنبئوني) - وكان السياق يحتمل هذا أن يقول لآدم (أَنْبِئْنِي)- فلماذا جعل الله الخطاب من آدم إلى الملائكة مباشرة ولم يجعله سبحانه لنفسه بأن يقل (أَنْبِئْنِي)؟ لقد جاء الخطاب بهذه الطريقة لبيان مدى علو منزلة آدم وما عنده من علم صحيح، فكان المقام الأول في خطابه للملائكة {أَنۢبِـُٔونِى} لأنه مقام تحدٍّ وإظهار لعدم علمهم، أما المقام الثاني في خطابه لآدم {أَنۢبِئْهُم} فهو لبيان ما لدى آدم من علم صحيح ولذلك فإنه لا يحتاج إلى اختبار أو امتحان؛ لأن الذي منحه هذا العلم هو الله.

- وفي قوله {أَنۢبِئْهُم} دلالة واضحة على أن علم آدم علمًا صحيحًا يقينيًّا كما علَّمه الله، لا يحتاج إلى تعقيب ولا تعليق ولا

اختبار بخلاف الملائكة.

-التفاوت بين بني آدم: خلق الله الإنسان بتركيبة خاصة فجمع فيه بين العقل والشهوة، فكلما ارتقى في الدرجات العُلا (حسن الخلق – تصرفات - عبادات) كلما اقترب من عالم الملائكة، وكلما ازدادت العبادة كلما ازداد القرب، والعكس صحيح فكلما ابتعد العبد عن الطاعة كلما اقترب من منزلة الحيوانات لا الشياطين؛ لأن هذه المنزلة يأنف منها حتى الشيطان؛ قال تعالى: {كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦} [الحشر]؛ فالإنسان المتدني في خلقه وفعله المبتعد عن طاعة ربه يصل إلى درجة من الانحطاط الخُلقي تجعل حتى الشيطان يتبرأ منه.

قوله تعالى: {وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤}.

فبعد التشريف والتعظيم والتمكين وإظهار منزلة آدم وبيان ما اختُصَّ به من علم لم يكن لدى الملائكة، أُمِرَتْ الملائكة (وهم في قمة العبادة) أن يسجدوا لمخلوق لم يسبق له أن عَبَدَ اللهَ قط، فقد كان في بداية أمره.

ملحوظة: عندما يكون الإنسان على يقين من تمام حكمة الله سبحانه فإنه لا يعترض على أوامره.

{فَسَجَدُوٓاْ} الفاء للتعقيب والسرعة، جاءهم الأمر فأسرعوا بالإستجابة، وفي هذا دليل على الإذعان والتجرد واليقين في حكمة الله فلا اعتراض ولا تباطؤ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ المَلاَئِكَةَ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ**»[(١)].

لقد ذكَّرَ بنو آدم عليه السلام أباهم بمزية سجود الملائكة له، وفي هذا بيان لقدره وعلو شأنه حتى ينالوا شفاعته.

الشاهد: إنها لمنزلة عظيمة جدًّا وضِعَ فيها آدم حين سجدت الملائكة له.

{وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ} هنا بدأ بواو العطف مباشرةً ولم يذكر العامل (وهذا تكرر في القرآن {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ}، {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ} لأن هذا المقام فيه تكرار وتعداد للنعم على آدم (خلقه ثم علمه ثم أسجد له الملائكة).

{ٱسۡجُدُواْ} كما قال ابن فارس: السُّجود لغةً:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٦).

يُقَالُ: سَجَد، إذا تَطَامَنَ. وكلُّ مَا ذَلَّ فقد سجد، والإسجاد: إدمان النظر، وأصل السجود: وضع الوجه على الأرض.

{ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ} السجود كان كرامة لآدم من الله، والسجود لآدم كان كالسجود للكعبة- كما قال المزني- فقد كانت الكعبة قِبْلَة، لكن السجود نفسه لله عز وجل، فالسجود من الملائكة كان طاعة؛ لأن الذي أمرهم بالسجود هو الله، ولكن ما فهم الشيطان هذا فاستكبر واستعظم.

سؤال: هل قال الله للملائكة اسجدوا لآدم قبل خلق آدم؟ أم بعد خلق آدم؟

الله سبحانه وتعالى قال للملائكة اسجدوا لآدم قبل خلق آدم، ولكنهم سجدوا بعد خلق آدم وتعليمه الأسماء، والدليل على ذلك:

١- قال الله تعالى في سورة (الحجر) { وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩}.

٢- قال تعالى في سورة (ص): {إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢}.

إذًا أخبرهم الله عز وجلّ أن يسجدوا لآدم قبل خلق آدم، وإنما سجدوا بالفعل بعدما خلقه الله وسوَّاه ونفخ فيه الروح وعلَّمه

الأسماء، وهذا من عظيم علم الله، فالأمور تحدث كما يريدها ويقدِّرها تمامًا، فلا تزيد ولا تنقص، فالله يعلم ما كان، وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، (وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة)على خلاف عقيدة الفِرَق الضالة.

{فَسَجَدُوٓاْ} سجود على الحقيقة ولكن كيف كان؟ لا نعلم. وكان السجود بعد تعليم آدم الأسماء وإخباره للملائكة بها (استنادًا إلى ما جاء في السياق) أي بعد خلقه ونفخ الروح فيه، ونفخ الروح لم يرد في هذه الآية، ولكنه جاء في قوله تعالى:{ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾} [الحجر].

ملحوظة: لا يستلزم تحريم السجود لغير الله في شريعتنا تحريمه في الشرائع الأخرى، لا بُد من ذكر ذلك لماذا؟ لأنه في بعض الكتب يوجد اعتراض على هذا السجود يقول مَن أورده: أن الملائكة لم تسجد لآدم ولكنهم سجدوا لله عز وجل، أما آدم فقد كان في اتجاههم.

والرد على ذلك: أنه تأويل على غير الحقيقة، فالظاهر مقدم على المؤول؛ قال تعالى {وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ}، وفي الشرائع الأخرى كشريعة يوسف عليه السلام قيل:{ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴿١٠٠﴾} [يوسف].

فعلينا أن ننتبه: فالسجود ليس عبادة في كل الأحوال؛ لأن

العبادة لا تكون إلا لله ولكن السجود هنا جاء تكريمًا لآدم لا عبادةً له.

{إِلَّآ إِبۡلِيسَ} **هل إبليس من الجن أم من الملائكة؟**

هناك نزاع بين أهل العلم في هذه المسألة: هل إبليس من الملائكة، أم أنه ليس من الملائكة:

- قال كثير من أهل العلم: إنه من الملائكة، ولهم حجتهم، وفريق آخر قالوا: إنه من الجن، ولهم حجتهم أيضًا.

ابتداءً: المسألة موقوفة على تحديد نوع الاستثناء في قوله {إلا إبليس} هل هو:

أ- استثناء منفصل. ب- أم استثناء متصل.

فالاستثناء المتصل يترتب عليه قول، والاستثناء المنفصل يترتب عليه قول آخر.

إذًا لا بُد من الترجيح بينهما:

الاستثناء المتصل (المستثنى من جنس المستثنى منه)، وبناء على هذا يكون إبليس من الملائكة.

الاستثناء المنفصل (المستثنى ليس من جنس المستثنى منه)، وبناء على هذا لا يكون إبليس من الملائكة.

وإذا كانت الآية تحمل احتمالين فلا بُد أن يكون الترجيح من خارج الآية:

١- في سورة (الكهف) يقول الله سبحانه وتعالى: { وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴿٥٠﴾}.

٢- في سورة (التحريم) قال الله تعالى في شأن الملائكة: { لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾} فليس عندهم شهوة العصيان.

٣- في سورة (الكهف) أيضًا: {أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾} إذًا الشيطان له ذرية، أما الملائكة فليس لهم ذرية لأنهم لا يتزوجون.

٤- في سورة (الرحمن) {وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾}؛ إذًا خُلقت الجن من نار، أما الملائكة خلقت من نور؛ كما جاء في الحديث: «**خُلِقَتِ الملائكةُ من نُّورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارِجٍ من نارٍ، وخُلق آدمُ مِما وُصِفَ لكم**»[(١)].

فكل هذه الأدلة على أن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن ونستطيع أن نرد بها على القول الأول الذي يقول بأن الاستثناء متصل وأن إبليس من الملائكة.

{أَبَىٰ} لماذا أبى إبليس واستكبر؟

(١) صحيح مسلم (٢٩٩٦).

لم يبيّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية -آية البقرة- مُوجِب (سبب) الاستكبار، ولكنه ظهر في آيات أخرى:

١- في سورة (الحجر) { قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾} فكان اعتراضًا من إبليس لأن آدم بشر مخلوق من صلصال (الطِّينُ الْيَابِسُ الذي إذا جفّ أحدث صوتًا) وحمأ مسنون (الطين عندما يصب عليه الماء فيعطي رائحة).

٢- قال أيضًا في سورة (الأعراف) { قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾}.

لنا هنا وقفة وهي قاعدة أصولية هامة:

هذا الذي احتج به إبليس يسميه علماء الأصول - أصول الفقه - يسمى بـ (فساد الاعتبار) أي أن الحجة الذي احتج بها سببها الاستنتاج والاستحسان؛ ما الدليل على أن هذا الذي استنتجه إبليس هو الصواب؟!! ما الدليل على أن النار أفضل من الطين؟! ما الدليل على أن النار أفضل من الحمأ المسنون؟!

هذا ما يسمى بفساد الاعتبار؛ اعتبر أن النار أفضل من الطين.

فائدة هامة:

عند المناقشة أو المحاجاة يجب أن يملك الشخص الأدلة العلمية على قوله وإلا لو لم يفعل سيصبح فاسد الاعتبار؛ أي استنتج واستحسن ولم يأتِ بالدليل من القرآن أو السنة، وقد يأتي بالدليل

ولكن هذا الدليل ليس محل الشاهد الذي نتكلم فيه وهذا ما يسمى (مناط الدليل).

لذلك كل عقائد الفرق الضالة مبنية على فساد الاعتبار، وسلفهم في ذلك الشيطان؛ لأن الشيطان هو أول من استكبر واستعظم وردّ الحق لاتباع الهوى.

وكل مخالف للنص أو الإجماع يعتبر فاسد الاعتبار.

مثال: آية الحجاب آية واضحة وصريحة { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾} [الأحزاب].

فيأتي قائل يقول: هذا الكلام لنساء النبي وبناته فقط!! فهذا مخالف للنص الصريح في الآية! فلماذا أخرج نساء المؤمنين من الآية؟! هذا فساد اعتبار؛ لأنه استنتج واستحسن إخراج نساء المؤمنين من الآية. فمن الاستحسان أن الشخص إذا رأى أمرًا من أوامر الله حسنًا يفعله وإن لم يره حسنًا لا يفعله.

لماذا كان الشيطان فاسد الاعتبار؟

١- خالف النص؛ لأن الله أمره أن يسجد فلم يطع، وهذا من فساد الاعتبار بعكس الملائكة الذين أطاعوا الله عندما أمرهم فعلوا مباشرة (فسجدوا) الفاء تفيد التعقيب والسرعة، وهذا هو حال الطائع لله المحب لربه (سمعنا وأطعنا).

مثال: الحجاب الشرعي إذا أُخبرتْ امرأة بمواصفات الحجاب الشرعي الساتر الذي جاء في سورتي الأحزاب والنور قد تجد الرد بالاستحسان؛ أي استحسان اللباس الغير شرعي وتقول: هذا يسد مسد اللباس الشرعي، واستنتاج أنه جائز، فكل هذا فساد اعتبار ومخالفة النص الذي ورد بالآيات.

٢- في سورتي (الأعراف) و(ص): { قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ} فاستنتج أن النار أفضل من الطين، وهو استنتاج باطل، لهذا يعد من فساد الاعتبار؛ لأن الطين سبب الحياة كلها من مأكل ومشرب وملبس، فلو لم يكن الطين ما وُجدت الحياة؛ تضع الحبة فتخرج السنابل والقمح، تضع النواة فيخرج النخل، تنبت الحدائق ذات البهجة التي تدخل السرور على القلب، لكن النار مادة إحراق وخوف وفزع فهي شر من أكثر الوجوه، لكن الطين مادة حياة وبقاء.

- وأيضًا إذا سلّمنا أن النار خير من الطين، فإن الأصل قد لا يتبعه الفرع؛ أحيانًا الأصل يكون شريفًا والفرع وضيعًا، مثل نوح الذي هو مِن أولي العزم من الرسل كان ابنه كافرًا. فهَبْ أن النار أشرف من الطين فهل من الضرورة أن إبليس أشرف من آدم؟!

{وَٱسۡتَكۡبَرَ} الاستكبار هو الاستعظام، وثبت في «صحيح

مسلم»[١] أن النبي ﷺ قال: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ.. الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»؛ فعلامة الكِبر (بَطَرُ الحَقِّ) أي رَدُّ الحق؛ فلا يعترف الإنسان بالخطأ أبدًا مهما أخطأ رغم أنه عَلِم أنه أخطأ، والكبر له درجات حتى إنه قد يصل بالإنسان إلى الكفر وذلك عندما يتكبر على أوامر الله كما فعل إبليس.

{وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ} الإنسان قد يصل إلى الكفر بأربعة أركان لو وصل فيها إلى القمة: الكبر، الحسد، الغضب، الشهوة.

١- **الكبر**: يمنع الانقياد؛ لأنه استعظم واستكبر في نفسه.

٢- **الحسد**: يمنع قبول النصيحة وبذلها.

٣- **الغضب**: يمنع العدل.

٤- **الشهوة**: تمنع التفرغ للعبادة.

وتفصيل ذلك:

١- **(الكبر):** كم من إنسان مسلم يمتنع عن الانقياد لأوامر الله استكبارًا؛ لذلك حال ارتكاب المسلم لكبيرة من الكبائر (زنا/ قتل/....) إما أن يكون بضعف منه، وهو معترف أنه مذنب فإذا مات على التوحيد فهو في المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذَّبه، وفي النهاية يدخل الجنة؛ لأنه ليس بمستكبر، هو فقط ضعف أمام

---

(١) صحيح مسلم (٩١).

الشهوة، وقد يرتكب نفس الذنب ولكنه مستكبر يرفض أوامر الله، مستعظمٌ في نفسه أن يطيع الله عز وجل، هذا يخرج من الملة مباشرة.

٢- **(الحسد):** الحاسد شحيح لا يقبل النصيحة ولا يبذلها، فهناك من الناس من يبخل حتى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبخل في بذل النصيحة وفي فعل الخير للمسلمين، يبخل حتى بالمعلومة البسيطة كي لا يستفيد منها أحد.

٣- **(الغضب):** هدم الغضب يجعله يعدل؛ لأن الغضب -انتصار للنفس- لا يتحقق معه العدل.

٤- **(الشهوة):** لو هدمت الشهوة سيصبح الإنسان عفيفًا.

قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**»[(١)].

فالعفة عن المحرمات، والصبر على أداء الطاعات، والصبر عن المعاصي، كل ذلك يأتي بهدم ركن الشهوة.

ما الطريق للتخلص من أركان الكفر أو حتى التلبس ولو بشيء بسيط منها؟

(الكبر والحسد والغضب) يحتاج معرفة دراسة أسماء الله

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢١).

الحسنى وآثارها؛ فالذي يحمل المتكبر على (الكبر) هو جهله بأسماء الله وصفاته، فلو علم العبد أن الله كبير متعال عرف قدره.

أما (الحسد) فينهدم إذا عرفت قَدَر الله وآمنت بقضائه وقدره فهو تقدير العليم الحكيم؛ فالإنسان لا يحسد لأن كل شيء بقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ، ولن يزول بالحسد شيء إلا بقدر الله، فالحسد يتولد من أمرين: عدم الإيمان بالقدر، وعدم الرضا عن قضاء الله، فيجب اليقين بأن تقسيم الملك أحسن تقسيم وإن لم يحصل الإنسان على شيء في الدنيا أبدله الله أشياء أخرى قد تكون في الدنيا وقد يدخره الله له في الآخرة.

وأما (الغضب) فينهدم بمعرفة أحوال النفس وأنها حقيرة وأمارة بالسوء ومذنبة وأنها تورد الإنسان المهالك فلا يصح الانتصار لها؛ {إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ} فالانتصار للنفس معناه عدم الوصول للحق فيزداد الغضب الذي لا يتحقق معه العدل فيقع الإنسان في الظلم.

- وأما (الشهوة) فلو علم الإنسان أنه كلما أعطيت النفس ما تشتهي سيوجد الحرمان؛ فأعظم أسباب الحرمان (عطاء النفس ما تشتهيه)، فإذا أعطيتها الطعام وأسرفت فيه...ثقل البدن عن الطاعة، وإذا أعطيتها شهوة الانتصار... وقعت في الظلم، وإذا أعطيتها شهوة المال وأسرفت فيه...انفتحت عليه أبواب الدنيا.

فكلما أعطيتها شهوة حُرِمت، والشهوات درجات: منها الحرام، ومنها المباح (مثل: الإسراف في الطعام) فتمنعها الخير.

فجملة الكلام أن نحذر المعاصي؛ قال ابن القيم: تالله ما نفعَ آدم عند معصيته عِزُّ {اسجُدوا لِآدَمَ}، ولا شرفُ {وَعَلَّمَ آدَمَ}، ولا خصيصةُ {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىّ}، ولا فخرُ {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى}، وإنما انتفع بذُلِّ {رَبّنا ظَلَمنا أَنفُسَنا} لما لبس درع التَّوْحِيد على بدن الشُّكْر وَقع سهم الْعَدو مِنْهُ فِي غير مقتل فجرحه فَوُضع عَلَيْهِ جبَارُ الانكسار فَعَاد كَمَا كَانَ فَقَامَ الجريح كَأَن لم يكن بِهِ قَلْبَةٌ[(١)].

- أي ما نفع آدم عند المعصية سجود الملائكة، أو تعليمه الأسماء، ولكن نفعه ذلُّ العبودية لله والانكسار، فلم يصبه الشيطان بمقتل لأنه ندم وتاب وكان عابدًا موحدًا خالصًا لله.

قوله تعالى:{ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾}.

بعدما ذَكّر الله عز وجل آدم بالنِّعَم في الآيات السابقة ـ أنه خلقه بيده وعلّمه الأسماء وأسجد له الملائكة- ذكّره في هذه الآية بنِعَم أخرى:

{وَقُلْنَا} نا الفاعلين للعظمة.

---

(١) الفوائد لابن القيّم

{ٱسۡكُنۡ} السكن هو الهدوء على خلاف القلق؛ أي أنه سبحانه أسكنه الجنة وما فيها من الثمار والزروع والمناظر المبهجة وانشراح الصدر.

{ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ} الخطاب لآدم، وجعل له زوجة يسكن إليها، فخلق له زوجة من جنسه لكمال أُنسه ليستأنس بها، فلا يظل بمفرده حتى وإن كان في الجنة.

هل الجنة التي سكنها آدم وحواء هي جنة الخلد أم جنة على الأرض؟

بعض أهل العلم قالوا: (ليست جنة الخلد) واستدلوا على قولهم هذا بـ:

- أن هذه الجنة وجدت فيها معصية.. والجنة ليس فيها معصية.
- وهذه الجنة بها تكليف.. والجنة ليس فيها تكليف.
- وهذه الجنة طُردا منها... وجنة الخلد لا يُطرد منها.

وكل هذا الكلام فاسد اعتبارًا!! لماذا؟ لأن أحكام الجنة التي استدلوا بها بأنه ليس فيها معصية ولا تكليف... هذه أحكام جنة في الآخرة، وما قال الله عز وجل أن آدم سكن جنة تجري عليها نفس الأحكام التي سيدخلها أهل الجنة في الآخرة، وعقيدة أهل السنة والجماعة وإجماع السلف على أن الجنة التي خرج منها آدم هي جنة الخلد.

ومن ضمن الاستدلالات أيضًا قوله تعالى {ٱهْبِطُواْ} والهبوط من أعلى لأسفل، فلو كانت جنة على الأرض لقال (انتقلوا) فالانتقال من مكان لمكان آخر، إلى غير ذلك من الأدلة التي لا داعي لإطالة النفس فيها، لكن ينبغي الحذر؛ لأن من قال: إن الجنة ليست جنة الخلد؛ هم المعتزلة وهي فرقة ضالة.

{رَغَدًا} أي الشيء الطيب الهنيء المريء.

{حَيْثُ شِئْتُمَا} دلالة على سعة العطاء؛ أي امشِ واسكن فيها كما تحب، واستمتع بنعيم الجنة بغير تقييد.

{وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ} نهي ولا يوجد استثناء؛ فلم يقل سبحانه: كُل يا آدم من كل الأشجار إلا هذه الشجرة؛ لأن الاستثناء-كما قال أهل العلم- فيه تخصيص أكثر، والنهي مطلقًا بهذه الصورة دون استثناء أقرب للاعتذار عند النسيان.

والله سبحانه قال {وَلَا تَقْرَبَا} ولم يقل (ولا تأكلا) لأن النهي أشد في كلمة (ولا تقربا)، فعندما يُقال (لا تقرب) فالنهي هنا عن حتى الاقتراب من حدود الشجرة؛ حتى يمتنع تمامًا عن الوقوع في المعصية فلا يحفزه ويغريه الاقتراب.

تنبيه:

(من حام حول الحمى وقع فيه) من المسلمين من يحوم حول المعاصي حتى يقع فيها، يقول: سأجلس معهم ولكن لن أشترك معهم

في المعصية!! مجلس غيبة ولن أغتاب!!

{فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ} أي حتى لا تكونا من الظالمين بارتكاب المعصية.

وقفة:

الآية فيها دليل عظيم قد يخفى على الكثير وهو أن سُكنى آدم وزوجته الجنة في المرة الأولى لم تكن للخلود ولكن كانت مؤقتة، لماذا؟

١- لأن مسكن الخلود لا يوجد فيه تكليف أو أوامر، فالدخول للاستمتاع فقط، ولكن هناك تكليف وأمر، بل ترتب على هذا الأمر عقوبة {فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ} إذاً هذا السكن ليس للخلود.

٢- الشيطان دخل لآدم من باب الإغواء أنهم سيعيشون للأبد فأغراهم بالخلود، فدلّ ذلك أن هذه الجنة لم تكن للخلود لآدم في هذا الوقت.

- وسميت حواء بذلك قيل: لأنها سبب لكل حي فهي الزوجة التي ستنجب.

- وحواء لم يأت ذكر اسمها في القرآن، لكن جاءت في السنة في عدة أحاديث منها عند البخاري[1]: «**لَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا**

---

(١) البخاري (٣٣٣٠).

الدَّهْرَ»، والخيانة هنا تعني أنها تركت نصحه في النهي له، فكان ترك النصح له خيانة؛ فلمَّا وسوس الشيطان لآدم وأغواه بالشجرة وأنها ستكون سببًا في خلودك وزوجتك، مالت حواء لهذه الشهوة؛ فلم تنبه وتحذر آدم لعدم الاستماع لكلام الشيطان.

ملحوظة هامة في الاعتقاد: ليس المقصود من الخيانة لأي زوجة من زوجات الأنبياء خيانة الفراش فهذا مستحيل؛ لأن الأنبياء هم أشرف خلق الله فلا يجوز هذا في حقهم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾.

فلم يزل عدوهما الشيطان يوسوس لهما ويزين لهما، فانظر كيف حملهما على الزَّلل!! وبسبب هذا الزلل خرجا من الجنة.

{فَأَزَلَّهُمَا} وهناك قراءة لحمزة (فأزالهما) فما الفرق؟

{فَأَزَلَّهُمَا}: أي حملهم على الزلل بسببها؛ فكلمة {عَنۡهَا} أي بسبب هذه الشجرة؛ {فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا} زلّت قدمهما في المعصية وكانت الشجرة سببًا في خروجهما من الجنة، فكلمة (أزل) تقتضي عثرة وخطأ مع زوال بسبب هذا الخطأ. أما (أَزَالَهُمَا) في قراءة حمزة فمعناها أذهبهما وصرفهما؛ أي ذهب الخير الذي كانا فيه.

والمعنى متقارب لكن كلمة (أزالهما) في قراءة حمزة لا تقتضي وجود عثرة أو خطأ، فقد يزول الشيء دون عثرة أو خطأ بخلاف (أزلَّهما).

سؤال: كلمة {عَنْهَا} عائدة على الشجرة أم على الجنة؟

بالمعنى الذي قلناه يعود على الشجرة، ومن الممكن أن يكون معنى الكلام أنهم أُخرجوا من الجنة؛ أي زال الملك عنهم وخرجوا من جنة الخلد إلى دنيا الشقاء.

سؤال: كيف استزلهما الشيطان ودخل عليهما؟

أولًا: وسوس لهما.

لكن كيف دخل الجنة؟

هناك أقوال كثيرة جدًّا في كتب التفسير منها:

منها: أنه دخل على صورة طاووس وقف على سور الجنة فأُعجبا به وذهبا إليه فوسوس لهما.

وقيل: إنه دخل في فم حية.

وقيل: إنه نادى من بعيد فسمعا الصوت وتتبعاه فوسوس إليهما.

وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، فنتوقف عند ما ذكره الله عز وجل في القرآن، فنقول فقط: هي وسوسة؛ أي صوت خفي أُلقي في أنفسهما من قِبَل الشيطان.

ولكن ماذا قال الشيطان؟

في سورة (الأعراف) {وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾} فقال لهما إنهما إذا أكلا من الشجرة سيصبحان من الملائكة ويخلدان فيها، {وَقَاسَمَهُمَا} ما ظن آدم أن اللعين يقسم بالله كذبًا، ومن هنا صَدَّق الشيطان، ونسي أن الله أخبره أنه عدو له وحذره منه.

تنبيه:

أحيانًا أمام الشهوة تحدث الغفلة؛ فمن عظمة الجنة وجمالها خاف آدم أن يخرج منها وأراد الخلود فيها.

وقفة:

فى قوله تعالى {وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ} فيها نداء وتشريف، ثم عندما عصوا قال الله تعالى {وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ} لم يقل (يا آدم) لأنه أخطأ وظلم نفسه، فالمقام هنا مقام عقوبة، وليس مقام تشريف.

{وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ} بعدها بآية قال تعالى {قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا} إذا تتبعنا لفظ الهبوط في القرآن سنجد أنه يأتي مفردًا ويأتي مثنى ويأتي جمعًا.

- (مفرد) {قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴿١٣﴾} [الأعراف].

-(مثنى) {قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ﴿١٢٣﴾} [طه].

-(جمع) {وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ ﴿٣٦﴾} [البقرة].

بعض أهل العلم استدل على أن {ٱهۡبِطُواْ} لآدم وحواء، واستدل مَن قال منهم بذلك ببعض الأدلة منها:

{قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا} خطاب لآدم وحواء خاصة لكن عبّر بلفظ (جميعًا) كي يشمل الذرية أيضًا.

- في سورة (طه) {قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا} فالفعل جاء بلفظ التثنية.

وهذا القول أضعف الأقوال؛ لماذا؟

١- الآيات التي جاء فيها لفظ الهبوط جاء بعدها ذكر العداوة {وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ} فهناك عداوة ذكرت مع الهبوط.

والعداوة في القرآن جاءت بين الشيطان والإنسان، وليس بين الإنسان والإنسان { إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴿٦﴾} [فاطر]، أما الزوجة فلم يأتِ في القرآن لفظ يقول إنها عدو باستثناء موضع واحد { إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴿١٤﴾} في سورة (التغابن) كان سياق الآية في حالة معينة، لكن العداوة المطلقة لم تأتِ مع الزوجة، بل كان ذكر الزوجة مرتبط بالمودة والرحمة.

٢- كلمة (جَمِيعًا) لا يصح الاستثناء فيها وقول إنها تعود على آدم وحواء فقط.

٣- وأما ألف الاثنين في كلمة (اهبطا) فهي عائدة على آدم والشيطان وحواء تابعة لآدم.

أحد السلف الصالح أَصَّل قاعدة هامة جدًّا ألا وهي: (تَرْكُ الأمر أعظم عند الله من ارتكاب النهي) فآدم عليه السلام ارتكب النهي وإبليس ترك الأمر؛ والسبب في ذلك أن ارتكاب النهي في الغالب يكون صادرًا عن شهوة واحتياج وضعف، لكن ترك الأمر في الغالب لا يكون إلا عن كِبْر واستعظام.

وليس معنى هذا التهوين من شأن ارتكاب النهي، فالاثنان حرام، لكن ترك الأمر أعظم حرمة وأشد عند الله.

و(فعل المأمور أحب إلى الله عز وجل من ترك المنهي عنه) أمرنا الله عز وجلّ بأوامر مثل الصلاة والصيام والحج وبر الوالدين؛ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ سَأَلْتُ النبي ﷺ: أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ؟ قالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وقْتِهَا...**»(١)، فكلها أوامر يحبها الله، وَعَلَّق الله محبته على فعل الأمر فقال:

{ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾} [آل عمران].

---

(١) صحيح البخاري.

{ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ۝٤} [الصف].

{ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩} [الحجرات].

فكلها أوامر بفعل الشيء وليست بالنهي.

ـ أما ما جاء في جانب النهي فقد جاء بالنفي:

{وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥} [البقرة].

{وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ۝٢٣} [الحديد].

أيهما أقوى (الله يحب) أم (الله لا يحب)؟

(الله يحب) أعظم؛ فالله سبحانه وتعالى أمرنا بأوامر، والأمر مقصود لذاته، أما النهي فالمقصود منه استخراج عبودية الطاعة التي هي أصلًا امتثال لأوامر الله عز وجل فنصل به أيضًا لما يحبه الله.

مثال: عندما يقول الله عز وجلّ {وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ} فإن المسلم يترك الفساد امتثالًا وطاعة لله فيفعل ذلك ليصل إلى مراد الله الذي أمر به الله عز وجل، لذلك نقول: إن الأمر من الله عز وجل مطلوب لذاته.

{حِينٞ} اسم للوقت (يصلح اسمًا للوقت كما أنه يصلح لجميع الأزمنة طالت أم قصرت)، كما أنه يُطلق على المدة؛ قال تعالى: { هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١}

[الإنسان].

- ويطلق على الجزء من الدهر قال سبحانه: {فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾} [المؤمنون].

- ويطلق على الغدو والمساء: {فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾} [الروم].

- ويطلق على السنة وفصولها {تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾} [إبراهيم].

أما {حِينٖ} هنا: فهي على وجهين:

١- إما أن يكون الخطاب لآدم على وجه الخصوص فيكون المقصود بالحين هو (إلى أن يموت آدم عليه السلام).

٢- وإما أن يكون الخطاب لآدم وذريته، والشيطان وذريته فيكون المقصود بالحين هو (إلى قيام الساعة).

قوله تعالى: { فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾}.

{فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ} الفاء للمبادرة، ودخلت على الفعل فكانت إيذانًا وإعلامًا وتنبيهًا بأن الشيء المُتلقى شيء مطلوب ومرغوبٌ فيه.

قال سبحانه {فَتَلَقَّىٰٓ} ولم يقل (فَلَقِي) فما هو الفرق؟

١ ـ التَّلقِّي: تفعُّل أي تكلُّف، والتكلُّف لا يكون إلا مع أمر محبوب ومرغوب، فعندما قال الحق سبحانه: {فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ} عُلِمَ أن هذه الكلمات هي كلمات رحمة وتوبة لا كلمات زجرٍ وتوبيخ؛ والدليل قوله {فتلقّى} وهي على العكس من (لقي)، فالتلقي: تأتي في المَسَرَّة والإكرام قال ربنا: {لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣} [الأنبياء] فيها دليل على أنهم مُستبشرون سعداء؛ لأنهم مُقبلون على أمر عظيم (أي المؤمنون) كما أن الملائكة مُستبشرون أيضًا لأن هؤلاء هم عباد الله المخلصون.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لَا تَلَقَّوُا الرُّكْبَانَ»**(١).

ـ **الشاهد**: نهى النبي ﷺ عن تلقّي الركبان فلماذا؟ كانت القافلة تأتي بالبضائع فيخرج إليها بعض التُّجار ليتلقّوا ما فيها من البضائع بأسعار زهيدة قبل دخول القافلة البلد (وهذا الجزء خاص بفقه البيوع)؛ فكان المقصود منها -كلمة (تلقّى)- الخروج خارج حدود البلد لأمر فيه إكرام ومسرة وفرحة وإقبال على الشيء نظرًا لما سيجنيه من خير نتيجة تلقيه للقافلة وأخذه ما فيها من بضائع وتحقيق المكاسب.

---

(١) أخرجه البخاري(٢١٥٠).

٢ـ أما كلمة (لقي): فإنها تأتي في الأمر الغير مرغوب فيه (ليس محبوبًا)؛ قال سبحانه: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾} [الأنفال].

{مِن رَّبِّهِۦ} أضاف الربوبية إلى آدم، وفي هذا تشريف لآدم وأيضًا فيها شكل من أشكال الودّ، والله هو الودود، فمع ظلم آدم لنفسه واقترافه لما نُهِي عنه (أكل من الشجرة التي سبق أن نُهِي عن الأكل منها) ومع استجابته لإبليس إلا أن الرحيم الودود حين خاطب آدم خلا هذا الخطاب من التوبيخ ومن أي شيء يُشْعِر بالغضب.

و(الربوبية) نوعان:

- الربوبية العامة: لكل عباد الله من الإنس والجن سواء كان مؤمنًا أو كافرًا {إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٣﴾} [مريم].

- الربوبية الخاصة: وهذا النوع يقصد به تربية الرب سبحانه لأوليائه وأصفيائه تربية خاصة، وإضافة الربوبية لآدم عليه السلام كما سبق القول تُشعر بالتشريف والكرم والإحسان والمَنّ مِن الله عليه بالرغم مما فعله.

{كَلِمَٰتٖ} الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام لم تُذكر في هذه الآية ولكنها ذُكِرت في سورة (الأعراف): {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾}.

{فَتَابَ عَلَيۡهِۚ} أي فتاب الله عليه من الذنب الذي اقترفه، ولكن ما المقصود بالتوبة من الله عز وجل؟ أصل كلمة توبة في اللغة: الرجوع، والتوبة من العبد: تعني الرجوع من الذنب إلى الطاعة، ومن الإعراض إلى الإقبال، وأما التوبة من الله سبحانه فإنها تعني: رفع المؤاخذة والعفو عن المذنب إذا رجع العبد إلى ربه تائبًا نادمًا مُقِرًّا بما اقترفه من الإثم (المعصية في حق الله شديدة لو كانوا يفقهون).

ولماذا تاب الله عليه؟ لأنه لم يتجرأ على محارم الله سبحانه، ولكنه وقع في الخطأ نتيجة (تسويل النفس، تزيين الشيطان، رغبات الطبع، قهر الهوى، الثقة في العفو، رجاء المغفرة، والعلم بأن الرب رحيم وودود).

إذًا يمكن أن يُخطئ الإنسان من هذا الباب، فإذا كانت هذه المعاني في القلوب فإن الله يتوب على عبده، أما إذا انتُزعت منها أو غابت عن العقل فلن تتحقق التوبة النصوح.

{إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} جملة تعليلية، فلماذا تاب الله على آدم عليه السلام؟ لأن الله هو التواب الرحيم، وَ{هُوَ} ضمير فصل (للتوكيد والحصر) فلا رحيم ولا تواب إلا الله عز وجل؛ إذًا فكيف يكون ذلك وهناك من العباد مَن يتوب (يعفو أو يعتق) على عبده أو أمته في أزمنة العبودية، أو على ابنه أو على الغير؟!

الجواب: عفو العباد أو توبتهم على بعضهم البعض في حدود بشريتهم، وكذا رحمتهم ببعضهم بشرية؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»** (١).

فعفو العباد أو توبتهم أو حتى رحمتهم ببعضهم رحمة قاصرة محدودة بحدود بشريتهم، ولكن ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: توكيد وحصر لحقيقة الرحمة وحقيقة التوبة حيث الكمال الذي لا يكون إلا لله سبحانه، فالتوبة على الحقيقة وكذا الرحمة على الحقيقة لا تكون إلا من الله الملك؛ لأن كل عمل وُفِّقَ فيه العبد لا يكون إلا بتوفيق الله له فيه، وحتى ما وُضِعَ في قلوب العباد من رحمة فهي من عند الله الرحيم، فالرحيم والتواب على الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور]؛ لقد جاء خطاب الله بالتوبة لعباده المؤمنين وليس للعُصاة فقط، وفي هذا إشارة أنه يجب على الجميع التوبة حتى ولو كان للعبد قِدَم في الطاعة وفي الدين ورسخ الإيمان في قلبه فالكُلّ يحتاج إلى التوبة.

تنبيه: مَن أراد أن يُحقق التوبة من أي ذنب يرى أنه كبير ومضت عليه أعوام وهو يُجاهد في سبيل تحقيق هذه التوبة عليه أن

---

(١) سنن الترمذي (١٩٢٤)، وقال الألباني: صحيح.

يعلم أمرين أمامه:

١ـ أن يُوفقه الله للتوبة كي يتوب العبد.

٢ـ ثم يقبل الله توبته.

فهذان الأمران يفتقر العبد فيهما إلى ربه، وبغيرهما لن تكون هناك توبة.

ـ والتوفيق إلى التوبة يحتاج إلى الدعاء والتضرع والتذلّل بين يدي الله عز وجل؛ لأن الأمر كله بيده فإذا ما وجد العبد نفسه يخطو خطوات على طريق التوبة وبدأ الذنب ينخلع من قلبه ورأى هذا القلب مقبلًا على التوبة الحقيقية فعليه أن يسأل الله أن يمُن عليه بالقبول.

سؤال يطرح نفسه: لماذا لا يُوَفق البعض للتوبة؟

هناك أربعة عوائق تحول بين العبد وبين تحقيق التوبة:

١ـ **ضعف الخشية:** ليس في القلب الخشية الكافية للزجر والنهي عن فعل القبيح، ولو اكتملت الخشية في القلوب لما تجرأ القلب على الوقوع في المعصية.

وضعف الخشية يتولد عنه الاستهانة بالذنب، فكل مَن استهان بذنب من الذنوب فإن هذا يرجع إلى ضعف الخشية في قلبه.

٢ـ **التعلق بالدنيا:** ترتب عنه الغفلة (أمر في غاية الخطورة)؛

فكل مَن يتعلق بالدنيا يُصيبه شيء من الغفلة، والتعلق بالدنيا له أبواب كثيرة لا يتوقف عند غلق أحدها بل لا بُد من غلق كل باب يشغل القلب عن أمر الله.

٣- **الجبر والاعتماد على النفس فيما يخص مسألة التوبة:** فقد يسيطر فكر الجبرية على القلب وصاحبه غير مُنْتَبِه لذلك، وهذا يتولّد عنه سوء ظن بالله سبحانه (وفكر الجبرية يوجد عند الكثيرين).

فما هو فكر الجبرية؟ صاحب هذا الفكر يعتقد أنه مُجبر على كل ما هو فيه.

وعلينا جميعًا أن ننتبه: فقد يكون الشخص ظاهره ومنهجه أهل سنة وجماعة ولكنه دخلت عليه بعض أفكار عقائد الفِرَق الضالّة من غير قصد، فكيف كان ذلك؟

مثال: يُحاول أحدهم التوبة مرارًا وتكرارًا من ذنب ما ويجاهد نفسه حتى لا يقع فيه إلا أنه لا يستطيع تحقيق هذه التوبة النصوح، ومع طيلة الوقت وكثرة المجاهدة وعدم إيجاد ثمرة لذلك، يدخل الفكر الجبري على هذا العبد حتى - وإن كان على درجة من العلم- يعتقد أن الله لا يريد، وهذا يعني أن القلب قد أصيب بهذا الفكر، وإلا فما هو المقصود بقوله: إنه لا يستطيع أن يتغير بالرغم من مجاهدته لذنوبه سنوات وسنوات؟! هل يقصد أن الرب سبحانه جبره على ما

هو فيه؟! العبد لم يُجبر على ما هو فيه؛ ولكن البعض مِمَّن لم يُوفق للتوبة ينظر إلى عدم التوفيق على أنه إجبار من الله له على هذا، وهذا الاعتقاد يتولد عنه سوء الظن بالله تعالى؛ فيظن أن الله أجبر عبده على المعصية بالرغم من محاولته الفرار منها.

لماذا يريد العبد التوبة ولا يوفقه الله لها؟ لا بُد أن يسأل نفسه ويبحث في هذه العوائق ويرى أيًّا منها ينطبق عليه؛ قال تعالى: {مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧} [النساء].

٤- **فكر الاعتزال:** وهذه الجزئية تصيب بعض طلاب العلم المتقدمين لماذا؟ لأن المتقدم في العلم أحيانًا يفرح بنفسه فهو يرى أن لديه قدرة على الفهم والقراءة وأصبح له شأن في هذا السبيل، هذا النموذج كيف يتعامل مع الذنب؟

هذا النموذج يريد إصلاح نفسه بالمجاهدة أيضًا ولكن في طريق الجهاد دخل عليه فكر الاعتزال دون أن يشعر (أنا مَن يجاهد، أنا مَن ينتصر على نفسه، أنا مَن يفعل ويفعل).

فهل العبد هو مَن يخلق فعله أم أن أفعال العباد مخلوقة؟

أفعال العباد مخلوقة، نعم بالفعل مَن يقوم بالجهاد ومحاولة إصلاح النفس هو العبد، ولكن إن لم يُعِنه ربه على هذه النفس فلن يستطيع اختلاع الذنب من قلبه مهما أوتي من قوة.

فانتبهوا: لأن تحقيق التوازن بين الجبر والاعتزال يحتاج إلى تركيز شديد.

وَ{ٱلتَّوَّابُ} صيغة مبالغة، تعني توبة بعد توبة، وكم من فرد تاب عليه، وكم من ذنب اقترفناه وكم من جرم زلَّت أقدامنا فيه ونحن ننسى والله لا ينسى، ولكنه يتوب مع كل هذه الذنوب والمعاصي، فربنا هو التواب الرحيم؛ هو التواب أي الذي يكثر التوبة على عباده. والتواب لا يتوب فقط، بل يتوب ويرحم، فإذا لم يرحم ولم يتب فعلى العبد أن يسأل نفسه لماذا؟!

قال تعالى: { وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨} [التوبة]، لماذا تاب الله عز وجل على هؤلاء (كعب بن مالك، هلال بن أمية، مرارة بن الربيع) بالرغم من تخلّفهم عن الغزوة وركونهم إلى الدنيا؟ بدأ الأمر باعتزال النبي ﷺ لهم مدة طويلة، وكانت هذه المدة بالنسبة لهم صعبة جدًّا، فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فقد كان ندمهم شديدًا، وكان تبرؤهم من الحول والقوة عاليًا، فانتزعوا الدنيا من قلوبهم وأحسّوا بالذنب إحساسًا رهيبًا فهم مَن فعلوا هذا بأنفسهم (ليس هناك فِكر جبر) كما أنهم يُريدون التوبة ولكنها لن تكون إلا بتوفيق الله (ليس هناك فِكر اعتزال).

- هؤلاء خرجوا من فكر الجبر باعترافهم بالذنب.

- وخرجوا من فكر الاعتزال بالتبرؤ من الحول والقوة.

- وخرجوا من الغفلة بترك الدنيا وإزاحتها عن القلوب، وهذا هو الفهم الصحيح لحقيقة الأمر، ولهذا تاب الله عليهم.

- لقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم بما لديهم من علم وفقه وإدراك للمعاني معنى التوبة، وكيف يتوب العبد وتتحقق له التوبة ويوفق لها وتُقبل منه؟.

{ٱلرَّحِيمُ} الرحيم ذو الرحمة الواسعة، الرحمن: هي صفة ذات، أما الرحيم: فهي صفة فعل، فرحمته واسعة واصلة لمن شاء من العباد في الدنيا، أما في الآخرة فهي للمؤمنين فقط.

سبب قبول التوبة:

قال آدم عليه السلام:{ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾} [الأعراف] فبماذا توسّل آدم إلى ربه؟ توسّل إلى الله بالربوبية {رَبَّنَا} وفي هذا اعتراف بأنك أنت الرب وأنا العبد الضعيف.

والتوسل إلى الله عز وجل لا بُد أن يكون بأمور مشروعة منها:

(التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، التوسل إليه بسابق الإحسان، التوسل بعمل عمله العبد خالصًا لوجه ربه).

- أما آدم عليه السلام فقد توسل إلى ربه بصفات الربوبية (ربنا)، أنت يا ربنا ليس لنا أحدٌ سواك ليتوب علينا فتب علينا؛ {ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا} وهنا يتوسل آدم بحاله؛ فقد اعترف بأنه ظالم لنفسه لأنه أذنب، وهذا على العكس من فعل إبليس الذي قال لربه: {قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾} [الأعراف] لقد أضاف الإغواء إلى الله (كان إبليس جبريًّا في اعتقاده) وكل مَن سلك مسلك الجبرية فإن سلفه هو إبليس.

فآدم عليه السلام عندما أخطأ فَهِم، فنسب الظلم والخطأ لنفسه {رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ} وهذا هو التفويض الكامل، فإن لم تغفر لنا يا ربنا وترحمنا فسنكون من الخاسرين، أما إبليس فقد نسب الإغواء لله سبحانه، والمقصود (أنا لم أُخطِئ بل أنت من أغويتني) فتكبر للمرة الثانية.

- إذًا ينبغي عند التوبة من الذنب أن يكون هناك أدب مع الله وفهم عن الله {وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿١٣٥﴾} [آل عمران] فعلى العبد أن يتودد إلى ربه حتى يغفر له ذنبه سواء الذنب العارض أو الذنب المستمر (أي المتمكن من صاحبه).

لمَّا سَلِم لآدَم أصل الْعُبُودِيَّة لم يقْدَح فِيهِ الذَّنب:

أخطأ آدم وأخطأ إبليس أيضًا، ولكن خطأ آدم لم يكن عن قصد مخالفة أوامر الله أو قدحًا في حكمته كما أن خطأه لم يكن ناتجًا عن

تعمد، ولذلك علّمه ربه كيف يعتذر، وكان هذا بالود والرفق والرحمة لماذا؟ لأن العليم يعلم من قلب عبده (آدم) أنه ما قدح في حكمته كما أنه لم يقصد معارضته.

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[(١)].

- هل يمكن أن تبلغ ذنوب العبد عنان السماء ثم إذا ما أقبل على ربه يغفرها له؟! كيف يكون ذلك؟! يكون هذا إذا لم يقدح العبد في حكمة ربه وإذا لم يتعمد المخالفة.

والدليل على ذلك نجده في حديث البطاقة؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ**

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٤٠).

إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» (١).

- لقد عجز البعض عن فهم هذه الأحاديث، فمن هذا البعض طائفة المُرجئة الذين أخذوا هذا النوع من الأحاديث وطاروا بها فأعرضوا عن العمل وقالوا: إن لا إله إلا الله تكفي للنجاة!! فهذا الفهم خاطئ، وهل كان في ميزان آدم عليه السلام حسنات حتى يتوب الملك عليه؟ لا شيء سوى صدق الرجوع والتوبة، كما أن حال آدم وقت ارتكاب الذنب لم يكن تعمدَ مخالفةِ أوامر الله سبحانه أو القدح في حكمته.

فاحذروا: إياكم أن تقتربوا من صفات الربوبية؛ لأن التعامل يكون مع الملك القوي العزيز، فآدم لم يقدح في حكمة الله، وقد كان من الممكن أن يقول: إن الله هو مَن أدخلني الجنة وأدخل الشيطان فيها، وكذا هو مَن جعل إبليس يتسلَّط علي، وهو مَن خلق الشيطان فما ذنبي أنا؟ وهذا ما يعتقده البعض أحيانًا وإن لم يتفوه به بلسانه إلا أنه يعتقده بقلبه (فِكْر الجبر).

ولقد عَلِمَ الله سبحانه وتعالى أن آدم عليه السلام لم يقل هذا حتى

(١) سنن الترمذي (٢٦٣٩).

فيما بينه وبين نفسه، ولكن حين حاجه موسى عليه السلام ماذا قال؟ قال النبي ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**» ثَلَاثًا[(١)].

- قال: (قدَّره) وذلك لحكمة لم يطعن فيها ولكنه أقرَّ بها، فلم يظلمه ربه ولكن هذا الفعل حدث بحكمة ولحكمة؛ فَهِم آدم أن حكمة ربِّهِ بالغةٌ وأنه لم يُظلم، هذا الفهم الصحيح أدى إلى توبة الله عليه (حقق التوبة النصوح فرُزِق التوفيق للتوبة).

إن آدم عليه السلام أُخرج من الجنة عقوبة، ولكنه أُنزل للأرض كرامة ثم نبوة ثم أتت ذريته من بعده، أما إبليس فقد عصى ربه وسيطر عليه الفكر الجبري فقال ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ ونسب الظلم إلى ربه اعتقادًا منه أن ربه هو مَن فعل به هذا.

وقفة:

عند المقارنة بين حال آدم وحال إبليس لا بُد من الانتباه لنقطة فاصلة بين الخروج من فكر الجبر وعدم الوقوع في فكر المعتزلة (الاعتماد على حول العبد وقوته في تحقيق التوبة)؛ فمسألة توبة آدم ظهر فيها من الحِكَم الكثير منها (ذُل العبودية، إظهار عز الربوبية)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

كما ظهر فيها أيضًا آثار أسماء الله عز وجل وصفاته على العباد، فهو التواب العفو الرحيم الغفور لمَن جاء تائبًا نادمًا (آدم)، كما أنه عزيز ذو انتقام، بطشه شديد، عقابه أليم، والعاصي المتكبر لن يتفلت من عقابه (إبليس)، فتلك هي آثار الأسماء على العباد فبينما ظهرت آثار أسماء كالعفو والغفور والرحيم والودود والتواب مع آدم عليه السلام، ظهرت أيضًا آثار أسماء وصفات الجلال؛ عزيز ذو انتقام وبطشه شديد مع إبليس فعاقبه هو وذريته إلا التائب منهم.

قال ابن القيم في «الفوائد»: (لولا تَقْدِير الذَّنْب هَلَكَ ابن آدم من العُجْب، ذَنْب يذل به أحب إليه من طاعة يدل بها عليه، شمعة النَّصْر إنَّما تنزل في شمعدان الانكسار، لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها، ولا يعزها بمثل ذلها، ولا يريحها بمثل تعبها، ولا يشبعها بِمثل جوعها، ولا يؤمنها بمثل خوفها، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل مَا سوى فاطرها وبارئها، ولا يُحْيِيهَا بمثل إماتتها، شراب الْهوى حُلْوٌ ولكنه يُورث الشَّرَق، من تذكر خنق الفخ هان عَلَيْهِ هجران الْحَبَّة).

- فكلما كان الإنسان في حالة من الذل والانكسار كلما ضاع العُجب وانتُزِعَ من القلب، فالذنب الذي يصل بالعبد إلى درجة الانكسار والتوبة أحب إلى الله من الطاعة التي يعلوها العُجب.

شمعة النَّصْر إنَّمَا تنزل فِي شمعدان الانكسار: إذا أردت أن ينصرك الله ويرفع قدرك ويُعلِي شأنك فعليك بالانكسار والتذلل أمام

الله عز وجل، وقليلٌ مَن يقف على هذا الباب خاصةً مع عز النفس والعلو والرقي في الطاعات والأعمال، فقد يُصاب الإنسان وهو في هذه الحال بشيء من العُجب فيمنع عنه الانكسار وبالتالي تكون خسارته كبيرة.

لَا يكرم العَبْد نَفسه بِمثل إهانتها: فإكرام النفس يكون بإهانتها ابتغاء مرضات الله.

وَلَا يعزها بِمثل ذلها: فلا يمكن أن يصل العبد إلى عِز الآخرة إلا بذل الدنيا.

وَلَا يريحها بِمثل تعبها: ولن تكون الراحة إلا مع التعب، فتعب الدنيا يُورث الراحة الأبدية في الآخرة.

وَلَا يشبعها بِمثل جوعها: لأن الإكثار من الطعام والشبع منه يُقوي الشهوة ويمنع الطاعة.

وَلَا يؤمنها بِمثل خوفها: فمَن أراد أن يأمن يوم القيامة فعليه بالخوف، فالأمان في الآخرة يستلزم الخوف في الدنيا.

وَلَا يؤنسها بِمثل وحشتها: فالأُنس على الحقيقة والأنس في الجنة وبين أهلها لن يكون إلا حين يستوحش العبد من أهل الدنيا ومعاصيهم ويبتعد عنهم، فإذا ما انفصل وانعزل عن هؤلاء كان هذا ترتيبًا للأنس الأبدي، وفرق بين الأنس المؤقت (بالناس- المعاصي- الدنيا) والأنس الأبدي (في الآخرة).

شراب الْهوى حُلْوٌ: عندما يسير الإنسان وفق هواه يسعد ويتلذذ ولكن {مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾} [آل عمران] وهذا هو قول ربنا.

- وَلكنه يُورث الشرق: فعندما يتناول الإنسان أطعمة مذاقها حلو بكثرة يمكن أن تؤدي إلى شرقة، وهذه الشرقة يمكن أن تُميت صاحبها.

من تذكر خنق الفخ هان عَلَيْهِ هجران الْحَبَّة: فالطير عندما يرى الحَبَّ يُسرع إليه ليأكله فإذا ما تذكر شباك الصياد علم أن النتيجة هي الموت، والعاقل هو مَن لا يسعى لينال الحبة.

فإذا تزينت لك الدنيا فتذكر ما سيحدث لك إذا ما حاولت اللحاق بها (ضياع الآخرة) واعلم أنه ينبغي عليك هجرها إذا أردت النجاة من عاقبة أمرها.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ
فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ
كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ
بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا
تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

{قُلْنَا ٱهْبِطُواْ} كرر الإهباط من أجل التنبيه والتذكير بشيء هام ألا وهو نزول الأوامر من الله سبحانه.

{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} أي يا معشر الإنس والجن سيأتيكم في وقتٍ ما هدًى من عند الله، فحين نزل آدم إلى الأرض قَدَّر الربُّ كونًا؛ أن يكون هناك رسل يتم إرسالهم من أجل أن تنذر الناس وتبشّرهم سواء كانت معهم رسالة أم لا، فالرسول يُبعث لنُصح الناس، والهدى يأتيهم من الرسل المرسلة والكتب المنزلة.

{فَمَن تَبِعَ هُدَايَ} فمَن اتّبع أمري باتّباع رسلي والإيمان بكتبي فماذا ستكون النتيجة؟

{فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فكل مَن اتّبع الهدى نفى الله سبحانه عنه أمرين: الحزن والخوف؛ قال تعالى:{ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾} [طه] أما النفي هنا فهو نفي الضلال والشقاء، إذًا: باتباع أوامر الله عز وجل يُنفى عن المتبع: (الحزن- الخوف- الضلال- الشقاء) أربعة أمور يُقابل نفيها إثبات لأربعة أمور أخرى؛ فنفي الحزن يُقابله الفرح، ونفي الخوف يُقابله الأمن، ونفي الضلال يقابله الهدى، ونفي الشقاء يقابله السعادة، وليس هذا فقط بل خير منه، قال عز وجل:{ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ

أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾} [النور] بدّل خوفهم أمنًا، ومكنهم في الأرض، واستخلفهم فيها فما السبب؟

السبب هو التوحيد، فمَن حققه وصل إلى ذروة الهدى، فهو أعظم شيء يمكن أن ينال العبد به سعادة الدارين (فقد حصل له المرغوب- ودُفِعَ عنه المرهوب).

-و(**الخوف**): يكون مما لم يحدُث بعد؛ أي مما هو آتٍ.

-و(**الحزن**): يكون على شيء حدث بالفعل.

-و(**الضلال والشقاء**): يكونا نتيجة للبعد عن الله سبحانه وتعالى.

{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي جحدوا.

{وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ} آيات الله هي الحجج والأدلة على وحدانية الله وربوبيته، وهذه الآيات يُبيّنها الرسل للعباد.

-ومَن يجحد بهذه الآيات يكون من أصحاب النار الخالدين فيها، وأصحاب النار الخالدون فيها هم الكفار؛ لأن المسلم لا يُخلد في النار؛ قال تعالى: {وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾} [فاطر]، وقال سبحانه: {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾} [الأعلى].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ**

هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[1].

الشاهد: أن المخلدين في النار هم الذين لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن هناك أناس آخرون أصابتهم النار بذنوبهم وخطاياهم فإذا ما وصلوا إلى درجة معينة (فحمًا) أُذن بالشفاعة فيخرجون من النار جماعات جماعات، وفي هذا دليل على أنه من المسلمين مَن يدخل النار ويمكث فيها حتى يصير فحمًا، ثم يخرج بالشفاعة، ثم يُلقون في أنهار الجنة فيعودون مرة أخرى.

قوله تعالى: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ}.

{إِسۡرَٰٓءِيلَ} يقول بعض أهل العلم في معنى إسرائيل:

(إسرا): معناها عبد الله وصفوته من خلقه.

(إيل): معناها الله؛ لأن يعقوب عليه السلام كان يقال عليه (إسرائيل).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥).

انظروا كيف خاطب الحق تبارك وتعالى بني إسرائيل {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ} لم يقل ربنا سبحانه لهم: يا قوم، أو يا مخالفون، أو يا عُصاة، ولكن ناداهم بـ: يا بني إسرائيل، وإسرائيل هو نبي الله وهؤلاء هم بَنُوه، وهنا تكمن فائدة عظيمة وهي (كيفية استجياش الناس- جذب النفوس الشاردة - استمالة القلوب المعرضة).

لقد كانوا عصاة طاغين باغين مخطئين، وبالرغم من ذلك جاء الخطاب بهذه الصورة (يا بني إسرائيل) يا أبناء يعقوب، والمعروف أنه النبي الكريم، ابن النبي الكريم، ابن النبي الكريم.

وهكذا تكون المقدمة مع المخالف المعاند، هذه الطريقة تخلق شيئًا من الود بين الداعي والمدعو، أما الشدة والغلظة فإنها تجعل المعرض يزداد إعراضًا.

ومن هذا الخطاب أيضًا قوله تعالى:{ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣} [الإسراء] أي: يا ذرية الصالحين؛ لأن كل مَن حمل مع نوح في السفينة كانوا صالحين مؤمنين، فهكذا ينبغي أن يكون أسلوب الداعي إلى الله مُحَلّى باللين والرفق حتى يستميل قلوب المدعوين.

لقد جاء خطاب الله سبحانه لبني إسرائيل بهذه الصورة من أجل أن يجذب نفوسهم للإيمان بالنبي ﷺ واتِّباعه.

{ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ} وكان مما ذكّرهم ربهم به: النعم التي أنعم بها

على البشر، وأنهم قابلوا هذه النعم بالجحود، فمع سِعة رحمة الله وحلمه عليهم كانوا مُصرين على ارتكاب المعاصي؛ لقد قتلوا الأنبياء فأمهلهم، وارتكبوا الأفعال الشنيعة فلم يعاجلهم بالعقوبة، إمهالٌ بعد إمهال إلى أن أصبح ما هم فيه طبعًا.

وأصل النعمة هو أن ينال الإنسان شيئًا يُوافق نفسه (أي ينشرح صدره له - يرتاح بدنه فيه) هذا هو منظور العوام للنعم حيث النعمة الظاهرة، أما المؤمن التقي النقي الفطن فإن منظور النعمة بالنسبة له (النعمة التي توافق باطنه) وهذه النعمة تكون سببًا في سعادة صاحبها في الباطن كما أنها تكون سببًا في دخوله جنة عرضها السماوات والأرض.

{ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ} أي أنعمت عليكم بها، ودللت على شرفها بإضافتها إلى (عليكم)، والنعمة شريفة لأن مَن أنعم بها هو الله، وشرف النعمة يكون من شرف المُنْعِم.

والنعم التي طلب الله من بني إسرائيل ذكرها لم تأتِ في هذه الآية ولكن جاءت في آيات أخر منها: قال الله عز وجل: {وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾} [البقرة]؛ ذكّرهم سبحانه بسابق نِعَمه وفضله عليهم حتى تنجذب قلوبهم وتُقبل على الأمر.

ملحوظة: عندما ننظر في القرآن نُلاحظ أن الله عز وجل في خطابه لبني إسرائيل كان تارة يُذكّرهم بالنِّعَم التي أنعم بها عليهم، وتارة يُذكّرهم بسوء أفعالهم، وتارة يُذكّرهم بالعقوبات، وتلك هي طريقة الدعوة ما بين الترغيب والترهيب والتذكير بالآثام، فالترغيب يكون أولًا فإن لم يستجب المدعو بعد دعوته مرارًا وتكرارًا فعلى الداعي أن ينتقل إلى أسلوب الترهيب، ثم يُذكّره بما فعل من ذنوب ومعاصٍ كي ينتبه لخطورة ما هو فيه.

لقد ذكَّر الله سبحانه بني إسرائيل بعَشرٍ من النعم، وذكَّرهم أيضًا بعشرٍ من الأفعال السيئة التي ارتكبوها، كما ذكرهم بعشرٍ من العقوبات.

أما النعم العشر فهي:

قال سبحانه:{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}{ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}{ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ}{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}{ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ}{ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}{فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ}{ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ}.

وأما العشر الخاصة بسوء أفعالهم فهي:

قال الخالق سبحانه:{ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}{ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ}{ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً}{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}{ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى

طَعَامٍ وَاحِدٍ} { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ} { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلك} { يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}.

وأما العقوبات العشر فهي:

قال تعالى:{ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} {يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} {اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} {كُونُوا قِرَدَةً} {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ} {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} {وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} {حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}.

نخلص من ذكر هذا إلى أن المعاند المخالف المعرض المشاقق لله ورسوله لا تنفع معه دعوة ولا يستقيم له حال، فقد ذكّرهم ربهم جل ذكره بالنعم فلم يستجيبوا، وذكّرهم بأعمالهم السيئة فلم يستجيبوا، وذكّرهم بالعقوبات وما نزل عليهم منها فلم يستجيبوا بالرغم من ذلك أيضًا، فلا الترغيب ولا الترهيب ولا التذكير ببشاعة جرمه تُجدي معه.

{وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ} من الوفاء وهو عمل لاحق بمقتضى تقدم علم سابق، وهنا أيضًا لم يبيّن ما هو العهد المطلوب منهم الوفاء به، ولكن أورده الحق سبحانه في: { وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا

لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾} [المائدة] إذًا كان العهد المطلوب منهم هو: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل واحترامهم، وإقراض الله قرضًا حسنًا.

ولقد ذَكَر الزكاة وذكر إلى جانبها القرض الحسن، فلا يكتفِ الواحد منَّا بإخراج زكاة المال، بل عليه أيضًا أن يُخرج قروضًا حسنة للناس كما أنه يحتاج إلى إخراج صدقات فهذا باب عظيم.

{أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}: فما هو عهد الله سبحانه؟ قال تعالى:{لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ} فعهده سبحانه: هو تكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم الخالية من الإصرار والتكبر والمعاندة والشقاق وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

فَمَن يُوفِ بعهد الله يَنَلْ السعادة والفرح والأمن والهدى، ويُصرف عن قلبه الخوف والحزن والضلال والشقاء، هذا في الدنيا، أما في الآخرة ففيها تكفير السيئات ودخول جنة رب العالمين.

{وَإِيَّٰىَ} تخصيص فالخوف كله من الله كما أن الخشية كلها لله، لم يقل سبحانه (فخافوا) ولكن قال (وإياي): فيها تنبيه على أن الرهبة كلها والخوف كله خاص بالله عز وجل.

{فَٱرْهَبُونِ} الرهبة: حذر النفس مما شأنها منه الهرب لأذى

تتوقعه، فإذا كان لدى النفس رهبة من خالقها فإنها ستحذر من المعصية لماذا؟ لأنها تهرب من شيء سيترتب عليه أذى متوقع، إذن الهروب يكون من المعاصي والمخالفات والذنوب؛ لأن العبد المؤمن لديه يقين في أن الذنوب والمعاصي تُوقع صاحبها في المحظور (في الدنيا والآخرة).

يُخاطب الرب سبحانه بني إسرائيل {وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ} أي خافوا حتى لا تلقوا مصير مَن سبقكم من الكفار والأقوام السابقة من الذل وأنواع الهوان في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

قوله تعالى: { وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾}.

{وَءَامِنُواْ}: يأمر الله عز وجل بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن الذي أُنزل على النبي ﷺ، وهذا يستلزم الإيمان بالنبي ﷺ فهو مَن أُنزل عليه القرآن.

ملحوظة: أحيانًا يأتي الحق للإنسان فيمتنع عن اتّباعه بالرغم من يقينه أنه حق، فيهرب ليس من مواجهة الآخر فقط بل إنه يهرب حتى من نفسه كي لا يواجهها بهذا الحق محاولةً منه أن يروغ روغان الثعالب كي لا يُذعن لهذا الحق.

{بِمَآ أَنزَلۡتُ} أي بالقرآن.

{مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ} لقد كان من المقبول قول {وَءَامِنُواْ} دون

أن يذكر {مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ} ولكنه أعقب {وَءَامِنُواْ} بما يليها لأن في هذا بيان للداعي القوي الذي يمنعهم من الروغان والهروب وعدم اتباع الحق ومواجهة الحقيقة، فلا بُد من الإيمان بالقرآن وبمَن أُنْزِلَ عليه لماذا؟ لأن معهم التوراة التي جاء فيها وجوب الإيمان بالنبي ﷺ والمذكور فيها صفاته فإذا كنتم تُقِرُّون بالتوراة التي معكم فليس أمامكم سوى خيارين: إما الإذعان للأمر والإيمان به، وإما التكذيب بالتوراة (حجة بالغة من رب العالمين).

لقد جاء الأمر بالإيمان مع بيان الداعي الذي استوجب ضرورة الاستسلام والخضوع لهذا الأمر حيث أنه تضمن الإشارة إلى ترك تكذيب النبي ﷺ وكذا القرآن؛ لأن ما جاء به محمد ﷺ هو نفس ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، فإذا ما اتخذوا موقف المُكذب له ولما جاء به فإنهم يكونون بذلك قد كَذَّبُوا الكتب التي يؤمنون بها (وفي هذا تكذيب لأنفسهم).

وهناك ثلاثة أنواع من الإشارات:

١- إشارة باطنية. ٢- إشارة صوفية. ٣- الإشارة عند أهل السنة والجماعة.

- وهذا اللفظ (إشارة): يأتي بحسب ما يُستعمل.

١- **الجماعة الباطنية:** هي جماعة ضالة كافرة خارجة عن الإسلام، هؤلاء يقولون إن الآيات لها باطن ولا يعترفون بظاهرها

(هؤلاء يُكثرون من استخدام لفظ الإشارة).

٢ـ **أما الصوفية:** التفسير الإشاري الصوفي أقل قليلًا من الباطني والفرق بينهما هو اعترافهم بظاهر الآيات ولكن يُضيفون إلى ذلك أن لها باطنًا أيضًا.

مثال: {الٓمٓ} هذه الحروف مقطعة والمقصود بها الإعجاز وتعجيز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، هذا تفسير مقبول، وقال به بعض علماء أهل السنة (وإن كان الراجح التوقف فيه).

كيف يتعامل الصوفية مع الآية؟

يذكرون القول الذي قاله بعض أهل السنة ثم بعد ذلك يأتون بقول باطن:

{الٓمٓ} ألف معناها: البداءة، واللام: المعاش، الميم: الميعاد!!

طريقة هؤلاء هي ذكر قول يناسب قول علماء أهل السنة في الظاهر ثم يدرجون قولهم الباطني ضمن الأقوال على شكل (وقيل كذا أو قال بعض أهل العلم كذا) رغم أنه قول ليس له علاقة بالتفسير ولم يقل به أحد من المفسرين المعتمدين.

٣ـ **الإشارة عند أهل السنة والجماعة:** عند هؤلاء تكون الإشارة جليّة واضحة يمكن استنباطها من آية أخرى (هذا هو صنيع أهل السنة)؛ فلا بُد عند القول بأن هذا الكلام يحمل إشارة أن يكون له دليل عند أهل السنة في موضع آخر (آية، حديث) يستدل به العالم

على أنه إشارة من الله سبحانه، لكن أن يدّعي شخص أن هناك إشارة من الله بكلام لم يُرده فإن هذا يُعد تَقَوّلًا على الله بغير علم، ويعد أيضًا من الكبائر ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟﴾ الخطاب للجمع، ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ﴾ الخطاب للمفرد.

وهذا أبلغ من قول: (ولا تكفروا) لماذا؟ لأنه بهذا يُحذرهم من أن يستنوا سُنَّة الكفر بالنبي ﷺ وبما جاء به، فيحملون وزر من يأتي بعدهم ويصنع صنيعهم إلى يوم القيامة؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»**(١).

أصل سياق الكلام أن الخطاب للجمع (بني إسرائيل) فلماذا جاء بعد هذا الجمع بلفظة كافر ولم يقل كافرين؟

- جاء اللفظ مفردًا ولكن المعنى جمع (أول فريق) وهذا يأتي كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم] فقد جُمعت

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

القلوب بالرغم من أن المقصود هو كلٌّ من (عائشة، حفصة) فقط.

فأحيانًا يأتي الجمع ويقصد به المُثنى أو المفرد، وأحيانًا يأتي المفرد ويقصد به الجمع (وهذا ثابت في اللغة ويعلمه مَن هو على دراية بها).

وقد كان العرب أهل لغة، وبالرغم من ذلك لم يحاول أحد منهم أن يجادل ويدّعي أن هناك أخطاء في القرآن، ولو كان فيه شيء من هذا لأعلنوا ذلك وأذاعوه وشهّروا بالنبي ﷺ، فقد كان مبتغاهم الأول هو تكذيب القرآن! ولكنهم لم يستطيعوا لماذا؟ لأنهم أهل لغة ولو أراد أحدهم أن يدّعي أن هناك خطأ لرد عليه سامعوه وكذّبوا ادّعائه.

وهنا قد يطرح أهل الكتاب شُبهة تقول: كتابكم يقول:﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ويقول: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]، ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]، وهذا يعني أن القرآن يشهد لكتابنا بالصدق فلماذا تقولون الآن إن كتابنا (التوراة - الإنجيل) فيه تحريف؟ الجواب: نعم بالفعل وردت هذه الآيات في كتاب الله عز وجل، ولكن المقصود بالتصديق هو تصديق ما جاءت بها (التوراة) من وصف النبي ﷺ وما تبقى من صحيح التوراة فقط، والأدلة على ذلك كثيرة، وبالتالي لا يجوز الاستدلال بهذه الآيات على القول بصحة التوراة وكذا الإنجيل.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن التوراة لم تُحرَّف بالكلية، والإنجيل أيضًا، فهناك بعض التعاليم التي بقيت كما جاءت، ويُذكرُ هذا لأن الناس في هذا الشأن ما بين الإفراط والتفريط (فالبعض يقول إن كل نصوص الكتاب حُرِّفت) ولكن الحقيقة هي بقاء بعض التعاليم (بعض الأمور التي قد تكون مشتركة بيننا وبينهم كتحريم بعض الأشياء).

الخلاصة: أن المقصود بالتصديق هو: التصديق لما جاء فيها من وصف النبي ﷺ والإذعان له واتّباعه وأنه خاتم الأنبياء وسيأتي بكتاب هو خاتم الكتب السماوية وما تبقى من صحيحها (أي هذه الكتب)، أما بقية ما جاء في هذه الكتب وهو قدر كبير منها فقد قامت الأدلة والبراهين الصادقة الواضحة لتبين أنها قد حُرِّفت.

سؤال: بناء على ما سبق هل يُباح الكفر في درجات متأخرة عن الأول؟ فهل يكون الثاني أو الثالث أو حتى الرابع ممكنًا؟

الجواب: النهي هنا ليس المقصود به النهي عن أن يكونوا أول مَن يفعل ذلك، بل المقصود النهي على الإطلاق. يقول العلماء عن هذا: (المفهوم المعطل) والمقصود بذلك: أن يأتي ظاهر الآية فيه منع، ولكن ليس المقصود به المنع بذات المذكور بل المنع على الإجمال؛ مثال: قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران]؛ فهل معنى هذا أنه يمكن أكلها شرط أن لا تكون (أضعافًا)؟ لا يجوز، هذا

هو (المفهوم المعطل) لأن النهي ليس عن أكل الأضعاف، ولكن النهي عن أكل الربا بالكلية، ولكنه ذكر (أضعافًا) لبيان عظم الشأن.

{وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} ولا تشتروا: للجمع؛ أي: لا تبيعوا دينكم ثم تشتروا بثمنه عرضًا من عروض الدنيا (المكانة-الرياسة)، فقد كان لبني إسرائيل مكانة نظرًا لتفضيل الله إياهم على العالمين، ولهذا كانوا يحرصون كل الحرص للإبقاء على هذه المنزلة، قوم بهذه الصورة يكون من الصعب على أنفسهم أن ينقادوا فيُصبحوا أتباعًا بعدما كانوا متبوعين.

ملحوظة: العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وهذا يعني أن نزول الآية حتى لو كان لسبب خاص (فئة معينة أو مناسبة معينة) إلا أن اللفظ عام يشمل كل الأمة، وبالتالي فعلينا أن نحذر حتى لا يبع أحد دينه ليشتري أمرًا زائلًا من أمور الدنيا.

{وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ} للحصر؛ فالتقوى تكون لله سبحانه لا لغيره.

قوله تعالى: {وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾}.

هناك توجيهان للآية وهما صحيحان مقبولان لا تعارض بينهما، وهذا هو المقصود بقول علي رضي الله عنه: (فإن القرآن حمَّال أَوْجُه)، وبالرغم من ذلك ليس بين هذه الأوجه تعارض أو تضاد أو تفسير إشاري صوفي أو باطني، بل إن جميع الأوجه صحيحة

وتستقيم مع الآية.

١ـ **التوجيه الأول:** نهي عن أمرين:

أ- نهي أن يلبسوا الحق بالباطل.

ب- والنهي عن كتمان الحق.

فحمل الآية على الوجه الأول يعني: لا تلبسوا (لا: حرف نهي وجزم، تَلْبسُوا: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وتكتموا: مجزومة أيضًا بما جزمت به تلبسوا وذلك عطفًا عليها).

٢ـ **التوجيه الثاني:** النهي عن أن يلبسوا الحق بالباطل، أما ما جاء بعد ذلك (تكتموا) فهو خبر، وهذا كقول الشاعر:

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتيَ مِثلَهُ   عارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلتَ عَظيمُ

- يخاطب الرب تبارك وتعالى بني إسرائيل: إنكم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق بالرغم من علمكم بذلك، ولهذا فقد وجه إليهم توبيخًا شديدًا، ففرقٌ كبير بين مَن يقترف الذنب بجهل ومَن يفعله وهو على علم.

{وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ} فما هو الحق؟ الحق هو إيمانهم ببعض الأشياء التي ورد ذكرها في التوراة، أما الباطل فهو: إخفاء ما ورد فيها من صفات النبي ﷺ والأمر باتباعه.

{وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ} هذا ضلال، {وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ} وهذا إضلال، لقد جمعوا بين الضلال والإضلال، فالضلال تمثل في الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر بالرغم من أن لديهم يقينًا أن هذا الكتاب جاء من عند الله، وكتمان الحق إضلال لأنهم يُضلون غيرهم الذين سيأتون بعدهم وينتهجون نهجهم وبهذا يكونون قد ضَلّوا وأضَلّوا.

تنبيه: هذه الصفة المذمومة تلبَّس بها الكثير من المسلمين الآن فهم يجمعون بين الإيمان ببعض الأمور والجحود ببعضها الآخر، هذا وإن لم يقولوه صراحةً إلا أن أفعالهم وأقوالهم وأساليب حياتهم تدل على هذا الجحود (صفات بني إسرائيل).

آثار لُطف الله بعباده:

لقد كان من آثار لطف الله سبحانه بالعباد أنه أورد في كتابه آيات (الزجر- المنع من تعدي حدوده) فلماذا يُعد هذا لطفًا؟ قال تعالى:{ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ}، { وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ}، { وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ} ألا يُعد لطفًا من الحق سبحانه بعباده أن يسبق الحساب بالتحذير والإعذار والإنذار والبيان والإرشاد والتوضيح وبيان عاقبة الأمر، فلا يجد العبد نفسه يوم القيامة مُعذَّبًا بما كُتِب في اللوح المحفوظ وبسابق علم الله فيه، ولكن يسبق هذا اليوم إرسال الرسل وإنزال الكتب والتحذير الشديد من الوقوع في أي فعل شنيع يتعدى به الإنسان حدوده في الحرام والحلال.

لقد ورد التحذير والمنع من تعدي حدود الله في القرآن لنجاة العباد لأن المخاطبين بالقرآن أنواع وأصناف:

١- صنف يستجيب لأوامر الله ويمتنع بمجرد السماع.

٢- صنف آخر قاسي القلب شديد (فيه غلظة) لا يُجدي معه الكلام اللين، هذا الصنف تردعه الأوامر الزاجرة والنواهي لأنها تأتيه كالقارعة فتجعله يرتجف ويهتز فتزجره وتمنعه، ولكن هذا الصنف القاسي المُتلبس بالفجور له صورتان:

أ- إما النفور عند سماع الموعظة وهو لا يستجيب بالكلية، قال تعالى: {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١} [المدثر].

ب- وإما البُعد بُعْد المتكبر وهذا يكون بَعْد التفكر والتأمل، قال تعالى: {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣} [المدثر].

وهذا النوع لم يترك الحق لأنه ليس حقًّا ولكنه تركه استكبارًا واستعلاءً فبعد أن تفكر أدبر واستكبر.

قال ربنا سبحانه: {سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٤٦} [الأعراف]؛ هذه الآية من أكبر الآيات الزاجرة لبني إسرائيل ومَن تبعهم (عموم اللفظ وخصوص السبب) فإن كان السبب في الآية خاصًّا ببني إسرائيل إلا أن اللفظ

عام يشمل الجميع.

سؤال: لماذا يصرف الله العبد عن الحق إذا كان يبتغيه؟

لأنه لم يرد الحق، لقد سبق له أن تفكّر وتأمّل وعلم، فلم يعجبه المنهج، فلم يستجب وأبى واستكبر، هذا الإعراض العظيم من هؤلاء كان له مقابل من الله عز وجل ألا وهو صرف قلوبهم عن رؤية ومعرفة الحق، لقد صُرِف القلب انتهاءً لا ابتداءً؛ لأن المعرض لم يرد الحق ابتداءً فصُرِف عنه انتهاءً (وهذه الجزئية تمسّ الإيمان بالقدر وعلى السامع أن ينأى بنفسه عن فكر الجبرية).

٣- صنف آخر ليس كسابقه في الغِلظة والبعد عن السمع والطاعة ولكن لديه شيء من الخلط (تردد- خلل) فيستقيم على الأمر تارة ويقع في الذنب تارة أخرى، هذا الصنف يردعه النهي؛ لأن العبد إذا كان لديه شيء من الخير وأتاه النهي من الخالق فإنه يقف ليتأمل في النواهي والزواجر فإذا ما فعل ذلك أصاب الخوف قلبه ورجع وتاب وأناب.

- عندما يجيء النهي من الله (الملك الحق، الواحد الأحد، الكبير المتعال، ملك الملوك، عزيز ذو انتقام، بطشه شديد، عذابه عظيم) فعلى القلوب أن تعي وتفهم أن النهي إذا جاء منه سبحانه فلا يجوز ولا يصح تعدي الحدود بل عليها أن تلتزم وتذعن ولا تستهين بالأمر والنهي.

سؤال: ما هو السبب الذي أدى إلى وصول بني إسرائيل إلى هذه الدرجة من الجدال في الأمر والنهي؟

السبب جاء في قوله تعالى: {وَلَا تَشْتَرُواْ بِآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} هؤلاء لم يكتفوا من الدنيا بالكفاف، فأي شيء يزيد عن الكفاف يفتن صاحبه، ولهذا كان أتباع الرسل وأكثر العلماء والدعاة على مدار العصور فقراء.

- فمَن يرد الرفعة في دين الله فعليه بالتركيز والتجرد والجهد وهذا يتنافى مع الانغماس في الدنيا.

وقفة مع صنيع سلفنا الصالح:

سعيد بن المُسيَّب (من علماء السلف الأكابر) تقدم لخطبة ابنته اثنان من الرجال، أحدهما أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك (ملك- نسب- يصلي ويصوم)، أما الرجل الآخر فهو طالب علم فقير.. فماذا فعل الأب العالم؟ قام بتزويجها لهذا الطالب الذي لم يكن يملك سوى دينارين.

الفرق بيننا وبين هؤلاء هو أنهم فهموا هذه النصوص فهمًا جيدًا لدرجة أنهم تلبسّوا بها (يُمارسون أوامر الله في كل صغيرة وكبيرة)، أما نحن فإننا حافظون لهذه النصوص فقط إلا ما رحم ربي.

- إذًا أي شيء يزيد عن الكفاف يُوقع صاحبه في محاذير كثيرة،

وأي شخص يسعى لينال من الدنيا لن يكون أهلًا للاصطفاء من الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

سياق الكلام مع بني إسرائيل بدأ بالتذكير بالنعم ومنها تفضيله سبحانه لهم على العالمين، ثم أمرهم بالرهبة ثم التقوى واتباع النبي ﷺ وما جاء به، ولكن ما أمر به هؤلاء كان صعبًا عليهم وربنا يعلم هذا، ولذلك كان لطفًا منه سبحانه بهم أن يُذَكّرهم بالنعم حتى يستجيبوا.

- ثم أمرهم بالإيمان بالنبي ﷺ وأن يكونوا أتباعًا له (الأمر شديد عليهم)، فَيَسَّر اللطيف المنان عليهم الأمر فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: إقامة الصلاة أي أن يصلي العبد كما أمره ربه في الظاهر والباطن (إقامة شعائرها) وهي من أعظم الشعائر؛ لأنها تجمع بين الأعمال القلبية والبدنية؛ فالظاهرة (طهارة، وقوف بين يدي الله، تلاوة)، والباطنة (خشوع، خضوع، حضور القلب، طهارة النفس وسلامتها) وهذا هو حق الله.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذا هو حق المخلوق.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ الأمر الوارد بالركوع في الآية يحمل الدليل على أنهم أُمروا أن يصلوا صلاة المسلمين؛ لأن صلاة اليهود

ليس فيها ركوع ولا سجود، كما أن صلاتهم لن تنفعهم.

-والآية تتضمن الأمر بصلاة الجماعة، فقد استدل العلماء بهذه الآية على فرضية صلاة الجماعة {وَٱرۡكَعُواْ} هذا أمر وأصل الأمر للوجوب إلا أن يأتي صارف (وهو غير موجود).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**صَلَاةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»[١]، وفي رواية: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ**»[٢].

- وهذه الروايات لا تتضمن الخروج من الفرضية إلى السنية ولكنها تحمل بيان فضل الجماعة.

-وفي الآية أيضًا بيان أن الركوع ركن في الصلاة لأن التعبير عن عبادة معينة بجزءٍ ما منها يعني أنه ركنٌ فيها.

- خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل يتضمن أيضًا: إفهام بني إسرائيل؛ فعليهم أن يستدرجوا الأخطاء التي صدرت منهم ويرجعوا إلى ما أمرهم الله به.

قوله تعالى: { أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾}.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥)، أخرجه مسلم (٦٥٠).
(٢) أخرجه مسلم (٦٤٩).

{أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ} البر كلمة شاملة لكل أنواع الطاعات، قد تأتي مطلقة وقد تأتي مقيدة، فإذا جاءت مطلقة فإنها تشمل كل أنواع الطاعات، أما إذا جاءت مقيدة فإنها تكون مقيدة بما قيدت به.

- فيا أحبار اليهود وعلمائهم ويا مَن تحملون التوراة هل تأمرون الناس بالخير والبر والطاعة وتنسون أنفسكم فتحرمونها من هذا الخير الذي سيعود عليها إن هي استسلمت للأمر والنهي واستجابت لهما.

وعلى السامع أن ينتبه: لأن العقاب الذي سيلحق بكل مَن أمر الناس بالمعروف ولم يأته سيكون شديدًا جدًّا، وكذا مَن ينهى عن منكر ثم يأتيه، فاحذروا أن تتلبسوا بهذه الأفعال.

- عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قِيلَ لِأُسَامَةَ: لَوْ أَتَيْتَ فُلاَنًا فَكَلَّمْتَهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ، إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلاَ أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ**

وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»[(١)].

سؤال: شخص مُتلبس ببعض الذنوب جلس في مكان فيه بعض المنكرات ماذا عليه أن يفعل؟ هل يسكت حتى لا ينطبق عليه الحديث؟

المسألة تحتاج إلى تفصيل:

الشخص الذي ينهى الناس عن المنكر رياء وسمعة وهو يأتيه مصرًّا عليه داخلٌ في هذا الحديث.

أما مَن ينهى عن منكر ويأتيه ولكنه يُجاهد نفسه ويُحاول معها لعلمه أنه يرتكب ذنبًا، هذا سينال جزءًا من الذنب، ومعنى ذلك أنه ليس مُساويًا لسابقه في الدرجة.. لماذا؟ لأنه يُجاهد نفسه لتكف عن فعل هذا الذنب الذي يقع فيه ضعفًا وليس إصرارًا، وكما سبق القول أنه لن ينطبق عليه الحديث ولكن عليه أن يحذر.

سؤال آخر: لماذا جاءت هذه التفرقة؟

يقول العلماء: لأن واجب المسلم أمران:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هذا واجب).

٢- فعل ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه (وهذا واجب ثانٍ).

والكمال يكون في الإتيان بهما معًا، فإذا لم يفعل أحدهما فقد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧).

أسقطه.

جزئية أخرى: إنسان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه غير قادر على الإتيان بكل المعروف والامتناع عن كل المنكر؛ هذا الإنسان به خلل وعلى خطر عظيم، وعليه أن ينتبه لأنه يمكن أن يموت على هذه الحال ولا نعلم كيف سيكون الحساب.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أصل العقل المنع، ومنها عقال البعير، وسمي بذلك لأنه يمنعه من الجموح والهرب، ويقال: العقل في الدية، وهذا يعني أنها تمنع ولي المقتول من قتل الجاني لأنه أخذ الدية.

والاستفهام إنكار وتوبيخ وتقريع لهؤلاء، فهذا تقريع شديد وتوبيخ عظيم موجه للعلماء والدعاة وكل مَن وقف في موقف مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو لا يعمل بما يحث الناس عليه، هذه أفعال فظيعة وخصال شنيعة تتنافى مع أحوال المؤمنين، وبالتالي لا ينبغي أن يتصف بها إنسان عاقل ولذلك خُتِمَت الآية {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أليس لديكم عقل يمنعكم من الضلال ويرشدكم إلى الحق، ألم تمر بكم آية تزجركم وتمنعكم من هذا الجموح الباطل.

وجملة {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} لا بُد أن يضعها كل عبد أمام عينيه، فكلما جمحت به نفسه فاشتهت الدنيا واشتدت هذه الشهوة والرغبة فحملته على طلب العلو الدنيوي فعليه أن يزجرها ويُذكرها بقوله سبحانه {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا العقل

والحكمة والفهم والقوة على العمل بما علمنا؛ لأن العبد عاجز عن تنفيذ أي عمل من غير عون الله ومدده.

يقول الشاعر:

وَإِنَّما حَمَّلَ التَوراةَ قارِئَها كَسبُ الفَوائِدِ لا حُبُّ التِلاواتِ

فعلى المرء أن يحذر من أن يكون همه في الدين هو كسب الفوائد أيًّا كانت لأن هذا هو الذي أوصل بني إسرائيل للخسران المبين، لقد كان هدفهم هو نيل الجاه والرياسة والمكانة.

انتبهوا: لأن كسب الفوائد (طلب العلو والصدارة والسيطرة وشهوة العلم) قد يحمل مُبْتَغِيها على تحصيل العلم الشرعي من هنا وهناك، فتضيع أنفاس عمره هباءً، فعلينا أن نسعى للوصول للأعمال العظيمة بالقلوب السليمة وعند الموت يقف الواحد منَّا بين يدي ربه وهو يأمل أن لا يكون له مثيل من أهل زمانه في هذا الموقف (فكلٌّ سيحاسب حسب الزمان الذي جاء فيه).

قوله تعالى: {وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾}.

إن الملك الحق الرحمن الرحيم الودود علم أن الأمر صعبٌ عليهم فأرشدهم إلى كيفية الوصول، فمع كل هذه العظمة والمن والكرم والعطاء والفضل والحلم لم يُعاجلهم بالعقوبة وإنزال الرجز والعذاب، بل أعطاهم الوسيلة والحل وأرشدهم إلى سبيل النجاة؛

النجاة من الرغبة في كسب الفوائد يكون بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ لأن الصراع الدائر بين العبد ونفسه شديد، وغالبًا ما يخرج العبد منه مهزومًا وخسرانًا، ومهما حاول أن ينتصر على نفسه فإنه قد يُغلب، وحلُّ هذا الأمر قد بيَّنَه ربُّ العالمين؛ فَبَعد البيان والإرشاد أمرهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة.

ألم يقل نوح عليه السلام: {فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠} [القمر] هذا قول نوح عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، النبي الشديد القوي في إيمانه وفي يقينه يفوض أمره لربه ويتركه له لينتصر هو سبحانه.

- فما الذي يُضيرنا إذا ما اشتكينا أنفسنا لربنا {مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ} فالنفس أمارة، وكلما حاول العبد معها هزمته وأوقعته فليشتكِ إلى ربه كي ينتصر عليها، فأرشد سبحانه عباده إلى سبيل النصر وهو الاستعانة بالصبر والصلاة.

طريق النجاة في الصلاة ولكن: «**كما رأيتموني أصلي**»؛ عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الحُوَيْرِثِ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا، فَقَالَ: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ**

لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»[(١)].

{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ} أي: المخبتين المتواضعين، مَن خشعت جوارحهم وخضعت قلوبهم لله عز وجل فتحققت كل المعاني في الصلاة.

ولكن قبل الاستعانة بالصلاة كان هناك استعانة بشيء آخر وهو الصبر، فقدم الصبر على الصلاة.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «**مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ**»[(٢)].

مَنْ عَرفَ شَرَفَ ما يطلب هَانَ عليه ما يَبْذل، ومَنْ أَيْقَنَ بالخُلْف جَادَ بِالْعَطِيَّةِ.

وهذا يعني أن الإنسان إذا عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل، فالمطلوب هو الجنة والدرجات العلا فيها، والأعظم من هذا وذاك رؤية ملك الملوك، فإذا كان المطلب عاليًا جدًّا هان المبذول في سبيله جدًّا جدًّا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٥٣).

- عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا: أَنَّهُ نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ قُثَم، وَهُوَ فِي سَفر، فَاسْتَرْجع ثمَّ تَنَحَّى عَن الطَّرِيق فَأَنَاخَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فيهمَا الْجُلُوس [١].

هؤلاء الصحابة العِظام كانوا متلبسين بالأوامر مُتشبعين بها يُمارسونها في كل شأن من شئونهم، فعندما جاءه الخبر استرجع (أمر الله) ثم صلى (أمر رسول الله ﷺ)، لقد جمع بين التوجيه الإلهي والتوجيه النبوي ففاز بالحُسْنَيَيْن.

- قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِي الله عَنْهُ: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**» [٢].

والصلاة فيها: (ستر العورة- صرف الوجه إلى الكعبة- إظهار الخشوع بالجوارح- إخلاص النية بالقلب- مجاهدة الشيطان- مناجاة الحق تبارك وتعالى- قراءة القرآن كلام الله- التكلم بالشهادتين- الصلاة على النبي ﷺ).

- كل هذه المعاني اجتمعت في الصلاة، والرب سبحانه أمرهم بأمرين (الصبر والصلاة) ليستعينوا بهما على ترك كسب الفوائد.

وفي قوله ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ **هل المقصود بها الصلاة أم الاستعانة؟**

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري.
(٢) مسند أحمد (٢٣٢٩٩).

١ـ قال فريق من أهل العلم: إن المقصود هو الاستعانة؛ لأن الاستعانة بالله ليست بالأمر السهل.

ـ فالجميع يعلم فضل الاستعانة، ولكن الاستعانة على الوجه الصحيح التبرؤ من الحول والقوة، وصدق القلب في الاعتماد على الله بالتوكل، والعلم بأن التوفيق في العمل لن يكون إلا بإذن الله، فهذا ليس سهلًا فهو يحتاج إلى جهاد وتدريب للقلب على الاستعانة.

٢ـ فريق آخر قال: إن المقصود الصلاة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾.

ـ إذًا إجابة السؤال فيها نزاع بين أهل العلم، والأقوال كلها محتملة، والقرآن حمَّال أوجه، فقد يكون المقصود الصلاة وقد يكون المقصود الاستعانة.

ومن نتائج الاستعانة بالصلاة:

ـالانتصار على النفس والهوى لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

ـفالصلاة تنهى عن ما لا يليق بالعبد المسلم، فلا يليق بمسلم أن يعصي ربه، ولا يليق بمسلم أن يعلم مرض قلبه ولا يبادر بالعلاج.

ـفإذا أقمت الصلاة كما أمرك الله عز وجل فإن إقامتها سوف تمنعك من هذه الموبقات والمهلكات التي تهلكك في الدنيا قبل الآخرة وتعينك في الانتصار على النفس.

-الصلاة شعيرة عظيمة ضيَّعها الكثير من المسلمين، إما بالترك وإما بعدم الأداء الواجب {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ} الكبيرة إما إنها عائدة على الاستعانة أو الصلاة، وأكثر العلماء أنها عائدة على (الصلاة)؛ فهي كبيرة لكن ليست على (الخاشعين) لأن الخاشع يحب الصلاة؛ قال النبي ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من دُنْياكمُ النِّساءُ والطِّيبُ وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاة**»[1].

وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ قام إلى الصلاة؛ فهي الراحة وقرة العين.

ومن نتائج الاستعانة بالصلاة أيضًا بسط الرزق فإذا صليت صلاة صحيحة وأمرت أهل بيتك بالصلاة واصطبرت عليها يبسط الله رزقك؛ قال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾} [طه].

واصطبر عليها: أي على تأديتها بخشوع كما يحب ربنا ويرضى حتى نحصِّل ثمرتها.

والرزق رزقان: جليّ وخفيّ، والصلاة تزيد كلًّا منهما.

فلماذا علَّق الله عز وجل الصلاة بهذه الأمور العظيمة؟!

قال العلماء: إذا أدى المسلم الصلاة بخشوع القلب بين يدي الله

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، وأحمد (١٤٠٦٩) بإسناد صحيح.

تبارك وتعالى سيصل لأعظم شيء وهو (الزهد في الدنيا)، وهذا يزيد العبد قربًا إلى الله عز وجل وحبًّا له، والزهد محله القلب وليس الظاهر.

ومن نتائج الخشوع في الصلاة:

-**مرحلة الصديقية**.. وهي الصبر على ترك الرئاسة وترك التفرد وحب الأنا.

ونجد ظاهر الآيات أن الله تعالى يرشد بني إسرائيل لترك الأمور الدنيوية، وألا يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وذَكَّرهم بالنعم، ونهاهم عن بيع دينهم، ولمّا أمرهم بتلك الأمور وجههم إلى الحل وهو (الخشوع في الصلاة)؛ لأن كثرة النعم، وتفضيلهم على عالمي زمانهم، ووجود الأنبياء بينهم ملأت قلوبهم بالغرور وحب الاستحواذ والرئاسة، فوجههم للحل وهو الاستعانة بالصبر والخشوع في الصلاة.

- نور في القلب، زكاة في النفس، نور وبصيرة، إرشاد من الله ومعيته.

-**حبس النفس وتخليصها من:** (عبادة الهوى، وإشراك الشيطان)، وحضها على التوجه لعبادة الله الواحد الأحد.

ومَن صبر على دناءة الدنيا ومكاره النفس وعلى الأمور التي تكرهها نفسه؛ أزال الله تعالى عنه كدر الدنيا وأنار قلبه وعقله

بأشرف المعارف والعلوم ألا وهو العلم عن الله.

سؤال: أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟

خلاف بين العلماء؛ فهناك مَن قال: إن للصبر فضيلة على الشكر، واستدل بقوله تعالى: { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾} [المؤمنون]، وقوله تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾} [البقرة] وليس هناك أعظم

من معية الله، وقوله تعالى:{ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ ﴿٤٨﴾} [الطور].

وفي قول الله تعالى عند نهاية قول دعاء الاسترجاع {ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾} [البقرة] وعد الصابرين بثلاثة أشياء عظيمة:

١ـ صلاة من الله، وهي: الثناء في الملأ الأعلى على عباده.

٢ـ رحمة من الله، وهي إيصال المنافع إلى العبد بكل طريق ودفع المضار عنه.

٣ـ الهداية من الله.

وكل هذه الأمور العظيمة وردت في الصبر ولم ترد في الشكر.

وقد أمر الله تعالى أولي العزم من الرسل بالصبر في قوله

تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

- كل هذه أدلة على أن للصبر فضيلة على الشكر.. وللعلماء في هذا آراء، لكن أردت فقط توضيح فضل الصبر.

سؤال: كيف نصل للكمال الإنساني من خلال قصة بني إسرائيل؟

الكمال الإنساني في الأقوال والأفعال والعبادات مع الله عز وجل يكون بثلاثة أشياء:

١- بعلم نافع يوصل إلى الله وليس علم فضول ولا حظّ نفس.

٢- عمل يعمله العبد.

٣- حال يترتب عليه العلم والعمل؛ ويكون ذلك بمراقبة أحوال النفس

وهي الأساس؛ فعلى قدر علمك وعملك تصل لحال معين.

فليراجع المرء حساباته في العلم والعمل، فمن الناس مَن يضل الطريق في العلم فلا يسلك العلم الصحيح، ومنهم مَن يتعلّم العلم الصحيح؛ ولكنه يضل الطريق في العمل والتطبيق، ومنهم من يكون الخلل لديه في الاثنين معًا.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

الظن لا يصح في أمور الاعتقاد؛ فأمور الاعتقاد لا بد فيها من اليقين، أما الأمور الظنية ربما تكون في المسائل الفقهية (ترجيح عالِم لمسألة مثلًا).

فكيف في هذه الآية جاءت كلمة (يظنون) مع أمر عقدي ألا وهو البعث؟

قال بعض العلماء: العرب تستعمل لفظ (الظن) في الأمور اليقينية والأمور الظنية (الشك).

أمثلة لـ (الظن) بمعنى الشك:

- قال تعالى:{ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦} [يونس].

- وقوله تعالى:{ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨} [البقرة] فالظن هنا بمعنى: الشك.

أما في قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ} الظن هنا بمعنى اليقين؛ فعلى قدر اليقين برجوعك إلى ربك يكون علو الهمة؛ فانظر إلى أحوالك وأعمالك تعرف ميزان قوة يقينك.

قوله تعالى: { يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧}.

يذكِّرهم تبارك وتعالى بالنعم الكثيرة، والمقصود بها القيام بالشكر وليس تعداد النعم.

قال رسول الله ﷺ: «**وإنَّ اللَّهَ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ**»[(١)]، فقال تعالى للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة]، وقال تعالى للرسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون].

فأمر المؤمنين بالشكر (اشكروا)، وأمر المرسلين بالعمل (اعملوا)، والعمل بإزاء الشكر.

فبجمع الآيات نجد أنه لمّا أمر الله تعالى المرسلين بالعمل الصالح، والمؤمنين بالشكر، عُلم أن عمل الشكر هو العمل الصالح؛ فقالها للمرسلين ومِن الأَوْلى أن يأتِيَ بها المؤمنون المتقون.

تنبيه: ذِكر النعمة القيام بشكرها، وشكرها يكون بالعمل الصالح؛ فمثلًا: رجل أتاه الله مالًا، لا يصح أن يحمد الله بلسانه فقط وهو لا يخرج حق الله في هذا المال من زكاة أو مساعدة للمحتاج أو غيره؛ فمثل هذا قد ذكر نعمة الله فقط ولكن لم يؤدِ شكرها.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في الآية المتشابهة الأولى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٥).

بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾} ذكر النعم، أما هنا في هذه الآية لم يذكر تبارك وتعالى النِّعَم.. فلماذا؟ لأن نعمة رِفْعَة الجاه والمكانة أعظم النعم والعطايا على الإطلاق بل أعظم من نعمة العطاء المادي أو المتاع البدني! ومن المكانة لبني إسرائيل أن جُعل الأنبياء فيهم، ولذلك الله عز وجل لمّا أراد أن يثني على أهل الكفر بالشر أخَّر ذِكر المنزلة، ولمّا أراد أن يثني على أهل الخير بالخير قدَّم ذِكر المنزلة؛ قال تعالى في شأن الكفار:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾} [البينة]. أَخَّر {أولئك هم شر البرية} لأنها شر. وفي شأن المؤمنين قال تعالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾} [البينة]. قدَّم المنزلة {أولئك هم خير البرية} على النعيم!

ولذلك قلوب الصالحين المقربين المتقين تهفو إلى رضا الله تعالى وأن يكون لها منزلة عنده، بينما قلوب المأمولين (عامة المؤمنين) تهفو إلى الجنة (همّه فقط الجنة).

وقفة:

في هذه الآية بدأت بـ {ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ} المفرد إذا أُضيف يَعُمّ؛ أي: اذكروا النعم، وذيَّل الآية بقوله تعالى: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ} والتفضيل هنا: المكانة والرفعة. وهنا عطف الخاص على

العام ليبيِّن أهمية الشيء، وأن التفضيل من النعم، بل أعظم من كل النعم؛ أي لتبيين وتأكيد أهمية (التفضيل).

سؤال: كيف الجمع بين قوله تعالى: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ}، وقوله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾} [آل عمران]؟

قيل: المراد بـ (العالمين) هنا: عالمو زمانهم، وليس تفضيلًا مطلقًا، والدليل:

١ـ الأحاديث المصرَّحة في قوله تعالى{ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّكم تُتمُّونَ سَبعينَ أمَّةً، أنتُمْ خَيرُها وأَكْرمُها علَى اللَّه**»[(١)]، وهذا يدل على أن المسلمين خير أمة في كل هذه الأمم، فخير الأمم وأكرمها على الله هي أمة محمد ﷺ.

٢ـ قوله تعالى في شأن أهل الكتاب: { مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾} [المائدة] دلَّ على أن الأعلى منهم (أمة مقتصِدَة)، والكثير منهم (ساء ما يعملون).

أما في شأن المسلمين قال تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾} [فاطر]. فالسابق بالخيرات في أمة محمد ﷺ غير موجود في الأمم السابقة.

---

(١) سنن الترمذي (٣٠٠١).

سؤال: أين النعمة التي أنعمها الله تعالى على بني إسرائيل؛ فهم حرَّفوا التوراة ومخلَّدون في النار، فكيف ذلك مع قوله تعالى {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}؟ **وقد قال تعالى أيضًا** {وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩} [النساء] **فالذين أطاعوا الله والرسول هم من أنعم الله عليهم مع الصديقين والشهداء والصالحين، وبنو إسرائيل لم تطع النبي ﷺ وشاقّوه؛ فخرجوا من هذه الآية. وقال تعالى:** {وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ ١٥٠} [البقرة]، **وآيات كثيرة أخرى تدل على أن النعمة للمؤمنين، فكيف يكون بنو إسرائيل من الكافرين المخلدين في النار بالرغم من قوله تعالى:** {ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ}؟

الجواب: يجب التمييز بين مطلق النعمة، والنعمة المطلقة:

١ـ **مطلق النعمة:** الخير يصل للجميع (مسلم وكافر ومنافق) في الدنيا.

٢ـ **النعمة المطلقة:** النعم الواصلة للمؤمنين فقط في الآخرة لا يشاركهم فيها كافر؛ والتي منها قوله تعالى {وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩} [النساء].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾.

بعدما ذكّرهم الله بالنِّعَم حذَّرهم؛ فلماذا حذّرهم؟ ولماذا خصّ (النفس) بالذكر؟ لأن اليهود كانت تزعم أن آباءهم من الأنبياء، وما لهم من المكانة السابقة سيشفع لهم يوم القيامة من العذاب فحذّرهم الله عز وجل.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ هنا إضمار وهو (واتقوا عذاب يومٍ) فيه من التوبيخ والعذاب المهين.

﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ يجزي غير يُجزئ. يَجزي معناها: يقضي، أما يُجزئ فمعناها: يكفيه.

فالمعنى هنا في الآية: أي ليس هناك نفس ستقضي وتدفع عنك مطلقًا، لا الأهل ولا الأنبياء ينفعون أحدًا؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر].

﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ شرط الشفاعة: أن يرضى الله تعالى ويأذن.

والله عز وجل لا يرضى عن الكفار، ولن يأذن بشفاعة شافع لكافر، باستثناء شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب لمساعدته للمسلمين؛ لقوله ﷺ: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفاعَتي يَومَ القِيامَةِ، فيُجْعَلُ في**

ضَحْضاحٍ مِن نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي منه دِمَاغُهُ»[١]. غير ذلك ليس هناك أي شفاعة في الكفار.

{وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} العَدل هو الفداء، والعدل في كلام العرب على وجهين:

١ـ إما العَدل (بالفتح) وهو فداء شيء مقابل شيء ليس من جنسه؛ إنسان يفتدي نفسه يوم القيامة بقراب الأرض ذهبًا؛ فلا يُقبل منه.

٢ـ أو العِدل (بالكسر) وهو فداء شيء مقابل شيء من جنسه.

ومن العلماء من قال: إن العَدل والعِدل بمعنى واحد.

{وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} أي يمتنعون من العذاب.

ـ إذًا نفى الله عنهم أسباب النجاة الثلاثة:

١ـ الشفاعة.

٢ـ والعدل (الفداء).

٣ـ والنصر (فلا نصر إلا من عند الله).

عطف التحذير {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} على التذكير {ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ}

(١) صحيح مسلم (٢١٠).

في هذه الآية حتى يبيّن لهم أنهم في أزمة عظيمة لا ينجون منها إلا باتباع خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

وقفة:

منشأ الغرور والكبر عند بني إسرائيل أن كان فيهم أولو العزم من الرسل وأنبياء كُثر لم يأتوا في أقوام أُخر، وأيضًا عصوا ربهم مرارًا ومع ذلك عفا الله عنهم وأكرمهم؛ إذًا منشأ غرورهم: كثرة النعم، وكثرة الرحمة والعفو، وعدم المؤاخذة، وحتى إذا كان هناك مؤاخذة تأتي بعدها رحمة.

ومثل هذا قد يحدث لبعض طلاب العلم، فمع ما يقدمه لدين الله عز وجل فقد يظن أن له مكانة عند الله، وهذا الظن لا إشكال فيه، ولكن الإشكال والخطأ الأكبر أن يؤدي هذا إلى مساحة من التقصير أو التفريط، ثم عدم المحاسبة والمراقبة لوجود أعمال صالحة كثيرة!! فهذا من الغرور الذي قد يؤدي إلى الانتكاس فنتساءل من أين جاء هذا الانتكاس ومِن أي الأبواب دخل؟!!

فينبغي الحذر من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، وإنما علامة العلم النافع والعمل المقبول أن يزداد العبد انكسارًا بين يدي الله عز وجل.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ
سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ
فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ
ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ
يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ
تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا
عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

{وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم} تكرار سياق (وإذ)؛ واو العطف مع عدم ذكر العامل في إذ؛ لأنه في سياق بيان تعداد النعم وتكرار الأقاصيص (وإذ نجيناكم، وإذ فرقنا، وإذ واعدنا،...).

{آل} لها ثلاثة معانٍ:

١- تُطلق على (الرجل العظيم) الذي له مكانة؛ كما جاء في سياق الحديث: «**لقد أُوتِيتَ مِزْمارًا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»(١) أي: صوت حسن، والمعروف أن (داوود) صاحب الصوت الحسن وليس (آل داود).

٢- تُطلق على (الأتباع): قال تعالى:{ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾} [غافر] أي: فرعون وأتباعه.

٣- وتأتي بمعنى (أهل): أهل بيت الرجل؛ زوجاته وبناته؛ قال تعالى: { إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾} [الأحزاب] أهل بيت الرسول ﷺ؛ زوجاته وأبناؤه.

{يَسُومُونَكُمۡ} السَّوْم: الذهاب في طلب الشيء. وهو لفظ لمعنى مركب من (الذهاب والطلب) كقول سَمَتْ الإبل: أي ذَهَبَتْ، جَرَتْ، ومنها الإبل السائمة، وقد يأتي السَّوْم بمعنى الطلب؛ سُمْتُه كذا: طلبْتُ منه كذا، والسَّوْم في الآية بمعنى ذَوْق العذاب أو إدامة العذاب، يسومونكم: يذيقونكم أو يديمون العذاب.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم(٧٩٣).

{سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ} السوء: جنس العذاب. سوء العذاب: المراد جنس العذاب السيئ من: الاستعباد، والاستعمال في الأعمال الشاقة، والإهانة،...وكل أنواع العذاب كان فرعون وقومه يسومون بني إسرائيل هذا السوء من العذاب.

وقفة:

- في قوله تعالى في سورة الأعراف { وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾} هاتان الآيتان في (البقرة، والأعراف) من المتشابهات، سنجد كلمة (يذبحون) في البقرة، وكلمة (يقتلون) في الأعراف ليس بهما واو للعطف لماذا؟ قال العلماء: لأن جملة (يذبِّحون) في البقرة، و(يقَتِّلون) في الأعراف (بدل اشتمال) من جملة (يسومونكم سوء العذاب) فلم يذكر واو العطف.

أما في قوله تعالى في سورة إبراهيم { إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾} [إبراهيم] نجد هنا قد ذُكرت (واو العطف) لأنه في مقام تعداد النعم {ويذبِّحون} {ويستحيون}.

إذًا في البقرة والأعراف أسلوب، وفي إبراهيم أسلوب آخر،

وهذا إن دلَّ فإنه يدل على براعة البيان والكلام، وحُسن التفنن في إعادة القصة بأسلوب مختلف.

في الأولى (البقرة والأعراف) بدل اشتمال عن جملة يسومونكم.

وفي الثانية (إبراهيم) سياق الكلام فيه تعداد للنعم (ويذبّحون، ويستحيون، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) واو العطف.. حتى يبيِّن تكرار النعم؛ فكُررت بأسلوب مختلف في غاية البراعة والجزالة والعظمة.

سقطات التفسير الإشاري الصوفي:

قيل إنه ذُكر لفظ (يذبّحون) في سورة البقرة، لأن البقرة تُذبح!!

أما في الأعراف لم تُذكر يذبحون وقيل يقطعون!!

وماذا عن الموضع في سورة إبراهيم (ويذّبحون)؟!!

فهذا ضلال وسلب للعقول!!

{ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ } لما بيّن الله المصائب والبلاء الذي كان ينزل على بني إسرائيل، ذكر منه استحياء النساء؛ يقول تعالى:{ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾} [الشورى] إذًا النساء هبة! لماذا ذكرها الله تعالى في تعداد المصائب والبلاء الذي نزل بهم؟

المرأة هي سبب في وجود البشرية كلها وبالرغم أنها هبة ونعمة

إلا أنه إذا فُعِل بها الفاحشة واستعملت في الفواحش، وذُلتْ وأُهينت؛ فتصبح حينئذ عارًا وعذابًا شديدًا.

والخوف على الذرية ليس نقصًا أو به شيء، وأشار القرآن إلى هذا المعنى {وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩} [النساء].

{ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } كلمة البلاء قد تأتي بمعنى الخير وقد تأتي بمعنى الشر؛ قال تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۝٣٥} [الأنبياء] فهل المقصود بالبلاء العظيم هنا هو(النِّعَم) أي أن الله نجاهم من آل فرعون ومن ذبح الأبناء واستحياء النساء وأن هذه كلها نعم من الله على بني إسرائيل؟ أم أن هذه كانت (ابتلاءات) لديهم والله نجاهم منها؟ قولان للعلماء:

١ـ من العلماء من قال إن البلاء العظيم هنا هو أن الله نجاهم من آل فرعون؛ والبلاء هنا بمعنى النعمة.

٢ـ لكن جماهير العلماء على أنها بمعنى المصائب التي وقعوا فيها من عذاب آل فرعون، وكيف أن الله أنقذهم من هذه الأمور العظيمة الشديدة، فبيّن الله عز وجلّ كم كانت نعمته عظيمة على بني إسرائيل.

قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠}.

بعد أن بيَّن الله النعم التي مَنَّ بها على بني إسرائيل؛ ذكرنعمة أخرى وهي: أن فَرَق بهم البحر.

الفَرْق: الفصل بين شيئين؛ لقوله ﷺ: «**مُروا أَولادَكُم بِالصَّلاةِ وهُم أَبناءُ سبعِ سِنينَ، واضْرِبوهم عَليها وهُم أَبناءُ عَشرٍ، وفَرِّقوا بَينَهُم في المَضاجِعِ**»[١].

من سقطات التفسير الإشاري الصوفي:

قالوا: جاءت هنا لفظة (الفَرْق) وفيها حرف (القاف) موافق لحرف (القاف) في اسم السورة (البقرة)!!

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ كيف كان هذاالفَرْق (الفَصْل)؟ لم يُذكرفي هذا الموضع؛ وإنما ذُكر في مواضع أخرى سورة (طه، الشعراء، الدخان) وبالجمع بين الآيات نجد تفصيل هذا الموضع على وجه الخصوص؛ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]، ولمّا أمر الله موسى عليه السلام أن يهرب وينجو بقومه من بطش فرعون باتجاه البحر ليلًا (البحر الأحمرحاليًا)؛ فأتبعه فرعون ومعه أتباعه من الوجهاء وأهل الحل والعقد وجنوده، ولمّا رأى بنو إسرائيل فرعون وأتباعه خافوا فقالوا:

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٥).

{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} وكانوا في شكٍّ من نصر الله عز وجل لهم - كعادتهم سوء أدب مع الله تعالى - بخلاف موسى الذي لم يتزحزح عن يقينه بربه مطلقًا بالرغم من انقطاع الأسباب (العدو خلفه والبحر أمامه ولا سبيل للنجاة) ولكن الله مَن أمره بالخروج ولن يُخلف وعده أبدًا {قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} كلا: كلمة زاجرة مانعة لهؤلاء القوم - بني إسرائيل- التي انعدمت الثقة في قلوبهم {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ} أي كالجبل العظيم.

- قال بعض أهل العلم: إن البحر انفلق إلى اثني عشر طريقًا بعدد قبائل بني إسرائيل، وليس طريقًا واحدًا، ولكن يأبى السياق هذا الرأي، ونجا موسى وقومه وأُغرق فرعون الطاغية بعدما جاءه الحق.

شُبهة:

من المعروف أن يوم نجاة موسى هو يوم عاشوراء ولكن الروافض تقول: إن عاشوراء هي بدعة أموية اخترعها بنو أمية لموافقته مقتل الحسين- احتفالًا منهم- لأن الحسين قُتل على يد يزيد بن معاوية الأموي، وأن الأحاديث المثبتة لصيام عاشوراء ضعيفة!!

الرد:

١- الأحاديث التي تثبت أن عاشوراء هو يوم نجاة موسى وقومه هي أعلى درجات الصحة، وثابتة في الصحيحين.

- حديث ابن عباس رَضِي الله عَنْهُمَا: «قَدِمَ النبي ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يومَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**ما هذا؟**»، قالوا: هذا يَوْمٌ صَالِحٌ، هذا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إسْرَائِيلَ مِن عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قالَ: «**فأنَا أحَقُّ بمُوسَى مِنكُمْ**» فَصَامَهُ، وأَمَرَ بصِيَامِهِ» (١).

- وحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (في الصحيحين): «كان يومُ عاشوراءَ يومًا تصومه قُرَيشٌ في الجاهليَّةِ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يصومه في الجاهليَّةِ، فلما قَدِمَ رَسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ صامه وأمَرَ بصيامِه، فلما فُرِضَ رمضانُ كان هو الفريضةَ وتُرِك عاشوراءُ، فمن شاء صامه، ومن شاء تركَه» (٢).

٢- الأصل صيام النبي ﷺ لعاشوراء في مكة في الجاهلية، وكان يومًا معظَّمًا عند العرب - تعظيمًا لِملَّة إبراهيم- وكانت تُكْسَى فيه الكعبة.

ولمّا قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه؛ فرض على المسلمين - مع علمه به سابقًا - ونُسخ حكمه بعد فرض صيام رمضان في السنة الثانية للهجرة، وأصبح نافلة لمن أراد صيامه.

{ءَالَ فِرۡعَوۡنَ} لم يذكر (فرعون) لأن فرعون معهم بداية وليس بالتبعية.

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠٤)، ومسلم (١١٢٥).

{وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} ينظرون لهذا المشهد العظيم، وكرم الله لهم وفضله في نجاتهم.

وهذا من النعم الكثيرة التي منَّ الله بها عليهم، ولكن بلا جدوى، فهم معاندون مستكبرون.

قوله تعالى: {وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾}.

{وَٰعَدْنَا} بعض أهل العلم قال: المواعدة (المفاعلة) لا تكون إلا في حق البشر بين اثنين، وهناك نزاع بين أهل اللغة؛ فبعض أهل العلم رفض قراءة (واعدنا) بالألف، وقرأ (وعدنا) بدون ألف؛ لأن الوعد والوعيد يكون في حق الله.

- وخلاف المواعدة التي قال عنها أهل اللغة والبلاغة أنها تُطلق على: الميعاد، والموضع، والوقت.. فالمواعدة لا تكون إلا في حق البشر؛ فتقول: واعدته الساعة كذا في المكان كذا، فليس لها علاقة بالوعد والوعيد!

والراجح والأظهر والأوضح أنَّ: واعدنا بالألف ليس لها علاقة بالوعد والوعيد، وإنما مواعدة من الله عز وجل، تدل على مكان أو زمان.

{أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} قال الكثير من المفسرين إن الأربعين ليلة هم: شهر ذو القعدة، والعشر من ذي الحجة. وليس هناك دليل من القرآن

على هذا القول.

سؤال: لماذا قيل (ليلة) ولم يقل (يومًا)؟

لأن الليالي تسبق الأيام.

{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ} هنا إضمار لمفعول ثان تقديره (إلهًا)؛ ثم اتخذتم العجل إلهًا من بعده؛ أي من بعد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه ليأخذ الألواح ثم يرجع إليكم. وقد أُضمر في القرآن كله.

{وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} حال؛ أي: ظالمو أنفسهم بالتذلُّل وعبادة مَن هو أحقر منهم وأحط وهو حيوان (العجل)! فالعبادة: تذلُّل! وأصل الظلم انتقاص للنفس وقَدرها؛ فقد شرَّفكم الله ابتداءً بأن جعلكم من الإنس، وخلقكم في أحسن تقويم (وهذا تشريف آخر)، وأرسل إليكم أولي العزم من الرسل، وبينكم نبي عظيم يأمركم بعبادة الله وحده ويأتي إليكم بالألواح، وتتركون كل هذا وتتذللون لـ (عجل) - فضلًا عن أنه بلا روح مصنوع باليد - من دون الله؟! فهذا أقسى مراتب الذل والظلم وإهانة النفس.

قوله تعالى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾}.

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم} أي ثم عفا عنكم، وهذا يوجب شكر الله.

{ذَلِكَ} اسم إشارة؛ ليبيّن مدى المصيبة التي وقعوا فيها.

قوله تعالى: {وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾}.

{الْكِتَابَ} التوراة، الألواح.

{وَالْفُرْقَانَ} التوراة أيضًا.

قال أهل العلم: هذا العطف من باب عطف الصفات وليس الذوات؛ فواو العطف تقتضي المغايرة، لكن المغايرة هنا تقتضي عطف الصفات، مثال: (جاء أحمد وفرسه) المغايرة هنا مغايرة ذوات وليست صفات؛ فأحمد إنسان، والفرس حيوان. أما في هذه الآية فالكتاب هنا - التوراة - به الأوامر والنواهي، وسمي بالفرقان - هنا في هذا الموضع أيضًا- لأنه يفرّق بين الحق والباطل.

فعطف الفرقان على الكتاب مجرد مغايرة للصفات وليس للذوات؛ لأن الذات واحدة.

ملحوظة: قد يأتي لفظ الفرقان ويكون المقصود به التوراة ونفهم ذلك من خلال السياق كما ورد في قوله تعالى في سورة (الأنبياء) { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴿٤٨﴾} فيأتي بهذا المعنى مقيدًا.

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} لعلكم أي (يُرجى) بهذا الكتاب العظيم أن يكون سببًا لهدايتكم، والله يعلم هل سيهتدون أم لا.

قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾}.

لما اتخذوا العجل إلهًا؛ كانت هذه الفعلة الشنيعة تحتاج إلى توبة؛ لأن الذنوب العظيمة عمومًا تحتاج إلى توبة، ولذلك قد شُرع أن الأمور العِظام لا بُد أن يكون لها حدٌّ.. فالزنا، والقتل، والسرقة، الرِدَّة، وغيرها...لها حدود.

وهنا التكليف في الآية كان شديدًا عليهم حيث أمرهم بقتل أنفسهم، ويُقال: إن موسى عندما رجع بالألواح ووجدهم يعبدون العجل ألقى بالألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه.. فقال لهم: (اقتلوا أنفسكم).

الخطاب ابتداءً في الآيات السابقة من الله عز وجل، ولمّا جاء زجر موسى لهم انتقل الخطاب إلى موسى؛ لأن الخطاب من الله عز وجل للعباد بدون واسطة عزة ورفعة لشأنهم، ولكن لمّا حطّوا من أنفسهم - بعبادة العجل- جعل الخطاب من موسى إليهم.

وقفات:

- غياب العقول تكون بكثرة المعاصي، فعندما يُعصى الله تعالى مرة بعد مرة يسْوَد القلب بالمعاصي، فينعدم نور البصيرة، فيغيب الفرقان في الأمور، ويلبَّس على الإنسان الأمر، وهذا ما حدث لبني إسرائيل مع السامري والانسياق له - إلا القليل منهم-! لكثرة

اعتراضهم وعدم سلامة قلوبهم.

- لذلك قلة العلم والعمل يُضعف العقل والفهم!

{وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ} القوم عند العرب: القبيلة. وعند الفقهاء: الجد الرابع فما دون.

{يَا قَوْمِ} تلطُّف وتودد، وأسلوب ترغيب؛ ناداهم بالقومية تلطُّفًا واستعطافًا وبيانًا لهم أن الفرصة ما زالت سانحة لهم، فالأمر جلل ويحتاج إلى توبة عظيمة!

{إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} أنتم مَن ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، والظلم القاصر: هو ظلم للنفس، والظلم المتعدي للغير: هو ظلم للنفس والغير.

{فَتُوبُوا} التوبة والأوبة: الرجوع؛ أي ارجعوا؛ فأمرهم بالتوبة، والتوبة إن كانت تجب بترك الأمر فتحقيقها هو فعلُ الأمر، وإن كانت تجب بارتكاب المعصية فتحقيقها الإقلاعُ عن المعصية، وإن كانت تجب بأخذ الحقوق فتحقيقها ردُّ الحقوق، وإن كانت تجب بظلم العباد فتحقيقها رفعُ الظلم عن العباد.

{ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ} البارئ: من أسماء الله تعالى. قال لهم {فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ} ولم يقل (توبوا إلى الله أو الرحمن) أو (فتوبوا إلى الله التوّاب الرحيم)؛ لأن البارئ هو الخالق الذي أوجد الشيء وأبدعه على غير مثال سابق، والبارئ هو الذي فصَّل هذا الخَلق، فأصل

كلمة البُرْء: القطع والفَصْل، والمُصَوِّر: جعل للخَلق هيئة معيَّنة، {فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ} أي: خالقكم الذي فصّلكم على هذه الهيئة العظيمة، فهو القادر على محوكم؛ حتى يكون أمرًا يحمل زجرًا خفيًّا.

{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} أجمع العلماء: ليس قتل النفس، وإنما أن يقتل كل منهم غيره (أباه، أخاه،...) حتى يقبل الله توبتهم.

- وقال بعض العلماء: إنهم قتَّلوا بعضهم بعضًا في الظُّلمة- ألقى الله عليهم ظُلمة- حتى يستطيع كل منهم قتل أخيه أو أبيه أو قريبه، فلا يكون الأمر شديدًا عليهم، وهذا القول اجتهاد ليس عليه دليل؛ فالغضب شديد والعقوبة شديدة؛ فتكون العقوبة في الظاهر وليست في الظُّلمة (فنأخذ بظاهر الآية).

{ذَٰلِكُمْ} أي القتل.

{خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ} أي أن القتل - وإن كان الأمر شديدًا- أفضل عند الله عز وجل من عدم التوبة أو من عدم القتل.

هل التفضيل هنا بين أمرين؟

لا، والقاعدة اللغوية: (التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء). أي: التفضيل بين شيئين لكن أحدهما ليس فيه فضل؛ كقوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾} [الفرقان]. فهل أصحاب النار لهم تفضيل؟! هل في النار خير؟!

ليس هناك أي خير بوجه من الوجوه. فيُقال: إن التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه فضل. وهو أسلوب عند العرب يظهر أن هناك تفاضلًا، ولكن الطرف الآخر ليس فيه خير.

{فَتَابَ عَلَيْكُمْ} بعد غضب الله وإعراضه عنكم تاب عليكم.

{ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ} صيغة مبالغة لأمرين:

- لكثرة مَن يتوب عليهم مِن لدن آدم حتى يومنا..
- وكثرة ذنوب المذنب والتوبة ثم العودة إلى الذنوب.

ولكن: فليخش الإنسان أن يموت على المعصية حال الذنب! فإذا غضب الله عز وجل على العبد يُعرض عنه، وفي هذا هلاكه! وهنيئًا لمن اقترب منه الملك وأعطاه وتاب عليه وقبل توبته!

قوله تعالى:{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾}.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}: للعلماء قولان:

القول الأول: لما رجع موسى بعد مواعدة ربه، ووجد من قومه ما وجد، وقال لهم: اقتلوا أنفسكم، وفعلوا ذلك.. قيل إن موسى تضرع إلى الله حتى يعفو عن قتلهم لبعضهم؛ حتى لا يفنى قومه -

بني إسرائيل- ثم عفا الله عنهم بعد ذلك، ثم طلب موسى منهم بدء التكليف بتنفيذ ما بالألواح فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة!! ما يُدرينا صدقك؟! اتهام وتكذيب لنبيهم موسى عليه السلام نبي الله، وتجرؤهم على الله تعالى.

{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} والصعق الأمر الشديد من السماء نزل عليهم فصُعقوا، وقيل: الصاعقة هنا الموت، فماتوا جميعًا على الحقيقة، ثم بعثهم الله (والبعث لا يكون إلا من الموت).

القول الثاني: (أكثر العلماء): بعد تضرع موسى عليه السلام لربه للعفو عن قومه... واختياره سبعين من خيار قومه ليعتذروا لربهم، فإذا بهم يسألون موسى رؤية الله، فأخذتهم صاعقة من السماء نزلت إليهم، ثم بعثهم الله مرة أخرى حتى يعلمهم قدرهم.

وفي قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٤٣﴾} [الأعراف] يستدل المعتزلة في قوله تعالى: {لَنْ تَرَانِي} أن (لن): نفي للتأبيد، وهذا معناه نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا باطل لأسباب:

-اللغة تحمل معاني كثيرة: (لن) تكون للتأبيد حسب سياق محدد. وقد تكون للغاية (غاية أو مدة معينة) كما في قوله تعالى:

{قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾} [طه].

-النصوص قطعية الدلالة والثبوت في رؤية الله تعالى: قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾} [القيامة٢٣].

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} أصل البعث: الإخراج؛ أي أخرجهم من الموت وأرجعهم إلى الحياة، ولفظ الموت يُطلق على الموت الحقيقي، أما لفظ الوفاة قد يطلق على النوم؛ قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴿٦٠﴾} [الأنعام]، وقال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴿٤٢﴾} [الزمر]، فلفظ الموت لا يُطلق على النوم لكن قد يطلق عليه وفاة.

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}: تعليل؛ أي لعلكم تشكرون الله على هذه النعمة العظيمة؛ فكم من ذنب عظيم تاب عليكم منه!

قوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾}.

يبيّن تبارك وتعالى أن بعد هذا الفعل العظيم الذي اقترفه بنو إسرائيل وبعد كل السوء والفساد الذي ظهر منهم إلا أن الله كان غفورًا ورحيمًا بهم ومَنَّ عليهم بأشياء كثيرة.

- والآيات تحدثت عن الغمام ونزول المن والسلوى واستسقاء موسى لقومه وخروج الماء وكل هذا وقع لبني إسرائيل في فترة

(التيه) والتي جاءت عقابًا لهم بعدما أمر الله عز وجل موسى عليه السلام وقومه بدخول الأرض المقدسة وجهاد القوم الجبارين الذين كانوا فيها (القصة وردت في سورة المائدة) إلا أنهم ردوا الأمر ورفضوا الجهاد.

{ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ} وَالْغَمَامُ جمعُ غَمَامَةٍ، والغمام هو ما غَمَّ السَّماءَ من سَحَابٍ وغير ذلك.

والمعنى: أي أرسلنا السحاب يظلكم من حر الشمس لأنكم في التيه (صحراء جرداء) ليس فيها أي شيء يحجب عنهم حر الشمس الذي يمكن أن يُميتهم.

وهنا وقفة: فمع شدة العصيان والعناد وكفران النعمة وعدم الشكر من هؤلاء ورفضهم أن يدخلوا الأرض المقدسة للجهاد فيها، كتب عليهم ربهم دخول التيه عقابًا لهم، ولكن الله عز وجل بالرغم من فرضه عليهم دخول التيه كعقوبة لهم إلا أنه أنزل عليهم المن والسلوى، كيف يكون العقاب والإكرام في نفس الوقت؟ لا يكون هذا إلا إذا كان من الرحمن الرحيم الكريم المنان، لقد كان الحر شديدًا في الصحراء، وهم في فترة عقاب إلا أنه سبحانه وتعالى من رحمته بهم أن أرسل السحاب وهم في أشد الحاجة إلى ما يستظلون به فغطى به حر الشمس وحجبه عنهم؛ كي يستطيعوا العيش، وإلا كانوا سيموتون، فالحرارة مستمرة، فكان من لطف الله ورحمته بهم ونعمته عليهم أن جعل لهم سحابًا فوق رؤوسهم ليحجب عنهم حرارة

الشمس رغم أنهم معاقبون.

{وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ} والسلوى هو طائر السُّماني وهو طائر لحمه شهي ولبيضه فوائد عظيمة يمتاز بها عن بيض أي طائر آخر (فهو يجمع بين اللحم الشهي واستفادة الجسم)، وكان الحق سبحانه قادرًا على أن يُنزل أي نوع آخر من أنواع الطيور، ولكنه أنزل عليهم أفضل أنواعها (وتلك نعمة أخرى والحديث في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل).

والمَنَّ اختلف فيه العلماء: منهم مَن قال: إنه شراب مذاقه حلو كالعسل، ومنهم مَن قال: إنه الزنجبيل، وقيل في ذلك أقوال كثيرة، ولكن أرجحها: أنه اسم لكل رزق حسن من الطعام والشراب؛ فلماذا رُجِّحَ هذا القول؟ لأن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءُ العَيْنِ**»(١).

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»(٢).

- فما معنى الكمأة؟ هو نبات لا ساق له ولا ورق له، ولا يرعاه أحد، ولكنه ينبت بعلم الله وإذنه.

ومن الألفاظ التي تُخالف العقيدة: كلمة يقولها العوام عن بعض

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٩)، أخرجه مسلم (٢٠٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤٩).

النباتات من غير إدراك منهم أنها تُمثل خطأً في العقيدة (طلع أو زرع شيطاني) لأن الشياطين لا تُنبت، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وقدر الأقدار والأرزاق، وجعل بعض النباتات تنبت بهذا الوصف لبيان عِظم قدرة الله؛ قال سبحانه: {أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾}.

إذًا هذه الأحاديث تحمل الدليل على أن المن ليس شرابًا، وهذا ما جعل بعض العلماء يُرجحون هذا القول.

{كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ} كلوا من هذا الرزق الطيب الحسن الذي امتنّ الله تعالى عليكم به.

انظروا كيف كان فضل الله عليهم بالرغم من عنادهم وعدم طاعتهم لأمره سبحانه؛ فهؤلاء لم يجتهدوا في تحصيل هذا الرزق؛ فالسلوى كان طيرًا يطير في السماء فوجدوه فوق رؤوسهم فاصطادوه، وأما المن فهو الرزق الحسن ومنه الكمأة وهو نبات في الأرض، وبالتالي لم يبذلوا جهدًا لنَيْلِه، وبالتالي فإن هؤلاء لم يأخذوا بأسباب السعي في الرزق.

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه {الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} أي أن الآية تُشير إلى نوعين من الطعام، في حين أنه في آيةٍ أخرى يقول سبحانه {وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴿٦١﴾} [البقرة] وفي هذا إشارة إلى اعتراضهم وهو دأب اليهود، ولكن هذا

الاعتراض جاء هذه المرة على نوع الطعام الواحد فلن يصبروا عليه، فكيف يمكن الجمع بين هاتين الآيتين؟ للعلماء في هذا الأمر أقوال منها:

١- منهم مَن قال: إن المن هو نوع من الشراب وبالتالي يكون المنصوص عليه في الآيتين هو نوع واحد من الطعام.

٢- ومنهم مَن قال: إن ما يُوضع على مائدة العرب من صنوف الطعام يطلق عليه الطعام، فهم يسمون ما اجتمع على المائدة الواحدة من أنواع الطعام المختلفة بالطعام الواحد.

٣- وقيل أيضًا: أنه سُمي بالطعام الواحد لأنهم كل يوم يأكلون من نفس الشيء.

هذه توجيهات كلها ممكنة وإن كان أقربها هو القول الثاني أي ما اجتمع على المائدة الواحدة من أصناف الطعام يسمى بالطعام الواحد.

{وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ} فما هو موضع هذه الجملة والحديث في سياق تعداد النعم؟ أو ما هو موضع الظلم هنا؟ قال بعض العلماء فيها: إن هذا الجزء من الآية قيل من باب الفذلكة! وما معنى الفذلكة؟ هي كلمة محمودة وليست مذمومة كما يظن البعض، فإذا ما أراد أحد ما أن يعطي ملخصًا لأعمال كثيرة سبق له القيام بها (تلخيص ما قام به في كلماتٍ قليلة) فإن هذا يُقال عنه أنه

أتى بفذلكة عظيمة شرط أن يأتي بالمعنى كاملًا لأنه من الممكن أن يُحْدِث التلخيصُ نقصًا في المعنى، فيكون اختصارًا مُخِلًّا.

- لقد ذكر الله سبحانه قبل ذلك وفي سياق الكلام عن بني إسرائيل أنهم قوم ظالمون معتدون، دائمًا ما يعترضون، أما هنا فإن الكلام في سياق تعداد النعم، وبالرغم من ذلك أراد الله أن يُذكرهم بأنهم ببغيهم وطغيانهم هم ظالمون لأنفسهم ولكن دون أن يُعِدْ ما سبق ذكره، فجاء بهذه الجملة (فذلكة) لما سبق منهم من تعدٍّ وبغي واعتراض وتكبر على أوامره سبحانه، ولهذا فإنها تُعَد إيجازًا لما سبق تفصيله (وتلك هي عظمة القرآن).

قال سبحانه: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ} ثم قال {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} فانتقل الكلام من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب الغيبة؛ أي أنه عدل عن الخطاب المباشر إلى الخطاب غير المباشر فلماذا؟ هذا من باب الوعظ والتخويف للجميع، وأيضًا لبيان الحكم على بني إسرائيل، فما هو هذا الحكم؟ شدة ظلم هؤلاء لأنفسهم جعلتهم لا يستجيبون للنصح ولا ينزجروا، فهناك بعض البشر مَن هو صعب الشكيمة فلا المعروف يُجدي معه ولا الشدة، فهو لا يستجيب لأحد بأي حال، فمثل هؤلاء يوجد منهم الكثيرون بيننا بل إن الكثير من المسلمين المعرضين عن دين الله هذا هو حالهم (حال بني إسرائيل)!!.

ـ فلننتبه نحن المسلمون ولا نعتقد أن مثل هذه الآيات من القرآن هي خاصة ببني إسرائيل؛ لأن القصص التي ذكرت بني إسرائيل إنما جاء ذكرها في القرآن خطابًا من الرب تبارك وتعالى للمسلمين، لماذا؟ لسببين:

أولًا: حتى يتعظوا وينتبهوا أنه ربما يقع فيهم مثلما حدث ووقع لليهود.

ثانيًا: هو لبيان مدى شدة هؤلاء القوم؛ فقد كانوا قومًا شدادًا لم يُجدِ معهم الإكرام والنعم الكثيرة مثل:

أـ أنقذهم من فرعون وجنوده وأغرق هذا الطاغية الظالم أمام أعينهم (فالإنسان عندما يظلمه أحد ثم ينتقم الله من هذا الظالم أمام عينيه يُكون في هذا شفاءٌ لصدره) فأشفى الله صدورهم بغرق هذا الفرعون، فما كان منهم مباشرة إلا أن قالوا: {قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾} [الأعراف].

ب- وحين عاد من لقاء ربه حاملًا الألواح وجدهم قد اتخذوا من العجل إلهًا لهم، فلما تاب عليهم بقتل أنفسهم جادلوه فيما كانت تحمله الألواح من أوامر الرب سبحانه.

ج- وحين اختار منهم سبعين رجلًا وذهب بهم ليعتذروا لربهم مما فعلوه لم يكن منهم إلا أن قالوا:{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾} [البقرة].

د- ثم إذا ما أخذتهم الصاعقة تضرع موسى لربه بالدعاء فأحياهم ربهم بعدما أماتهم ومع ذلك لم يُثمر هذا أي فائدة.

- انظروا كيف كان الأمر مع هؤلاء الذين قست قلوبهم، كانت تأتيهم العقوبة ويتبعها شيء من الترغيب، عقوبة ويتبعها شيء من الإكرام وهكذا، ولكن لا فائدة (لقد أعطي هؤلاء صنوف النعم ونزلت عليهم صنوف العذاب ولا جدوى).

فأراد الحق سبحانه أن يبين إلى أي درجة وصلت شدة قلوب القوم، فلا العذاب ولا النِّعَم ولا الوعظ نفع معهم، فاتَّعظْ يا صاحب العقل ولا تكن مثل هؤلاء؛ لأنه يوجد اليوم أناس من المسلمين كثيرون مثل هؤلاء (فمَن يتحدث معهم بالرفق واللين لا يجد منهم آذانًا صاغية، ومَن يتحدث معهم بالشدة والتذكير بمآلات الأمور ينفرون منه ولا يلتفتون إليه).

{وَمَا ظَلَمُونَا} سجل عليهم جهلهم مع تسجيل قلة شكرهم، فأفعالكم الشنيعة التي ارتكبتموها لم تظلموا بها ربكم، ولكنكم صنف قليل الشكر لا ينفع معكم شيء.

{وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ}: كلمة {وَمَا ظَلَمُونَا}: نفي، {وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ}: إثبات، والعلماء يقولون: إذا جُمع بين النفي والإثبات يتم المعنى والتأكيد.

مثلًا: قول: لا إله إلا الله: تجمع بين النفي والإثبات؛ (لا إله):

نفي. (إلا الله): إثبات. قيل: لماذا يجمع بين النفي والإثبات في كلمة الشهادة؟ لأن الإثبات إذا سبقه نفي يكون في ذلك تأكيد للمعنى، فإذا قيل(لا إله): هنا نفي لكل الآلهة، وإذا قيل (إلا الله): هنا تأكيد على أنه هو الواحد الأحد، وهكذا تكون الكلمة بهذا الشكل أقوى من قول (الله الواحد الأحد).

ومع هذا التأكيد - بالنفي والإثبات- في الآية جاء أسلوب توكيد آخر وهو تقديم المفعول؛ فلم يقل (كانوا يظلمون أنفسهم) بل قال (كانوا أنفسهم يظلمون) وفي هذا زيادة التأكيد والحصر والقصر.

سؤال: لماذا ورد هذا التأكيد العظيم من الله عز وجل؟

لأن الإنسان الجاهل عدو نفسه يفعل بنفسه الأفاعيل السيئة والآثمة ويجلب على نفسه من المضار ما لا يستطيع أن يجلبها عليه عدوه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ
مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ
لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب
بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ
مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ
مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو
بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١ ﴾

{وَإِذۡ قُلۡنَا} أمرهم الملك سبحانه وتعالى بدخول القرية وفتح (بيت المقدس).

{ٱدۡخُلُواْ} فعل أمر؛ أمرهم الله عز وجل بدخولها للجهاد، فهل الأمر بالجهاد هنا أمر شرعي أم أمر كوني؟ هذا الأمر شرعي وكوني في آنٍ واحد؛ لأن الداخل سيجاهد تنفيذًا لأمر الله، وهذا أمر شرعي ثم إن هذا الدخول مُقَدَّرٌ منذ خمسين ألف عام قبل أن يخلق الله السماوات والأرض.

{هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ} المقصود الأرض المقدسة، وهذا ما قال به جماهير أهل العلم؛ قال سبحانه: {يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١} [المائدة]، ففسرت آية المائدة ما ورد في آية البقرة.

والقرية مأخوذة من القَرْي: وهو التجمع، فأي تجمع للناس يُقال عنه قري، ولكن معناها عند العوام: البلد الصغير، أما المدينة فهي: البلد الكبير، وهذا الكلام وإن كان مُتداولًا بين العوام إلا أنه لُغةً ليس صحيحًا، فالقرية تُقال للبلد الكبير والبلد الصغير أيضًا؛ قال الله تبارك وتعالى عن (مكة) أم القرى {وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ ٩٢} [الأنعام]، وفي نفس الوقت قال سبحانه: {وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣} [محمد] إذًا هناك قرى هي أكبر من أم القرى (مكة)، وبالتالي يمكن أن يُطلق لفظ قرية على البلد الكبير وكذا البلد الصغير أيضًا.

{ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ} فعل أمر ولكن هل هو أمر إيجاب أم استحباب؟ الأمر هنا ليس إيجابًا ولا استحبابًا ولكنه مباح مثل قوله تعالى {وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ} فالأمر هنا للإباحة فيجوز لهم الأكل والشرب في أي مكان في القرية كما أنه يُمكنهم البيع والشراء فيها كيفما أرادوا، وهذا يعني أنه سيأتيهم الخير.

{رَغَدٗا} واسعًا هنيئًا، وفي حالة من الطمأنينة ولن تُمنعوا من هذا الخير؛ لأنكم نصرتم دين الله وامتثلتم لأوامره.

{وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ} فأي بابٍ هذا؟ باب القرية.

{سُجَّدٗا} وهنا تكمن إشكالية تحتاج وقفة فلماذا؟ لقد أمرهم ربهم سبحانه بدخول القرية التي يسكنها العماليق الظلمة والقيام بتطهيرها منهم، ثم بعد ذلك العمل على نشر شريعة موسى عليه السلام، فما كان منهم إلا العصيان والرفض لأوامر الله سبحانه، ولكن ما المقصود بالسجود هنا هل هو الخضوع لله أم غير ذلك؟

١- ذهب فريق من العلماء إلى القول بأن المقصود بالسجود هو الخضوع لله عز وجل (أي: خاضعين لله) ودليلهم في هذا القول قوله تعالى: {أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨} [الحج] فقالوا: إن السجود هنا ليس سجودًا

حقيقيًّا أي على الحقيقة ولكن المقصود هو الخضوع! وهذا القول نعترض عليه، لماذا؟ لأن السجود هنا سجود على الحقيقة، والدليل يأتينا من السنة وهذا جائز لأن القرآن كما يُفسر بالقرآن يفسر أيضًا بالسُّنة؛ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟**»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:** {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ} [يس: ٣٨]»[(١)].

- إذًا السجود هنا هو سجود على الحقيقة وإن كنَّا لا نعلم كيفية سجود المخلوقات إلا أنها تسجد للخالق سجودًا حقيقيًّا.

٢- من الأقوال التي ذُكرت أيضًا: أن المقصود بالسجود هو: الركوع، واستدلوا بقوله سبحانه: {وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ۝١٠٠} [يوسف] فركع أَبَوَا يوسف وإخوته له! ويُعترض على هذا القول أيضًا؛ فلقد سجد أَبَوَا يوسف وإخوته له سجودًا حقيقيًا لماذا؟ لأن كلمة (خَرُّوا) تعني سقط على الأرض، وبالتالي لا تأتي مع الركوع.

- لقد أراد بعض المفسرين الهروب من القول بسجود إخوة

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٩).

يوسف وأبويه له؛ لأنهم يقولون بأن السجود لا يكون إلا لله.

- والرد: لقد كان هذا في شريعة يوسف عليه السلام ثم نُسخ في شريعة محمد ﷺ، فلا إشكال في ذلك، ثم إن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ولكنه كان من قبيل التحية والتعظيم والتشريف؛ أي أن سجودهم كان سجودًا حقيقيًّا فنزلوا إلى الأرض وسجدوا له وهكذا قالت الآية (وَخَرُّوا)، وفي أصول الفقه: يُقدم الظاهر على المؤول، والكلمة واضحة ولا تأتي مع الركوع.

- أما في شرعنا الآن فلا يجوز السجود تحية لأحد، كما لا يجوز حتى الانحناء في التحية؛ لأن الانحناء نوع من التعظيم، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، نعم كان في الشرائع السابقة ولكنه نُسخ بشريعة محمد ﷺ.

وهناك إشكالية في قوله {وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا} فلقد أصبح الدخول وهم ساجدون أمرًا حتميًّا فقد فُرِض عليهم، ولكن السجود يعني: الثبات والاستقرار، بينما الدخول يعني: الحركة والانتقال، فكيف يتَسنَّى لهم الجمع بين هذا وذاك؟

قيل: إن الحال تارة يكون مقارنًا للفعل وتارة يكون مُتأخرًا عنه، فالسجود حال الدخول ممتنع؛ لأن الجمع بين الحركة والثبات في وقتٍ واحد غير ممكن، وبالتالي يمكن أن يتأخر الفعل عن الحال، فيكون المعنى: أنكم إذا دخلتم القرية وانتصرتم بفضل الله وتمكنتم

من هذا الأمر فخروا لله سجدًا وذلك شكرًا لنعمته التي أنعم بها عليكم.

{وَقُولُواْ حِطَّةٌ} أصل كلمة (الحط): النزول، يقال: حط الراحلة: أي أنزلها؛ أي قولوا: يا رب حط عنَّا خطايانا فاغفر لنا هذه الخطايا الشنيعة التي ارتكبناها في حق أنفسنا وتعدينا بها الحدود والأوامر، فلو أنكم دخلتم القرية وشكرتم على هذا العطاء ثم طلبتم من الله سبحانه المغفرة وأن يحُط عنكم خطاياكم لأعطاكم لأنكم ستكونون من المحسنين.

ولكنهم لم يستجيبوا لما أُمِروا به، فهؤلاء هم بنو إسرائيل وتلك حالهم، فدخلوا يَزْحَفُونَ علَى أَسْتَاهِهِمْ (مؤَخِّراتِهم) ولم يسجدوا وكانوا يقولون حطةٌ في شعيرة (حبة في شعيرة)؛ أي نريد أن نأكل الشعير، فاستبدلوا أمر الله بكلام لا معنى له.

{نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ} أي سنغفر الخطيئة، والخطيئة ليست بمعنى الخطأ لأن الخطيئة هي ارتكاب الذنب عن عمد، أما الخطأ: فهو الوقوع في الذنب من باب النسيان أو الجهل، ولهذا فإن الخطأ يكون أقرب للعفو عنه ولا يؤاخذ العبد به، قال تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴿٢٨٦﴾} [البقرة].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ**

تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» [(١)].

إذًا الخاطئ ملوم، والمخطئ معذور لماذا؟ لأن الخاطئ يعلم أن ما يرتكبه خطيئة وبالرغم من ذلك يرتكبها تعمدًا، ولهذا فإنه يحتاج لتوبة واستغفار (ملوم)، أما المخطئ فإنه معذور لأنه لم يتعمد ارتكاب الذنب.

{وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ} فإذا طلبتم من ربكم أن يغفر لكم ذنوبكم الكثيرة فإنه سيغفر لكم، وبعد المغفرة سيُعطيكم المزيد من العطاء والإكرام رغم كل ما ارتكبتموه من الذنوب والمعاصي.

ومع كل ما فعلوه وعدهم ربهم بالمغفرة والإكرام والزيادة للمحسنين شرط أن يطلبوا منه مغفرة الذنوب ولكنهم رفضوا كل هذا وما كان منهم إلا أن بدلوا أوامر الله.

قوله تعالى: {فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٥٩}.

{فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ} وهل ما بدله الذين ظلموا هو القول أم غير القول؟ أي هل بدل هؤلاء ما قيل لهم أم بدلوا غير ما قيل لهم؟

لقد بدلوا ما قيل لهم، فلماذا قال ربنا سبحانه {غير الذي قيل

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٠٤٣).

لهم}؟ جاءت (بدَّل) هنا بمعنى (قالوا)، فلو قيل: فقال الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم لاستقام المعنى، ولكن ما زال السؤال مطروحًا: لماذا قال (فبدل)؟ ذُكرت (فبدل) هنا من أجل أن يُسجل عليهم شدة العناد والإصرار على المخالفة وإلا معنى (بدل) بمعنى (قال) وهذا يأتي في اللغة.

ولقد أمرهم سبحانه بأن يقولوا {حطة} فقالوا (حبة في شعيرة) فبدلوا قولًا بقول، قال (فبدل): ليسجل عليهم تلك المخالفة المقصودة المتعمدة لأن الكلام كان واضحًا، وفرق بين قول حطة وقول حبة في شعيرة، كما أنها لا مجال لها في سياق الكلام، إذًا هناك قصد للمخالفة والتكبر والاستهانة بأوامر الله سبحانه، وهذا يدل على استغنائهم عن المغفرة.

الخلاصة: أن كلمة بدل جمعت بين أمرين: عَبَّر بها الله مكان كلمة (فقال) وهي بمعناها، وسجل الله عليهم شدة العناد والإصرار على المخالفة.

ملحوظة: يجوز قول عبر أو استعمل مع الله سبحانه إذا كنَّا في مجال الإخبار عنه سبحانه.

وقوله {ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ}: إظهار في موضع الإضمار، فأظهر في موضع المضمر، فكان من الممكن أن يقول سبحانه (فبدلتم قولًا غير الذي قيل لكم) أو (فبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم).

فوائد الإظهار في موضع الإضمار:

١-تحقيق اتصاف محل المضمر بهذا الوصف وهذا الحكم: وهنا المضمر هو (الضمير المقدر في فبدلتم أو فبدلوا) ولكنه أظهره بقوله سبحانه (الذين ظلموا) فأظهره كي يؤكد هذا الحكم وهذا الوصف محل المضمر، فيكون المقصود: يا مَن بدلتم أنتم ظالمون لأنفسكم.

٢- تعميم الحكم بعلة الوصف: والمقصود بهذا أن الكلام ليس لبني إسرائيل فقط، فكل مَن بدل كلام الله وكل مَن خالف أوامر الله وكل مَن استهان بأوامر الله ولم يستجب لها هو من الظالمين.

لماذا حكم عليهم ربهم بأنهم ظالمون؟ السبب في ذلك هو ما فعلوه من الاعتراض على أوامر الله وعدم الاستجابة لها، وهكذا فالحكم هو أنهم ظالمون والوصف أنهم معترضون ومبدلون لأوامر الله، والتعميم يعني أن كل مَن فعل فعلهم سواء من بني إسرائيل أو من غيرهم فإنه يخضع لهذا الحكم.

هذه القاعدة تشمل كل آيات الكتاب العزيز، فكل آية ورد فيها تجريم فعل ما والحكم على مَن فعله لا يقتصر حكمها على فئة بعينها ولا عن مَن خاطبهم الحق سبحانه فيها، ولكن يشمل كل مَن وقع منه هذا الفعل.

فكيف كان التبديل هنا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:**

{ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} [البقرة: ٥٨] **فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»** [(١)]. أي أنهم بدلوا أمر الله لهم بالسجود وجعلوه أمرًا بالطعام والشراب وبذلك يكونوا قد حرفوا الكلم عن مواضعه.

قوله تعالى: {وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾}.

استسقاء موسى عليه السلام لقومه أيضًا كان في فترة التيه، فبعدما ظلل عليهم ربهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى طلبوا من موسى أن يسأل ربه أن يُنزل عليهم الماء، ولكن هذا الطلب لم يُذكر في الآية (باب الحذف في القرآن) لأن الكلام مفهوم من السياق.

{فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ} هنا أيضًا حذف: حيث لم يُذكر الخبر (فقلنا اضرب، فضرب موسى بعصاه الحجر، فانفجرت) وهذا واضح من سياق الكلام (إذًا الاختصار يُعطي بلاغة في المعنى فإذا كان المعنى واضحًا فلا داعي لإطالة الكلام حتى لا يحدث عند المتلقي سآمة وملل).

والاستسقاء يكون مع انعدام الماء وحبس القطر، كما أن انعدام الماء وحبس القطر هما دليل غضب يحتاج إلى ظهور عبودية

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

وافتقار وذل وخشوع لله سبحانه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ المَالُ، وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، قَالَ: فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ،.... وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى»(١).

- لقد خرج النبي ﷺ في حالة من الذل والخشوع والانكسار والافتقار وبيان العبودية لله سبحانه فطلب الاستسقاء.

- وموسى عليه السلام طلب من ربه أن ينزل الماء على قومه فأمره ربه بأن يضرب بعصاه الحجر ففعل موسى ما أُمِرَ به فخرج الماء (وهذا من باب الأخذ بالأسباب وإلا فما الذي يجعل الماء يخرج من الحجر إذا ما ضُرِب بالعصا).

{فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ}

لماذا حُددت العيون بهذا العدد؟ لأن الأسباط كانوا اثنتي عشرة سبطًا (قبيلة)، فكان من رحمة الله ونعمته بهم أن قسمها (الماء) عيونًا بينهم حتى يمنع التدافع والتقاتل والتضارب الذي كان سيحدث بينهم لو أنه أخرج عينًا واحدة لهم وتركهم ليتقاسموها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٣).

{قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ}: (أُنَاسٍ) جمع لا واحد له مثل إنسان، وكان من نعم الله عندما استسقى موسى لقومه أن فَجَّر الله تبارك وتعالى العيون لهم حتى يشربوا، وفي سورة الأعراف {فَٱنۢبَجَسَتۡ} والفرق بين الانبجاس والانفجار؛ أن انبجست: سال الماء، أما انفجرت: خرج الماء بقوة، ويمكن الجمع بينهما لأنهما يكملان بعضهما في المعنى

وقفة:

معجزة موسى عليه السلام كانت خروج الماء من الحجر، أما معجزة النبي محمد ﷺ كانت أعلى وأعظم لأن الماء كان يخرج من بين لحم ودم.

{كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ}: المقصود أن هذه النعم من طعامٍ وشراب لم تكن بحولكم وقوتكم ولكنها من رزق الله الذي تفضل به عليكم.

{وَلَا تَعۡثَوۡاْ} العث: هو شدة الفساد وأعلى أنواعه، وإذا كان العث هو الفساد فلماذا كرر المعنى بقوله (مفسدين)؟ جاء التكرار لتأكيد حالهم وبيان شدة انهماكهم في المعاصي، وأيضًا لبيان أنهم لا فائدة منهم، ولكنه سبحانه خاطبهم بهذا الشكل لينتبهوا إلى ما آتاهم من نِعَم فلا يُقابلوها بالنكران والجحود بل كان عليهم أن يقابلوها بالعرفان والشكر؛ لأن الإنسان أحيانًا إذا كثرت عليه النعم فإنه ينسى

الشكر، وهذا هو أكثر حال المترفين ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق] فعندما يرى النعم قد يستغنى.

ملحوظة: كلما كان لدى الإنسان نقص وخلل في الإيمان فإنه مهما أُوتي من نِعَم لا يشكر ويجحد، سواء بعدم الشكر والجحود في التعامل مع الله عز وجل أو مع الناس، ونرى ذلك واضحًا في جحود حق الوالدين وعدم شكرهم على كل ما يقدموه للأبناء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٦١﴾.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ ما زالوا يعترضون ولكن هذه المرة لم يعترضوا على أوامر الله، بل وصل بهم الأمر إلى الاعتراض على نِعَمه أيضًا فقالوا: لن نصبر على نوع واحد من الطعام!

فماذا تريدون؟ ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وهذا يدل على سوء الأدب، فبدلًا من أن يقولوا: اسأل لنا الله تبارك وتعالى العلي العظيم العزيز الحكيم القوي، قالوا: (ربك)، فهو رب موسى وليس ربهم، فدلت

اللفظة على إنكار وجحود وعدم عرفان، والاستهانة بجلال الله وعظمته.

{يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} لقد أرادوا أن يستبدلوا المن والسلوى بالعدس والفول والبصل والثوم!!

{بَقْلِهَا} قيل إنه عشب، وقيل: نوع من البقول.

{وَقِثَّآئِهَا} الخيار.

{وَفُومِهَا} قيل: حنطة، وقيل: حبوب، وقيل: الثوم.

{أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ} هل تريدون استبدال ما رزقتم به من خير بهذه الأنواع من الطعام؟!

{ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا} مصر لها وجهان:

- اسم كل الأمصار (المكان على طرف البلد يُقال له مصر).

- وقيل: إنها مصر فرعون؛ أي بلدنا.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ} أي ألزمتهم، فالضرب هنا إلزام.

{ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ} الذلة للظاهر، والمسكنة للباطن، فالزموا الذل (الذل مظهر) فأصبحوا في حالة من الذل، فألزمهم الملك سبحانه هذا الهوان وهذا الذل في الظاهر والباطن؛ لأنهم قابلوا النعم بالجحود والنكران وطلبوا صنوفًا من الطعام لا يطلبها عاقل، بل لا

يطلبها إلا باغٍ متعدٍّ معاند لمجرد العناد، يُخالف من أجل المخالفة فقط.

{وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ} فرجع عليهم غضب من الله شديد.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ} كلما تأتيهم آية يكفروا بها.

{وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ} بغير الحق هنا تأكيد، وليس معناها أنه بمفهوم المخالفة يمكن قتل النبي، ولكن المعنى أن قتلكم للأنبياء ليس له معنى سوى أنكم طغاة بغاة؛ كقوله تعالى: {قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴿١١٢﴾} [الأنبياء] فهو تأكيد أن حكم الله يكون بالحق، وليس معناه أنه يمكن أن يحكم بالباطل أو بغير العدل؛ فهو تأكيد لهذا الفعل الشنيع، والأنبياء لا يرتكبون الكبائر (عند أهل السنة والجماعة) وإذا أخطأوا فإن أخطاءهم لا تُذكر، فلماذا قتلتموهم؟ هذا وإن دل على شيء فإنه يدل على سواد القلب وفساد العقل والاعتقاد.

{ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} والعدوان هو أشد أنواع الظلم وقد وقع منهم أيضًا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٖ
وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ
فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾
فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةٗ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا
بِكْرٌ عَوَانُۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفْرَآءُ فَاقِعٞ لَّوْنُهَا
تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

بَيَّن الحق سبحانه أصناف الأمم في هذه الآية، فبعد أن ذكر سبحانه ما صدر من بني إسرائيل من أفاعيل بَيَّن جزاء المتقين المستجيبين لأوامر الله عز وجل فقال: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}: أي الذين آمنوا بما جاءهم من الحق واتّبعوا الرسول ﷺ وعملوا بالشريعة كما يحب الله ويرضى وعلى هدي النبي ﷺ، هؤلاء لهم أجرٌ عظيمٌ عند ربهم.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ}: تكلم الملك سبحانه عن أربعة أصناف من الأمم في هذه الآية وهم:

الأول: هم المؤمنون.

والثاني: هم اليهود: وكلمة يهود لها معانٍ: منها الهوادة وهي المودة، ومنها التهود: التوبة {إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ} أي تُبنا إليك، وقيل: إنها نسبة إلى يهوذا أكبر أبناء يعقوب عليه السلام، وقيل: لأنهم كانوا يتهودون عند قراءة التوراة أي يتحركون بطريقة معينة (وإلى الآن نراهم يهتزون بهذه الطريقة عند القراءة)، ولهذا فإن المسلم عندما يهتز حين يقرأ القرآن يُقال له: إن هذه صفة من صفات اليهود التي أُخِذَتْ عنهم ففيها تشبه باليهود (وللأسف الكثير من قُراء القرآن يقرأون بهذه الصورة) وهي صفة مذمومة، فلا يجوز اهتزاز الجسم حين يُقرأ القرآن، بل المفروض هو الثبات والجلوس في سكينة وخشوع.

والثالث: هم النصارى: وسموا بذلك لأنهم يتناصرون فيما

بينهم، وقيل: الأنصار: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۝٥٢﴾ [آل عمران].

والرابع: الصابئون: كلمة الصابئة لغةً تعني: كل مَن ترك دينه واتبع دينًا آخر، وقيل: إنهم عُبَّاد الكواكب والنجوم، وقيل: إنهم عُبَّاد الملائكة، وقيل: إنهم قوم على شريعة فرقة من فرق أهل الكتاب المتبعين للزبور الذي أُنزل على داود عليه السلام (ولهذا أباح أبو حنيفة ذبائحهم لأنهم على مِلَّة).

فاختلف العلماء في هذا الصنف وجاء اختلافهم بهذه الأقوال والتي منها أنهم موحدون، فإذا قيل: إنهم عباد النجوم والكواكب وعباد الملائكة (وهذا القول هو المشهور)، فإن هذا القول مردود، لماذا؟ لأن الآية بعدما ذكرت الأربعة أصناف أعقبت ذلك بقول ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إذًا هناك فريق منهم آمن بالله واليوم الآخر، وبالتالي لا يمكن القول بأن هؤلاء عباد الملائكة أو أنهم عباد كواكب ولا نجوم، ولكنهم قسمان: **أحدهما**: مؤمنون بالله واليوم الآخر، **والثاني**: كافرون والداعي لقول ذلك هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ [الحج].

- ذكر الحق سبحانه في سورتي البقرة والمائدة (أربع أمم)، وفي سورة الحج ذكر (ست أمم) ولكن بعد أن ذكر أصناف سورة

الحج أعقب ذلك بقوله {إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ} ولم يقل {فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ} أي أنه لم يذكر الجزاء فلماذا؟ لبيان أن منهم مَن ليس له جزاء مطلقًا؛ فالمجوس والذين أشركوا خرجوا من الجزاء بالكلية (كفار مخلدون في النار)، يبقى الأربعة الآخرون وهؤلاء منهم المؤمن ومنهم الكافر، والمؤمنون منهم مَن يدخل الجنة مباشرةً ومنهم مَن يدخلها بعدما يقضي فترة عقوبته.

{فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ} قال سبحانه في شأن المحتضر عندما يرى ملك الموت وأعوانه وهم مقبلون عليه، وفي هذه اللحظة يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى التوحيد والإيمان والعمل الصالح، فإذا أتت على العبد تلك اللحظات فإنه يكون في حالة من الرعب والخوف الشديد، فتأتيه الملائكة بالبشرى؛ قال ربنا:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠} [فصلت] فلا تخف ولا تحزن على أي شيء ستتركه من بعدك وأبشر بالجنة، ومن هنا نجد أن البعض عند الموت يبتسم؛ لأنه بُشِّرَ بالجنة وهو ما زال على فراشه، ويا لها من بشرى تستحق العمل لها ليل نهار، فكل مَن قال ربنا الله ثم استقام على الأمر والنهي فلا خوف عليه ولا يحزن.

وقفات مع الآية:

الآية تحمل بعض الإشكاليات على البعض منها:

١- الإشكال الأول: أن اليهود مخلدون في النار وكذا النصارى، ولكن يقول الحق سبحانه: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ} هذا القول يأخذه العلمانيون ويظهرون على وسائل الإعلام المختلفة ويستدلون به على تشدد المسلمين (فلماذا لا تُهنئون النصارى بأعيادهم؟ ما هو الولاء والبراء؟ لماذا تقولون: إن النصارى في النار؟).

وانتبهوا: هؤلاء دائمًا يُدافعون عن النصارى فقط، ولا يذكرون اليهود، مع العلم أنهم مُشتركون معهم في نفس الحكم بالنسبة للمسلمين فهم مخلدون في النار! فلماذا يحدث هذا؟ لأن أمريكا استطاعت أن تقوم بدعاية جيدة لنفسها ونتيجة لهذه الدعاية استطاعت أن تجعل المسلمين يُحبون النصرانية فاستجاب البعض لذلك، هؤلاء العلمانيون يقولون إن قرآنكم جمع بين (المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين) في الآية وجعل حكمهم واحدًا!! واحتجّوا بأن (واو العطف) تُفيد التشريك في الحكم، والكل له أجره ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إذًا شرعًا ولغةً سيدخل كل هؤلاء الجنة!!

الرد: إن اليهود ينقسمون إلى قسمين:

أ- **قسم مؤمن:** وهذا هو المؤمن بموسى عليه السلام في زمان موسى، فَآمَنَ به كنبيٍّ لله ومن أولي العزم من الرسل واتّبع شريعة التوراة فلم يُحرِّف ولم يُبدِّل ولم يَرُدّ الأمر، كما أنه لم يُعاند، فهؤلاء آمنوا بما جاء به موسى على مراد الله فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون (في الجنة يُنعمون).

ب- **قسم كافر خالد مخلد في النار:** وهم مَن اعترضوا على ما جاءهم به من البينات وحرَّفوا التوراة وما زال موسى بينهم فكفروا به وقتلوا الأنبياء (لهم النار).

وكذلك النصارى ينقسمون إلى قسمين:

أ- **قسم مؤمن:** وهو مَن آمن بعيسى عليه السلام كعبد ورسول لله عز وجل وأن ما جاء به كان من عند الله (فليس إله ولا ابنًا لله) فهؤلاء في زمن عيسى عليه السلام كُلِّفوا بـ (الإيمان بالإنجيل واتباع عيسى كرسول وعبادة الله سبحانه) فأُذعنوا لما كُلفوا به، هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ب- **قسم كافر خالد مخلد في النار:** بدّلوا وحرّفوا الإنجيل وقالوا: إن عيسى ابنٌ لله، وأنه إله، وصُلِب وغير ذلك من الافتراءات والأكاذيب التي نسبوها لدينهم، وما أنزل الله بها من سلطان، هؤلاء سيدخلون النار يوم القيامة وسيخلدون فيها.

-إذًا أتْبَاع هذه الشرائع كانوا قسمين كما سبق القول فمَن اتبع نبيه وما جاء به وقت شريعة هذا النبي فهم مكلفون باتباعه هو فقط في زمنه كـ (موسى وشريعته، عيسى وشريعته) فله أجره عند ربه، ولكن بعد موت هؤلاء الأنبياء وتحريف أتباعهم لكتبهم وشريعتهم أراد الحق سبحانه أن يكون هناك دين خاتم للأديان ويرسل نبيًّا

يكون خاتمًا لكل الأنبياء والمرسلين فجاءت شريعة محمد ﷺ ناسخة لكل الشرائع السابقة، وبالتالي فلا يُعمل إلا بهذه الشريعة، ومن هنا جاء الأمر لكل العباد بأن يتبعوا شريعة محمد ﷺ؛ فقال سبحانه: {إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩} [آل عمران]، وقال عز وجل:{ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥} [آل عمران].

فإذا ما جُمِعَ بين هاتين الآيتين والآية التي نحن بصددها فإن خُلاصة الحكم تكون أن المقصود بمَن يدخل الجنة من اليهود والنصارى هم أتباع رسلهم في أوقاتهم دون التحريف أو التبديل لشرائعهم، أما بعد إرسال محمد ﷺ ونزول شريعته فلا شريعة تُتبع إلا شريعته، ولن يُقبل غيرها كما دلّت آية آل عمران التي ذكرناها.

ملحوظة: كلمة الإسلام إذا جاءت مقيدة بدين فإن المقصود بها يكون دين محمد ﷺ، أما إذا جاءت لفظة الإسلام مطلقة فإنها تعني الاستسلام لله عز وجل، وهذه الجزئية أيضًا من ضمن الشبهات التي تُلقى على المسلمين، فيقولون: {وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ} هذا مردود لأن هناك فرقًا بين معنى اللفظة عندما تُقال مطلقة وبين قولها مقرونة بكلمة دين، وبالتالي فإن المقصود في الآية (١٩) وكذا الآية (٨٥) من سورة آل عمران هو دين محمد ﷺ.

الشاهد من كل ما سبق: أن كلًّا من اليهود والنصارى

والصابئين منهم فريق سيدخل الجنة ومنهم فريق كافر سيدخل النار خالدًا فيها، فاليهود الذين عبدوا (عُزَيْرًا)، والنصارى الذين عبدوا (المسيح)، والصابئون الذين عبدوا (الكواكب والنجوم) أولئك في النار، أما المؤمنون من هؤلاء (على الوجه والتفصيل الذي سبق ذكره) فسيدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾ أي أخذنا ميثاقكم يا بني إسرائيل، والمواثيق: هي العهود (الإيمان بالله وحده فلا إيمان بغيره ولا عبادة لأحدٍ سواه).

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ (الواو): لها وجوه: فهل هي واو الحال أم أنها واو العطف؟

١- إذا كانت (الواو) واو الحال فسيكون المعنى: أن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل بعبادة الله الواحد الأحد، وأثناء هذا الميثاق (عبادة الله وعدم الإشراك به) رفع فوقهم الطور (الجبل).

٢- أما إذا كانت (الواو) هي واو العطف فسيكون المعنى: أن الله أخذ عليهم الميثاق والعهود بالإيمان به وحده واتّباع موسى عليه السلام وعدم المخالفة وترك الجدال والعناد، فلم يستجيبوا ولكنهم عاندوا وبدلوا وأعرضوا، ولما كان منهم ذلك رفع الله سبحانه فوقهم

الطور.

- وبالتالي فالمعاني مختلفة فالأول يقول: إنهم حال أخذ الميثاق رفع فوقهم الطور، أما الثاني فيقول: إنهم بعدما أعرضوا عن الميثاق وقالوا: نريد أن نرى أولًا ما ورد في التوراة من أحكام (كما قال بعض علماء التفسير) وهل هي تناسبنا أم لا؟! فلما أبدوا هذه الاعتراضات رفع الملك سبحانه فوقهم الطور (وهذا هو الراجح) ولكن لماذا؟ لأنه سبحانه أعقب ذلك بقوله سبحانه {خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ} فهناك حذف تقديره: أنه سبحانه عندما أخذ عليهم الميثاق بأخذ التوراة وامتثال الأوامر ما كان منهم إلا أن بدّلوا وأعرضوا ولم يأخذوا الميثاق، فرفع فوقهم الطور كي يأمرهم أن يأخذوه بقوة وإلا فسيُسقطه فوق رؤوسهم.

- **سؤال يمكن أن يطرحه البعض: هل يمكن أن نُرغم أحدًا على الدخول في الدين؛ فسياق الآيات يقول: إن هناك إكراهًا لهؤلاء (فالجبل مرفوع فوق الرؤوس وسيسقط إذا لم يخضعوا لله بتنفيذ أوامره) فماذا بأيديهم إلا تنفيذ الأمر وبالتالي فهناك إكراه وإجبار، فهل هناك إجبار وإكراه لهؤلاء؟**

أجل هناك إجبار وإكراه لهؤلاء، لقد خضعوا لأوامر الله بعد التهديد، فهل يجوز الإجبار؟ نعم يجوز ذلك في الشريعة وله شاهد فيها أيضًا؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا،**

وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»(١).

لكن كيف يمكن الجمع بين الإجبار والإكراه (في هذه الآية) وبين نصوص أخرى تقول إن الدين لا إجبار فيه ولا إكراه {لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ}؟

إن هناك أُناسًا لا بُد من تهديدهم حتى تستقيم أحوالهم، فالنفس البشرية ما بين ترغيبٍ وترهيب، فهي لا تستقيم بالترهيب على الإطلاق، ولا بالترغيب على الإطلاق، ولذلك فإن الكتاب العزيز مليءٌ بآيات الترغيب والترهيب.

واليهود كما سبق القول كانوا قومًا شُداد الشكيمة، وبالتالي فإن إخضاعهم حتى يأخذوا الكتاب كان يستوجب التهديد الشديد فأخذوه، ولكن هل أُجبروا على العمل بما جاء فيه؟ لا؛ فإن كانوا قد أُجبروا على أخذه إلا أنهم لم يُجبروا على العمل الذي هو السبيل لدخول الجنة، هذا التهديد يأتي لعل النفس تستيقظ فتُذعن وتلين وتحمل صاحبها على الحق.

{خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ} (الباء) هي باء المصاحبة: أي بقوة؛ الذي هو ضد الكسل والتراخي والعجز، وبقوة العزم، فيكون المقصود: أن مَن يأخذ بالتوراة ويعمل بما جاء فيها فإن القوة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢)، ومسلم (٢١).

ستُصاحبه فلا تخاذل ولا تهاون، بل القيام بالعمل مدفوعًا بإرادة وعزيمة وقوة للوصول إلى ما يُرضي الرب عز وجل.

وليس المقصود بهذا الأمر هم بنو إسرائيل فقط بل إن كل المسلمين الآن مأمورون بالأخذ بأوامر الله بقوة فلا اعتراض ولا جدال ولا تخاذل في الأمر والنهي.

{وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (ما): تُفيد العموم: أي اذكروا واعملوا بكل ما جاء في التوراة واحذروا أن تُسقطوا أو تُهملوا أمرًا من الأوامر (والذكر ضد النسيان).

وقفات مع الآية:

{وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ} هل (الألف- اللام) في (الطور) هما للعهد (جبل بعينه تمت عليه المناجاة) أم أنهما للجنس(أي جبل)؟

١- فريق من أهل العلم قالوا: إن (الألف- اللام) لجنس الجبال.

٢- فريق آخر قالوا: إنه الجبل المعهود الذي تمت عليه المناجاة.

وقيل: كل جبل ينبت فهو طور، وكل ما لا ينبت فليس بطور.

وأيًّا كان المقصود فإن هناك جبلًا رُفع على رؤوس بني إسرائيل؛ لأنهم عاندوا وأصروا على المخالفة.

وقوله تعالى {خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ}: الآية لم يأتِ فيها بيان لما يجب عليهم أن يأخذوه بقوة، فما الذي يتوجب عليهم أن يأخذوه

بقوة وما الذي يجب عليهم أن يذكروه؟ الذي يتوجب عليهم أخذه بقوة وكذا أن يذكروا ما فيه لم يُذكر هنا، ولكن سبق أن ورد ذكره في آية: {وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾} [البقرة] والكتاب والفرقان بينهما عطف نسق، فما المقصود؟ المقصود هو بيان الكتاب، والفرقان هنا يعني التوراة أيضًا، ولكنه وصف للكتاب، فكأن الرب تبارك وتعالى أراد أن يقول إن هذا الكتاب هو عبارة عن فرقان لكم ليُفرِّق بين الحق والباطل فخذوا بما ورد فيه بقوة.

قوله تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾}.

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُم}: أعرضتم عن العمل بالتوراة وما فيها من أوامر رغم كل ما صدر منكم من أفعال شنيعة مع نبي الله موسى عليه السلام، فكم من مرة قدم لكم فيها النصح وجاء لكم بالحق ولكنكم لم تستجيبوا، بل أعرضتم تمامًا وتوليتم، وهذا التولي له صورٌ عدة:

١- تولوا حين قالوا {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً}.

٢- وتولوا حين قالوا {لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ}.

٣- وتولوا حين قتلوا أنبياءهم، وعصوا أوامر ربهم.

فالتوراة كانت تحمل الكثير من أوامر الله سبحانه، ولكن هؤلاء كانوا دائمًا وباستمرار يخذلون نبيهم ويعترضون على أمر ربهم،

فجاءهم هذا التوبيخ والتبكيت من الملك سبحانه لبيان حقارة شأنهم؛ لأنهم لم يأخذوا أوامر ربهم بقوة، بل تولوا وهم معرضون.

{فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ} فما المقصود بفضل الله ورحمته في هذا الموضع؟ الفضل يتمثل في إمهاله لهم في العقوبة، فكل عمل عملوه وكل موقف اتخذوه تجاه نبيهم كانوا يستحقون الإبادة عقوبةً عليه، ولكن الغفور الرحيم كان في كل مرة يُمهلهم ويمنحهم فرصة أخرى لعلهم يتوبوا ويعودوا ولكن دون جدوى.

وقيل أيضًا: إنه سبحانه لولا أن رفع فوقهم الطور لما أخذوا الكتاب ولما استجابوا.

وقيل أيضًا -في الفضل والرحمة-: إنه أرسل لكم الرسل من بعد موسى عليه السلام، فبعد موت موسى عليه السلام أُرسل إلى بني إسرائيل الكثير من الرسل لإرجاعهم إلى الأصل الذي تركه موسى، ولكنهم أَبَوا إلا الإعراض والمخالفة (معظمهم)، فلولا أن الله سبحانه وتعالى تفضل عليكم وأنزل عليكم رحمته لكنتم من الخاسرين.

قوله تعالى: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾}.

تُبين الآية أن هناك فريقًا من اليهود اعتدوا في السبت فمسخهم الله سبحانه إلى قردة وخنازير، فيُذَكِّرهم الله بفعل من أفعالهم الشنيعة والخزي الذي أصابهم بسبب هذا الفعل الشنيع والذي خالفوا به أمر

الله مخالفةً صريحة، والقصة وردت هنا إجمالًا، أما تفصيلها فقد ورد في سورة الأعراف؛ قال تعالى: {وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾} [الأعراف]، ومن المعلوم أن القرآن يُفسر بعضه بعضًا، كما أن تفسير القرآن بالقرآن من أعلى أنواع التفاسير وأسلمها من الشطحات والسقطات.

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ} لماذا أكد هذا التذكير بثلاثة مؤكدات (الواو- اللام- قد) فمعنى الثلاثة تقديرًا (والله لقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت)؟ لقد جيء بهذه المؤكدات الثلاثة؛ لأن بني إسرائيل كان لديهم شيء من التفاخر والعلو وكانوا إذا جلسوا بين المشركين أو المسلمين يتفاخرون بقول: نحن أبناء الله وأَحِبَّاؤه، ومنَّا الأنبياء، وإلى اليوم هم يدّعون أنهم شعب الله المختار، وأن الله سبحانه فضّلهم على العالمين، مستندين في ذلك إلى آيات القرآن التي ورد فيها محاسن القوم، أما ما ورد بشأنهم من أفعال شنيعة فكانوا يُخفونها. فأراد الملك سبحانه أن يفضحهم ويُظهر شناعة أفعالهم ومساوئهم فقال لهم {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ} أي إياكم أن تُنكروا واقعة السبت وما حدث لأسلافكم نتيجة عنادهم وشقاقهم، فأنتم تعلمون هذا جيدًا، ولهذا جاء بالمؤكدات الثلاثة.

القصة مختصرة: كان هناك قرية يسكنها بعض بني إسرائيل،

وكانت على ساحل البحر، فأمرهم الله سبحانه أن يصطادوا جميع أيام الأسبوع ما عدا يوم السبت، فهو يوم عبادتهم، ولهذا حظر عليهم الصيد فيه، ولكن ما حدث كان كالتالي:

كانت الأسماك لا تتواجد جميع أيام الأسبوع، وإذا وجدت توجد بقِلَّة، فإذا ما جاء السبت تواجدت وبكثرة، وقد كان هذا الرزق هو طعامهم ولا بديل له، فما هذه الفتنة؟!! وما الحكمة من تيسير المعصية لهم؟ الحكمة ذكرها ربنا سبحانه في سورة المائدة فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة].

وما العلاقة بين آية المائدة وقصة أصحاب السبت؟ آية سورة المائدة نزلت في المُحْرِم الذي أراد القيام بالعمرة أو الحج فيبتليه الله بشيء من الصيد يكون في مُتناول يده ورمحه، فما الحكمة من هذا الابتلاء؟ ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ ففي هذا اختبار وامتحان مَن الذي سيخاف اللهَ بالغيب؟ فمع شدة الاحتياج للصيد والأكل منه وهو جائع إلا أنه لا يستطيع أن يصطاد لأنه يخاف الله بالغيب.

﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ هؤلاء هم الذين وضعوا الشباك لصيد الأسماك يوم الجمعة مساءً (فاتخذوا الحِياض؛ فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد) وتلك من الحيل المُحَرَّمة.

الشاهد: أن هؤلاء القوم عاقبهم الله عز وجل، ولكن هناك تفصيل للأمر؛ فأهل هذه القرية كانوا كلهم من بني إسرائيل ولكنهم كانوا ثلاثة أقسام:

١- فريق اعتدى فلم يُذعن لأوامر الله سبحانه.

٢- فريق وعظ ومنع (أمر بالمعروف ونهى عن المنكر).

٣- فريق صمت فلم يعتدِ ولكنه لم ينهَ عن المنكر، وليس هذا فحسب بل إنه كان يُثبط مَن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فما هو جزاء كل فريق؟

- **الفريق الأول (الذين اعتدوا)**: أخذهم الله بعذاب بئيس.

- **الفريق الثاني (الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)**: نجاهم ربهم، فقد قالوا {مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي حتى يقولوا لربهم إنهم أَمَروا وَنَهوا فيكونوا بذلك معذورين أمام الله، فإن لم يستجيبوا فأمرهم إلى ربهم.

- **الفريق الثالث (الصامتون المثبطون)**: هم الذين قال فيهم ربهم: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾} [الأعراف].

تنبيه:

لا يجب ترك المقيم على معصية بحُجة أن أمره محسوم وأن الله

سيُهلكه؛ لأن واجب النصح لا يتوقف إلى قيام الساعة، وهذا الفريق لم يذكر الرب سبحانه عقوبتهم، وبالتالي علينا أن نتوقف بشأنهم، فأمرهم إلى الله.

{كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ} عقوبة هؤلاء كانت المسخ فأصبحوا قردة رجالًا ونساء.

سؤال: هل هؤلاء الذين مُسخوا لهم نسل (قرود على شاكلتهم)؟

- قيل: لا. فقد سأل الصحابةُ النبيَّ ﷺ: هل الممسوخون من بني إسرائيل هم القردة التي نراها؟ فقال لهم: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ**»(١).

فأي مسخ من هؤلاء ماتوا بعد ثلاثة أيام (كما جاء في بعض الآثار)، أما ما نراه فهم أمة من الحيوانات التي وجدت قبل مسخ المقصودين في الآية.

سؤال: ما الفرق بين ما ذُكر في كلٍّ من سورة (البقرة، الأعراف، المائدة)؟

- قال تعالى: {كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ} [البقرة، الأعراف].

- وقال سبحانه: {قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرࣲّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾} [المائدة].

جاء الكلام في هذا الموضع مطلقًا، فهل هم نفس الأشخاص الذين اعتدوا في السبت؟ لا يوجد دليل على ذلك، ولهذا يجب التوقف؛ فالذين اعتدوا في السبت هم مَن ورد ذكرهم في البقرة والأعراف (قردة)، أما في المائدة (قردة وخنازير)، فالتوقف هنا خيرٌ من التقول على الله بغير علم.

تنبيه:

حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه اليهود؛ قَالَ رسولُ الله ﷺ «**لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ**»[١]، فإياكم والتحايُل على شرع الله؛ فالبعض يُحاول أن يجد لنفسه مخرجًا لفعل المعصية، فإياكم وفعل ذلك لأن العقوبة تكون من أصعب ما يكون لماذا؟ لأنه استخفاف بأمر الله عز وجل، ولاحظ الفرق بين عبدٍ يقع في الذنب فيكون حاله الانكسار بين يدي ربه لمعرفته أنه مذنب، وبين عبد يتحايل على شرع الله ليجد مبررًا لنفسه لاقتراف الذنب، فالأول قد يعفو الله عنه، أما الثاني فعقابه شديد.

قوله تعالى: {فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ

---

(١) أخرجه الإمام ابن بطة العكبري في إبطال الحيل رقم (56).

لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٦}.

{فَجَعَلْنَاهَا} مَن هو عائد الضمير؟ قيل: إن الضمير عائد على أهل القرية، والسبب هو ما صدر منهم من اعتداء يوم السبت، فأنزل الله عليهم النكال والعذاب ومسخهم قردة، وتلك عقوبة شديدة جدًّا، فكانت موعظة وعبرة لمَن حولها من القرى ولمَن سيأتي من بعدهم؛ كقوله تعالى: { فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥} [النازعات]. وقيل: إن الضمير عائد على العقوبة والتي كانت نتيجة على ما صدر منهم من اعتداء يوم السبت، وما سبق أن صدر منهم من ذنوب قبل ذلك (هذا القول مرجوح)، والراجح: هو القول الأول.

{نَكَٰلًا} عبرة أو عقوبة.

{لِّلْمُتَّقِينَ} هذه الموعظة لا تكون إلا للمتقين لأن غيرهم لا يتعظ، والدليل: أن أقوامًا من بني إسرائيل جاءُوا من بعد ذلك ولم يتعظوا بل إنهم ارتكبوا المخالفات والمعاصي والأفعال التي اعتاد أسلافهم القيام بها.

قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧}.

الناظر إلى القصة والتي ورد ذكرها في عدة آيات يجد أن أحداثها جاءت من غير ترتيب؛ لأن الترتيب المنطقي هو أن تبدأ الأحداث بقتل النفس، ثم الاختلاف في تحديد القاتل، فيذهب الناس

إلى موسى عليه السلام ليحكم في الأمر فيوحي إليه ربه سبحانه بذبح البقرة، فلما أمر موسى قومه بذلك بدأوا في سؤاله عن صفات هذه البقرة وهذا من باب التعنت، ولكنهم ذبحوها في آخر الأمر ثم ضربوا القتيل ببعضها فقام القتيل حيًّا ليُخبر عن قاتله ثم خَرَّ ميتًا بعد ذلك.

{وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ} أخبر موسى قومه أن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تتضح حقيقة الأمر.

{قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ} هل أنت تستهزئ بنا، (الهزو): هو المزاح مع استخفاف بالممزوح معه والاستهانة به.

انظروا إلى طريقة الخطاب التي يتحدث بها بنو إسرائيل مع نبيهم وهو (رسول من أولي العزم من الرسل، كلّمه ربه، وله ما له من المناقب)!! فهل يمكن بعد هذا أن يمزح مزاحًا فيه استخفاف واستهزاء بمَن أمامه؟ هذا الأمر مُستبعد أن يأتي من قِبل شخص عاقل رصين رزين فكيف يأتي من قِبَل نبي؟! ولكن قول هؤلاء يدل على مدى استهانتهم بأنبيائهم وعلى جرمهم معهم.

{قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ} فاستعاذ موسى بربه أن يكون من الجاهلين.

والجهل قسمان، ونوعان:

أما القسمان هما:

١- **الجهل البسيط:** وهو عدم العلم بالكلية.

٢- **الجهل المركب:** وهو العلم على غير الحقيقة.

أما النوعان فهما:

١- عدم العلم بالواقع (عدم العلم بالحق).

٢- عدم العمل بموجبه.

- وكلا النوعين جهل؛ فمَن لا يعرف الحق من الباطل جاهل، ومَن عرف الحق وميَّزه عن الباطل ولكنه لم يعمل بموجبه أشدُّ جهلًا.

ونبي الله موسى عليه السلام نفى عن نفسه جميع أنواع الجهل؛ لأنه يتلقّى العلم من العليم الحكيم رب العالمين (فحاشاه أن يجهل الحق، وحاشاه أن يعلم الحق ولا يعمل به) فاستعاذ بربه وسأله أن يُعيذه من هذه الصفة الذميمة، ولم ينسب لنفسه العلم (تواضع موسى).

وقد أجمع أهل العلم بدايةً من الصحابة رضي الله عنهم على أن كل مَن عصى الله فهو جاهل بالأسماء وبالصفات وبالعقوبة، فهو جاهل حتى لو كان ممن يدّعون أنهم على علم؛ لأن العلم لو رسخ في القلب لما استطاع العبد أن يعصي الرب تبارك وتعالى.

قوله تعالى: { قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ

إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾}.

{ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ} وهذا من سوء أدبهم في الخطاب فلم يقولوا (ربنا) ولكن قالوا (ربك) وهذا هو دأبهم {فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾} [المائدة] وكأن الرب سبحانه ليس بربهم.

{مَا هِىَ} السؤال هنا المقصود به: ما سنها؟ والدليل هو الإجابة التي جاءت في سياق الآية، ما هي؟ قال بعض أهل العلم: لو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم، ولو سمعوا الأمر وجاءوا بأي بقرة فذبحوها لقُضيت حاجتهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

{إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ} أي أنها ليست كبيرة السن.

{وَلَا بِكْرٌ} أي لم يطأْها فحل.

{عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ} والعوان هو أقوى أنواع البهائم. إذًا: هي قوية شديدة متوسطة العمر.

{فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ} هذا هو ما سألتم عنه فأمرتم به، لكنهم لم يكتفوا بما وُضحَ لهم من شأنها فاستمروا في التعنت.

قوله تعالى: { قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾}.

{إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ} البقرة لونها أصفر، وصفارها واضح تسر الناظرين.

{تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ} ومن هنا استدل العلماء على أن هذا اللون مُريح للعين بنَص القرآن، فيُسر الإنسان إذا ما نظر إليه.

قال الله سبحانه: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ
تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ
لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ
جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا
فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ
كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣ ثُمَّ قَسَتۡ
قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ
لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ
مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ۞
أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ
ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ
أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ٧٦ ﴾

لم يكتفِ بنو إسرائيل بالسؤال عن اللون بل قالوا {قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا} وسياق الآيات والكلام ككل هو مزيد من الاستكشاف؛ فقد أرادوا أن يجمعوا المزيد من المعلومات حتى يأتوا بالبقرة التي شدّدوا على أنفسهم للإتيان بها.

{مَا هِىَ} للسؤال عن الصفة الخارجية، وهذا ما سيأتي في سياق الآيات.

{وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} قال بعض أهل العلم: إن لم يقولوا إن شاء الله ما كانوا ليهتدوا إليها أبدًا ولكنهم قدّموا المشيئة، وهذه جزئية لا بُد من الانتباه إليها؛ لأن تقديم المشيئة يؤدي إلى تيسير الأمور، فلا يعتمد الإنسان على حوله وقوته بل عليه أن ينتبه إلى أنه لن يفعل أي شيء إلا بمشيئة الله عز وجل.

وقد تأكدت هذه الجملة بثلاثة مؤكدات هي: (إن، اللام، الجملة الاسمية)، والجملة الاسمية هي: {وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} ولو كانت الجملة فعلية لقيل: (سنهتدي إن شاء الله)، فما السبب؟ الجملة الاسمية تأكيدها أقوى من الجملة الفعلية؛ وبالتالي كان هذا تأكيدًا منهم واستسلامًا إلى حدٍّ ما في هذه القصة.

قوله تعالى: { قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾}.

فبعد كل هذا الجدال والمُهاترات التي لم يكن لها داعٍ، خضعوا لأمر الله.

{إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ} هل القراءة تكون وصلًا {لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ} أم تقرأ وقفًا {لَا ذَلُولٌ} ونتوقف؟ هناك قولان للعلماء:

١ـ فإذا قيل {لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ} قراءة الوصل، يكون المعنى أن هذه البقرة ليست مذلولة في العمل، كما أنها لا تُقلِّب الأرض أيضًا، فلا هذا ولا ذاك.

٢ـ أما إذا قيل {لَا ذَلُولٌ} وتوقفنا: يكون المعنى أنها لم تُذل في العمل، ولكنها كانت تُستخدم في تقليب الأرض {تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ}.

والقول الأول (قراءة الوصل) أوْجَه وأرجح فلماذا؟ لأنه في بداية الأمر نفى أن تكون مذلولة في العمل وختم بعدم قيامها بسقي الزرع، فلماذا نُسقط عنها نفي كونها تُثير الأرض أيضًا؟ فالنفي شمل البداية والنهاية فلماذا لا يشمل ما ذكر في المنتصف؟ فالراجح أنها ليست مذلولة في العمل ولا تقلب الأرض كما أنها لا تسقي الحرث.

{وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ} أي لا تستخدم في سقي الأرض.

{مُسَلَّمَةٌ} أي خالية من العيوب.

{لَّا شِيَةَ فِيهَا} الشية هي اللون، فلا لون فيها يخالف لونها، أو

لا لون فيها سوى لون جلدها.

{قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ} فجمعوا ما آتاهم به من مواصفات وذهبوا إلى السوق ليأتوا بهذه البقرة التي جاءهم بوصفها.

هناك آثار كثيرة وردت في هذا الشأن ولكنها غير محققة، ولكن المؤكد أن هؤلاء عانوا كثيرًا حتى يجدوا هذه البقرة بتلك المواصفات والتي شددوا على أنفسهم في السؤال عنها فشدد الله عليهم في إيجادها.

قوله تعالى: { وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢}.

{فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ} أي اختلفتم فيمن قتلها.

{وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ} أي مُظْهِر ما كنتم تكتمون، فهذه النفس التي قُتلت واختلفتم أنتم فيمن قتلها سوف يظهر قاتلها إذا فعلتم ما أُمرتم به.

قوله تعالى: { فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣}.

أحيا الله سبحانه المقتول ونطق باسم قاتله فعرفوه، فكانت الحادثة عبرة لبني إسرائيل، وقيل: إنهم أمروا بذبح بقرة دون سائر الحيوانات؛ لأنهم كانوا قد اتخذوا من العجل إلهًا فيما سبق.

{كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ} وهذا من أجل أن تتعظوا وتعتبروا، فالملك سبحانه قادر على إحياء الموتى فيكون لديكم يقين على هذا الأمر.

{وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ} العلامات البينات الدالات على كمال قدرته وعلى عظيم سلطانه، فلا تُعارضوا أوامر الله عز وجل ولا تتعدوا حدوده لأنكم ستكونون الخاسرين، وكل عاصٍ خاسر، وكل مَن طغى وبغى وترك العمل بما أمر الله تعالى به فهو من الخاسرين الجاهلين، فنعوذ بالله أن نكون من هؤلاء ونسأله سبحانه أن يجعلنا من العباد العالمين العاملين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤}.

{ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ} ما المراد بـ {بَعۡدِ ذَٰلِكَ}؟ أي من بعد ما شاهدوه من الآيات البينات التي جاءهم بها موسى عليه السلام بما في ذلك قصة قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعدما أمرهم ربهم بذبح بقرة وضربهم إياه ببعضها ليقوم من موته وينطق باسم قاتله، وبعد كل هذا قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

قوله {قَسَتۡ قُلُوبُكُم} ما السبب في قسوة قلوبهم؟ لم يذكر

الحق سبحانه وتعالى في الآية سبب هذا التوبيخ، ولكنه ذكره في موضعٍ آخر من الكتاب العزيز قال عز وجل: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾} [المائدة]، وقال سبحانه: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾} [الحديد]؛ فبيَّن أن قسوة القلب كانت نتيجة طول الأمل ونقض المواثيق والعهود.

السؤال: وهل نقض المواثيق مع الله يؤدي إلى قسوة القلب؟

نعم يؤدي إلى ذلك، فقسوة القلب التي تمكنت من قلوب هؤلاء كان سببها أن القوم نقضوا المواثيق والعهود.

فلننتبه نحن: كم من مرة نقضنا المواثيق والعهود مع الله؟! كم مرة عاهدنا فيها ربنا على التوبة النصوح ثم عاودنا فيها الكَرَّة مراتٍ ومرات؟! كم مرة ارتكب العبد الذنب وهو يعلم أنه مذنب وأن ما يفعله ذنبًا وبالرغم من ذلك يعود إليه مرة بعد مرة؟!

إشكالية: نقض المواثيق تُسبب قسوة القلب، وقسوة القلب إذا تمكنت من العبد فإن انجلاءها عن قلبه لن يكون أمرًا سهلًا، ولقد جاء هذا الذم لبني إسرائيل لأن الحق جاءهم مِرارًا ولكنهم لم يتبعوه

بل إنهم نقضوا المواثيق والعهود مع الله سبحانه وتعالى، وفي هذا دليل على أن هؤلاء القوم يتميزون بصفة اللؤم؛ فمهما جاءهم من نِعَم يُنكرونها ويجحدونها ومهما جاءتهم من آيات بينات فإنهم لا يلينوا ولا يتعظوا ولا يُذعنوا للحق.

{فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ} تشبيه المعقول بالمحسوس، فالحجارة محسوسة، والقلب وقسوته معقولة (المقصود ليس القلب كمضغة، ولكن القلب وما يحمله من معتقدات) فشَبَّه هذا بذاك من أجل أن يُبيّن إلى أي مدى كان إعراضهم واستكبارهم عن الحق وابتعادهم عنه (وهذا من بلاغة القرآن).

وقوله تعالى {فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ}: قال كالحجارة ولم يقل كالحديد، وكلٌّ منهما يمتاز بالصلابة، وربما يكون الحديد أصلب من الحجارة، فلماذا شَبّه القلوب بالحجارة ولم يشبهها بالحديد؟ قيل: لأن الحديد يلين بالنار، فإذا سُلِطت عليه لَانَ وأصبح من السهل تشكيله، أما الحجارة فإنها لا تلين مهما تعرضت للنار (وهذا هو أول ذم).

{أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} هل (أو) للتخيير في التشبيه أم لمدلولٍ آخر؟ وهل مراد الله عز وجل في هذه الآية أن القلوب كانت كالحجارة أو أشد قسوة؟ الجواب: (أو) لم تأتِ للتخيير في التشبيه، ولكنها جاءت بمعنى (بل الانتقالية) فيكون المعنى: فهي كالحجارة بل أشد منها في القسوة.

ولكن إذا كان هذا هو المعنى فلماذا لم يستعمل الحق سبحانه كلمة (بل) بدلًا منها؟ الجواب: أن (بل) تأتي في مقام المدح، أما هذا الموضع فهو مقام ذم لهؤلاء القوم العناد الشداد الغلاظ الذين فعلوا الأفعال المشينة، فجاءت (أو) لتُفيد إثبات الأشد؛ لأن هناك أنواعًا من الحجارة (كما أظهرت الآية العلة) {وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} وهؤلاء ليست فيهم صفة من هذه الصفات (لا خروج للماء، ولا خشية لله سبحانه).

{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} وهل الجمادات تعرف ربها؟ نعم، وقد سبق القول بأنه لا مجاز في القرآن، فهناك أدلة كثيرة جدًّا من القرآن والسنة تدل على هذا؛ قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١} [الجمعة]. فالكون كله يُسبح ولكننا لا نفقه كيفية هذا التسبيح.

والخشية هي الخوف المقرون بالعلم؛ قال سبحانه: { وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨} [فاطر] أي أن مَن يخاف الله ويخشاه هم العلماء من عباده، فعظمة الله وجلاله وهيبته وأسماؤه وصفاته وعلمه وما عنده من الأسماء والصفات العظيمة لا يمكن أن يُدركها أحد إدراكًا كاملًا جازمًا إلا صاحب العلم، فدرجة الخشية التي تأتي نتاج المراقبة ومعرفة أسماء الله وصفاته والتحلي بآثار

هذه الأسماء والصفات في السر والعلن والتأدب بآداب الشرع والشريعة لن يصل إليها أحد إلا بالعلم، كما أن العلم لن يُوصِل لهذا الفهم والعمل إلا إذا كان هناك إخلاص في طلب هذا العلم.

{وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ} وهذا دليل على سِعة علم الله وأنها عظيمة جدًّا، والغفلة صفة سلبية نفاها رب العِزة عن نفسه (فالله لا يغفل)، هذه الصفة من صفات السلب والنقص المنفية عن العزيز من كل وجه، بل إن له كمال العلم والإحاطة وكمال الهيمنة على القلوب والعقول (نفي لصفة السلب من كل وجه وإثبات كمال الضد؛ أي كمال العلم لله).

قوله تعالى: { أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾}.

{أَفَتَطۡمَعُونَ} قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، فيا أيها المسلمون الموحدون (الرسول ﷺ ومَن معه من الصحابة) هل تعتقدون أن هؤلاء القوم المعاندين الشُّداد يمكن أن يؤمنوا بما سيأتيهم من الحق الذي جاء من قِبَلِكُم؟! والهمزة في{أَفَتَطۡمَعُونَ} للاستفهام والمراد بها الاستبعاد والتيئيس، وقيل: للإنكار والتوبيخ، وعلى القول بأنها للإنكار والتوبيخ إلا أن فيها معنى الاستبعاد والتيئيس، أي تيئيس المسلمين من أن يؤمن لهم هؤلاء القوم.

ولكن ما هو الطمع؟

الرجاء المقرون بشدة الرغبة وقوة إرادة الشيء، وهناك من الطمع ما هو مذموم إذا كان في (مال، منصب، وغير ذلك من أطماع الدنيا)، وما هو محمود (شدة الرغبة والرجاء فيما عند الله تعالى) فيطمع العبد في رحمة الله وعفوه، والطمع في هذا الموضع هو طمع محمود، فالمسلمون لديهم رجاء ورغبة وإرادة، وبذلوا أقصى ما لديهم حتى يؤمن لهم هؤلاء إلا أنهم أَبَوا إلا العناد والشقاق.

{أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ} الإيمان لغةً: التصديق، أما شرعًا: فهو قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

{وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} (الواو): واو الحال، (قد): للتحقيق، والمعنى أن حال هذا الفريق (طائفة من الناس) وهم يسمعون كلام الله هو الإعراض، هذه الطائفة التي سمعت كلام الله الذي جاء به موسى عليه السلام وبالرغم من ذلك لم يذعنوا له.

- فلماذا قيل {يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ}؟ قيل: استعظامًا من الله لِمَا كانوا عليه، فبعد إقامة الحُجَج والبراهين عليهم لم يكن منهم إلا الإتيان بكل فعل مُشين، فهؤلاء القوم البُهت الذين أتوا بالبهتان بعد كل ما جاءهم من الحق لا فائدة تُرجى منهم، والخطاب هنا: المقصود به مَن كانوا في زمن موسى عليه السلام.

- **وعقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه يتكلم**، وأحيانًا

كان علماء السلف يضيفون (والله يتكلم بصوت وحروف)، فقال الإمام البخاري: (الله يتكلم بصوت) وكذا الإمام أحمد قال هذا، فلما سئِل عن لفظة (بصوت) وهي لم تأتِ في السنة؟ قال: لما زادوا زدنا، والمعنى: أنهم لما أنكروا أن الله يتكلم وأن الكلام ما هو إلا معنى قائم بذات الله، اضطررنا إلى أن نقول أن الله سبحانه يتكلم وبصوت (وهذا يسمى مقام تحقيق الإثبات)، فإذا كنت تنفي كلام الله فإنني أثبت كلامه، وليس هذا فقط بل إنه يتكلم بصوت وحروف.

ولماذا قيل: بصوت وحروف؟

لأن أهل اللغة أجمعوا على أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحروف، ولا يُشبه صوت الله بصوت المخلوقين مطلقًا حاشاه، فهو صوت يليق بجلاله وكماله، وإذا كان هناك تباين واختلاف بين أصوات المخلوقين فإن الاختلاف والتباين لا بُد أن يتواجد من باب أولى بين الخالق والمخلوق.

سؤال: هل السماع لكلام الله عز وجل كان مُباشِرًا منه سبحانه؟ أم أن الطائفة التي تحدثت عنها الآية سمعوا من موسى عليه السلام تلاوة التوراة؟

هناك قولان للعلماء:

١ ـ **القول الأول:** قالوا: سمعوا كلام الله بأنفسهم أي مباشرةً من الحق سبحانه، والدليل الأول على ذلك: ظاهر الآية والمعلوم أن

الظاهر مقدم على المؤول، والدليل الثاني: عند ذهاب موسى عليه السلام ليعتذر من الله سبحانه على ما حدث من بني إسرائيل من عبادة العجل وغير ذلك من الأفعال الشنيعة اختار من قومه سبعين رجلًا ليذهبوا معه لميقات الله عز وجل وحين كلم الله موسى عليه السلام سمع القوم كلام الرب سبحانه له، والدليل الثالث: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} كلمة فريق منهم دلالة على السماع المباشر؛ لأن السماع إذا كان المقصود به سماع التوراة من موسى عليه السلام فما الذي يُميز هذا الفريق عن باقي اليهود، فالكل سمعها منه ولا ميزة لهذا الفريق عن الباقين.

٢- **القول الثاني:** قالوا: إن الكلام كان عن طريق موسى عليه السلام ولم يسمعوه من الله عز وجل مباشرة، وإلا فما مزية موسى إن كان إسماعهم سيكون مباشرًا من الله، إلى جانب أن سماع صوت الحق سبحانه مزية عظيمة فكيف لهؤلاء بعد كل أفعالهم أن ينالوها؟! وأما دليلهم فهو: قال عز وجل: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦} [التوبة].

وهذه الآية نزلت في زمن النبي ﷺ وكان المقصود بها أن المشرك إذا استجار بأحد من المسلمين فعليه أن يُجِره حتى يسمع كلام الله، وهل كان المسلمون يسمعون كلام الله أم أنهم كانوا يسمعون من النبي ﷺ كلام ربهم.

فإذا كان دليل الفريق الأول هو (يسمعون كلام الله ويقولون إن الظاهر مقدم على المؤول) فهذه الآية التي نزلت في زمان النبي ﷺ ترد قولهم.

{ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ} التحريف: التغيير، ومنه قولهم: حَرَفْتُ الدابةَ، يعني: غيرت اتجاهها.

والتحريف نوعان: التغيير اللفظي. التغيير المعنوي.

١- **التغيير اللفظي:** استبدال شيء بآخر، وهذا ما وقع من بني إسرائيل بالنسبة للتوراة؛ فقد حجبوا آيات من التوراة ووضعوا عوضًا عنها نصوصًا من صُنع أيديهم وكأنها مجرد كتاب يحوي بعض النصوص التي يمكنهم أن يحذفوا منها ويضعوا فيها حسب أهوائهم {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} فقالوا: حنطة.

٢- **التغيير المعنوي:** وهو الواقع من المسلمين.

فالتغيير اللفظي لا يمكن أن يقع في القرآن؛ لأن مَن تعهد بحفظه هو ملك الملوك سبحانه، ولقد حرَّف أحبار اليهود كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموا أنه كلام ربهم وتأكدوا من ذلك، فإذا كان خاصة القوم (أحبارهم وعلماؤهم وكبراؤهم) هذا هو حالهم فما ظنكم أيها المسلمون بالسفهاء منهم؟!! (هؤلاء سيكون تحريفهم لما جاء في التوراة من تعاليم أبعد بكثير مما فعله أحبارهم وكذا التزامهم بها).

قوله تعالى: { وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ

إِلَىٰ بَعۡضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦}.

{وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} انتقل الحديث من الكلام عن يهود زمن موسى عليه السلام إلى يهود المدينة المتواجدين فيها على عهد النبي ﷺ مع بيان لأفعالهم القبيحة في هذا العهد، فقد كان منهم فريق منافق، وكذا من المشركين فريق على نفس الشاكلة، ولكن لماذا ظهر النفاق في المدينة؟

أولًا: لأن مكة لم يكن يقطنها الكثير من أهل الكتاب، أما المدينة فكانت موطنهم.

ثانيًا: ما الداعي للنفاق وقد كان المسلمون مُستضعفين في مكة، أما في المدينة وبعد أن قويت شوكة الإسلام ظهر النفاق، وذلك من أجل حماية أنفسهم من سيف المسلمين، فادّعوا أنهم مؤمنون بالنبي ﷺ وما أنزل عليه من عند ربه، وأنهم كانوا ينتظرون قدومه حتى يؤمنوا به!! وصفة الغدر صفة مُتأصّلة في اليهود ولهذا اعتقدوا أن المسلمين أيضًا من الممكن أن يغدروا بهم، ولهذا كانوا يدّعون الإيمان اعتقادًا أنهم بذلك سيأمنون من غدر المسلمين بهم.

{قَالُوٓاْ} هل القول باللسان أم أنه بالجِنان (القلب)؟ القول يكون باللسان والجنان (القلب)، أما العمل فإنه يكون بالجنان والأركان، واليهود كان قولهم بألسنتهم فقط؛ لأنهم كانوا منافقين، والمنافق

ينطق لسانه بما ليس في قلبه {قَالُوٓاْ ءَامَنَّا} لأن القلب مكذب لا يُصدق شيئًا من الدين.

{وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ} خلا: انفرد؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**»[١]. لكن في الآية قيل (إلى) {بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ} فلماذا جاء بـ (إلى) وكان من المقبول أن يقول خلا بعضهم ببعض؟ لأن حرف (إلى) يدل على الإيواء والتماسك والارتباط الذي بينهم؛ أي (إذا أوى بعضهم إلى بعض)؛ فاليهود مترابطون جدًّا فيما بينهم ليكوّنوا قوة واحدة، ومن ثَمَّ يستطيعوا القضاء على عدوهم (المسلمين)، أما (الباء) فإنها تدل على مجرد تجمع مجموعة من الناس مع بعضهم دون أن يكون بينهم تلك المعاني.

{قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ} استفهام للإنكار، فالحديث يدور بين اليهود حيث أن بعضهم يقول لبعض: كيف تذهبون للمسلمين وتُفْصِحون عن كونهم على حق، ونبيهم هو الخاتم، وكتابهم هو المهيمن، وأن التوراة أخبرتنا بأن دين محمد ﷺ هو الدين الحق، هل يُعقل أن يصدر هذا منكم؟! حتى لو كنتم تفعلون هذا حفاظًا على أرواحكم من الموت، هذه الأقوال التي خرجت منكم لهم سوف يُحاجوكم بها عند ربكم يوم القيامة، وبالتالي ستكون

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٣).

أقوالكم حجة عليكم في هذا اليوم.

{ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ} (اللام) هل هي لام العاقبة أم أنها لام التعليل؟

(اللام) هي لام العاقبة؛ لأن توبيخهم للذين قالوا الحق كان الغرض منه بعد ذلك هو بيان العاقبة، وليس التعليل لسبب التوبيخ؛ كقوله تعالى {فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨} [القصص] وهل كان التقاط آل فرعون لموسى عليه السلام ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا، أم أن العاقبة والمصير الذي صاروا إليه هو العداء والحزن؟ وكذا الأمر بالنسبة لهذه الآية: فالعاقبة بعد حديثكم مع المؤمنين أن كلماتكم ستصبح سلاحًا في أيديهم وبرهانًا وحجة ودليلًا أمام الله عليكم يوم القيامة، فقد جاءكم الحق وكنتم على دراية به ولكنكم أعرضتم ومنعتم أنفسكم من اتّباعه واستمرّ إصراركم على الكفر والجحود.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} توبيخ موجه من بعضهم لبعض على ما قالوه، ولكن هل هناك محاجاة عند الله؟ نعم، وعند الله تجتمع الخصوم.

انتبه: يا مَن تسمع فإياك والخصومة، إياك وأعراض المسلمين، إياك وسوء الظن بأهل العلم والفضل وخاصةً الذين شهد لهم الناس بالفضل والإحسان والكرم، إياك أن يستزلك الشيطان في باب الكلام عن أهل العلم والفضل على وجه الخصوص أو على المسلمين

بصورة عامة، واعلم أن الله ليس بغافل عن الصغيرة أو الكبيرة.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ
وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ
يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا
كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا
ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن
يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰۚ
مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم
مُّعۡرِضُونَ ٨٣ ﴾

فيا أصحاب البصيرة المطموسة والعقول المسلوبة أو لا تعلمون أن الله يعلم ما تسرون وما تعلنون، أنتم تتلاومون فيما بينكم وتعاتبون بعضكم، فهل اعترافكم للنبي ﷺ وصحابته بأن ما جاء به هو الحق أو عدم الاعتراف يُغيّر من الأمر شيئًا؟! إن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية؛ فالآية تتضمن السؤال: {أَوَ لَا يَعْلَمُونَ} استفهام، ولكن هل هو للتقرير أم للتوبيخ والانكار؟

١ـ **قد يكون للتقرير:** كقوله تعالى: { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١} [الشرح] أي شرحنا لك صدرك. {أولا يعلمون} أي نعم يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

٢- **وقد يكون للتوبيخ والإنكار:** توبيخ لأنهم أنزلوا أنفسهم منزلة الجاهل بصفات الله وعلمه وجلاله وهيمنته وعلوه على خلقه وأنه الإله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

كما أن الاستفهام إذا كان للتوبيخ والإنكار فسيكون أبلغ من أن يكون للتقرير؛ لماذا؟ لأنهم علموا ويعلمون أن هذا الدين هو دين الحق، وبالرغم من ذلك يتوارون عن الأنظار ويلومون بعضهم على اعتراف البعض منهم بأن هذا الدين حق، فهل لهذه الدرجة غفلتم وسُلبت عقولكم حتى تعتقدوا أن إخفاءكم أن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق سيبرئكم أمام الله سبحانه! لقد أنكرتم نبوة النبي ﷺ ولم تعترفوا به وكذبتموه، بل حاولتم قتله فهل بعد كل هذا ستنجون يوم القيامة لمجرد إخفائكم الاعتراف بالنبي ﷺ وأصحابه أن دينه هو الدين

الحق وأنه هو الرسول الخاتم؟!

- إذًا الاستفهام للتوبيخ والإنكار مع كونه مقبولًا للتقرير أيضًا.

{يُسِرُّونَ} هل المقصود بالإسرار هنا هو ما يدور بين جماعة اليهود سرًّا فيما يعلمونه من صفات النبي ﷺ الخاتم التي وردت في التوراة فيكتمونها فيما بينهم ولا يفصحون عنها، أم أن المقصود هو ما بداخلهم (أي في صدر كل واحدٍ منهم)؟ المقصود هو الاثنان معًا؛ أي فيما بينهم، وفي أنفسهم وداخل صدورهم، فكلا الأمرين يعلمه الله عز وجل.

قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾}.

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} في لغة العرب (الأُمِّيّ) هو الذي لا يكتب ولا يقرأ، وتبعًا لهذا القول يكون المعنى: هؤلاء القوم (اليهود) هم جماعة أمية لا يقرأون ولا يكتبون إلا أماني، والاستثناء (استثناء منقطع)، فالمستثنى ليس من جنس المستثنى منه؛ لأن الأماني مفردها أمنية، والأمنية لها معنيان:

أولًا: ما يتمناه الإنسان في نفسه، فإذا قلناها بهذا المعنى يكون الاستثناء منقطعًا؛ لأن عدم القدرة على القراءة والكتابة (المستثنى منه) ليس من جنس الأماني (المستثنى)؛ أي أن هؤلاء القوم لا يقرأون ولا يكتبون، والكتاب بالنسبة لهم مجرد أماني، ولكنها لن

تتحقق، وذلك مثل قولهم {نحن أبناء الله وأحباؤه}، {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى}. واستدل أصحاب هذا القول بمعنى كلمة أُمِّيّ في اللغة.

ثانيًا: تمنى بمعنى قرأ ويكون الاستثناء هنا متصلًا، فيكون المعنى أن منهم مَن لا يقرأ ولا يكتب ولكنه يقرأ قراءة سطحية أي بدون فهم، واستدل أصحاب هذا القول بالقرآن: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢} [الحج].

الشاهد: {إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ}: أي (قرأ) وهذا يعني أن الأمنية تأتي بمعنى القراءة، وهذا هو المعنى الثاني لهذه الكلمة، وبالتالي يكون الاستثناء متصلًا، فالمستثنى (أماني) من جنس المستثنى منه (أميون).

وأيًّا كان الاستثناء متصلًا أو منفصلًا فإنه يحمل التوبيخ لليهود على كلٍّ من الوجهين.

والسؤال: هل التوبيخ الموجه لليهود في هذه الآيات يتوجه أيضًا للمسلمين؟

ذكر أحد علماء السلف: أن الإنسان إذا قرأ كتابًا أيًّا كان فحواه فلم يفهمه، هل يمكنه أن يُجيب عن أي سؤال يُوجه إليه بخصوص

هذا الكتاب أو أن يخرج منه بفائدة؟ بالطبع لا. إذًا لا بُد أن يفهم الإنسان كلام الله عز وجل حين يقرأ الكتاب العزيز فلا يكتفي بالقراءة واكتساب الحسنات فقط، كيف يهتدي العبد من غير فهم؟! كيف يترسخ الهُدى في القلوب ويُسيطر على العقول بدون تدبر؟! فنجد الاستهانة عند سماع الكتاب وهو يُتلى، ونجد الاستهانة بعدم الفهم لِمَا يُقرأ من الآيات، والقلة القليلة هي التي تهتم بالقراءة والحفظ ومحاولة الفهم والتدبر.

ما يفعله المسلمون مع كتابهم هو صفة من صفات اليهود التي تَشَبَّه بهم المسلمون فيها، فكما كان اليهود لا يعلمون التوراة إلا أَمَانِيّ، فكذلك أغلب المسلمين اليوم لا يعرفون القرآن إلا أَمَانِيّ (إما قراءة من غير فهم، إما تمني دخول الجنة) ولهذا ختم الرب سبحانه وتعالى الآية بقوله {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}.

{وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} فما موضع (إن) هنا؟ موضعها هو موضع (ما) النافية، فما تحلمون به وتتمنونه لأنفسكم لن يكون، فيكون المراد (وما هم إلا يظنون) كقوله تعالى { إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} والمعنى (وما نحن إلا بشر).

ولذلك فإن مَن رجح القول الأول (الاستثناء منقطع) كان يستند في ترجيحه أيضًا إلى (أن) بمعنى (ما).

قوله تعالى: { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ

هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾}.

الآيات دلت على ذم بني إسرائيل لأفعالهم الشنيعة فقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ}: الويل لغة هو: الهلاك والدمار. وشرعًا: للعلماء فيه توجهات:

- قال البعض: هو صديد في أصل جهنم.

- وقال آخرون: وادٍ في جهنم.

- ولكن لا يوجد على المعنى الشرعي دليل، لذلك سنكتفي بالمعنى اللغوي.

- وفي الآية وعيد شديد من الله عز وجل لهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، وذُكرت كلمة {بِأَيْدِيهِمْ} تأكيدًا من الله تعالى على صفاتهم الخسيسة، فأراد تبيين أنّ هذه الكتابة مباشَرَة من أنفسهم وبأيديهم زورًا.

سؤال: هل التوراة هي الألواح؟

الجواب: للعلماء قولان في هذه المسألة:

١- **القول الأول:** التوراة غير الألواح. والدليل ظاهر الآيات؛ بأنّ الله تعالى ذكر التوراة في آيات، والألواح في آيات أخرى.

٢- **القول الثاني:** الألواح هي التوراة، والأدلة على ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف]. ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ (كل) من ألفاظ العموم، ففيها دليل على أن كل شيء كُتب في الألواح، ويدخل فيها التوراة.

ب - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**احْتَجَّ آدَمُ ومُوسَى، فقالَ له مُوسَى: يَا آدَمُ أنْتَ أبُونا خَيَّبْتَنا وأَخْرَجْتَنا مِنَ الجَنَّةِ، قالَ له آدَمُ: يا مُوسَى اصْطَفاكَ اللَّهُ بكَلامِهِ، وخَطَّ لكَ بيَدِهِ، أتَلُومُنِي علَى أمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَنِي بأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، ثَلَاثًا**»[١].

وأقوى مظاهر الاصطفاء لموسى عليه السلام- بعد أولي العزم من الرسل- أن الله تعالى خَطَّ له بيده. فدلّ ذلك على أن التوراة هي الألواح، والله أعلى وأعلم.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي شيء في الدنيا هو قليل الثمن من مال ورئاسة إلى غير ذلك؛ فالدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، ولكن العاقل هو الذي يدرك هذا.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وبَّخ الله تعالى بني إسرائيل بقول (الويل) ثلاث مرات تأكيدًا للتقريع

---

(١) صحيح البخاري (٦٦١٤).

والتوبيخ، ثم ذكر الفعل مجردًا {يَكۡسِبُونَ} لدلالته على الخبث بقرينة المقام لِما تقدَّم.

والآية بها إشارة لفضل القرآن وإعجازه، وعدم القدرة على الدسِّ فيه أو الحذف منه، فهو فضل من الله تعالى وشرف عظيم لهذه الأمة.

قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠}.

تبجُّح وتجرؤ على الله تعالى، فجمعوا بين الإساءة والأمن من مكر الله، جمعوا كل الصفات الذميمة والأفعال الدنيئة من الإساءة وقتل الأنبياء وتكفير الرسل والتعالي والتكبّر وغيرها، ومع ذلك يقولون {لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ}!!

{إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ} كل معدود مُنْقَضٍ، فحكموا على أنفسهم رغم جرائمهم بمجرد مسّ النار لأيام معدودة! والنار غيب، ولم يرها أحد منهم، والخبر عن غيب لا يُعلم إلا بوحي! فهل نزل جبريل بالوحي عليهم؟!! أو هل أخذوا على الله تعالى ميثاقًا لدخول الجنة؟!! أم أنهم قد كذبوا على الله عز وجل!!

وكثير من المسلمين الآن تلَبَّس بهذه الصفات (الإساءة والعصيان والإعراض) وفي الوقت نفسه أَمِن أمانًا كاملًا من مكر

الله عز وجل ومن عذابه! كيف تأمن وتطمئن وأنت مقيم على المعاصي؟! للأسف كل هذا ناتج عن الجهل بالدين وبأسماء الله وصفاته، وغرور بالنفس.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿بَلَىٰ﴾ حرف إضراب عن ما قبله وإثبات لما بعده. وتأتي (بلى) في حالتين (أشهر حالتين):

١- إما جوابًا لاستفهام فيه نفي (تؤكّد ما بعدها وتنفي ما قبلها)؛ قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] فسبقت باستفهام فيه نفي.

٢- أو في سياق ما يختص (بنفي) فتبطله (فلا يوجد هنا استفهام)؛ قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴿٧﴾﴾ [التغابن]؛ فجملة ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ نفي ولكن دون استفهام فتأتي (بلى) لتثبت ما بعدها وتنفي ما قبلها.

متى يكون الجواب بـ (بلى) و متى يكون بـ (نعم)؟

(بلى): تكون جوابًا لاستفهام فيه نفي، أو جوابًا لنفي وإبطال ما قبله وإثبات لِما بعده. و(نعم): لا تكون إلا جوابًا لاستفهام ليس فيه نفي. مثال: أكلتَ اليوم؟ الجواب: (نعم).

ما الفرق بين (بل) و(بلى)؟

(بلى) و(بل) شيء واحد، ولكن زِيدت (الياء) ليصح الوقوف عليها.

فائدة:

عند الوقف في الآيات يصح الوقف عند (بلى)، ولا يصح الوقف عند (بل).

{سَيِّئَةً} نكرة في سياق الشرط فَتَعُمّ الشِّرك وما دونه.

قاعدة: (النكرة في سياق الشرط أو الاستفهام أو النفي أو النهي تعُم)؛ أي: إذا دخلت على نَصٍّ فالحكم عام على جميع أفراده.

شبهات الخوارج في هذه الآية:

{بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ} كَفَّر الخوارج (كل صاحب سيئة) ومِن ثَمَّ مرتكب الكبيرة - وَفْقًا لتلك القاعدة- وأنه مخلد في النار! ودائمًا صاحب البدعة يتبع لَيّ النص أو بتره وجزِّه؛ وهذا ضلال مبين وسيُحاسب عليه.

الرد: {أَحَاطَتْ}: حوَّط المكان أي: لم يترك له منفذًا. أي الخطايا أحاطت به من كل جانب ولا منفذ للإيمان؛ وهذا ينطبق على الكافر وليس المسلم؛ فأصحاب النار ملازمون لها لا ينفكون عنها أبدًا، فلا يُقال هذا على (المسلم) من أصحاب النار مطلقًا؛ لأن عنده أصل الإيمان؛ فلا يخرج من دائرة الإيمان، فلا يصح تكفير مرتكب

الكبيرة من المسلمين، نعم هو على خطر عظيم، وينبغي تحذيره، لكن لا نُكَفِّره.

أما منهج أهل السنة والجماعة: فكل مَن مات على التوحيد فهو في مشيئة الله إما أن يعفو عنه ويدخل الجنة ابتداءً، وإما أن يقضي عذابه مدة في النار ثم يخرج منها ويدخل الجنة، ولكن لا يُخلَّد في النار.

*** سؤال: لماذا هذه الخطيئة تمحو الحسنات في قوله تعالى {وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ}؟**

الجواب: لأنه لا يبقى مع (الشرك) حسنة مطلقًا؛ قال تعالى: { وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾} [الزمر]؛ فإذا كان الخطاب للنبي ﷺ وهو ما له من المنزلة العظيمة عند الله عز وجل؛ فالأمة أولى بهذا التوجيه.

استطراد:

الله يعلم أن النبي ﷺ لن يُشرك، ولكن لماذا وجّه الله خطابه له؟ قال العلماء: تعليق الحكم بالشرط لا يَلزَم منه وقوع المشروط؛ قال تعالى:{ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾} [الزخرف] استحالة أن يتخذ الله سبحانه ولدًا، ولكن مثل هذه المناظرة في القرآن لإثبات -بالحجة والبرهان الساطع- أننا على الحق.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يذكر الله سبحانه وتعالى دائمًا آيات الوعد وآيات الوعيد حتى يكون المؤمن في اعتدال وتوازن من أمره، وبين الخوف والرجاء، فبعدما ذكر الله في الآية السابقة آيات الوعيد، ذكر في هذه الآية الوعد الذي وعده الله الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن بين خوف ورجاء؛ يفعل الطاعة مع عدم الأمن من مكر الله، ومن علامات مَن أَمِنَ مِن مكر الله: أن يكون متلبِّسًا بالمعصية ومستهينًا بها ويظل مُصِرًّا مستمرًّا عليها، فيظل كذلك حتى يموت، وكذلك لا ينبغي لمن أسرف على نفسه بالذنوب أن يقنط من رحمة الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان لغة: أصله التصديق. وشرعًا: قول وعمل.

شبهة: المرجئة (فرقة ضالة) تقول: إن الواو في الآية (للمغايرة)؛ أي إنَّ عطْف الأعمال الصالحة على الإيمان يدلُّ على المغايرة!! بمعنى أن الإيمان شيء، والعمل شيء آخر، فالعمل ليس لزامًا للإيمان ولا يدخل فيه!!

الرد: (الواو) أيضًا تقتضي التشريك في الحكم، وعطف الخاص على العام؛ ففي هذه الآية عطف العمل الصالح على الإيمان لبيان

أهميَّة الخاص وهو العمل الصالح، كما أن هناك نصوصًا كثيرة أخرى تدل على أن الإيمان قول وعمل لكن لا يتسع المقام لذكرها الآن. أما عقيدة أهل السنة والجماعة: فالإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولم يختلف منهم أحد في هذا أبدًا.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾}.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ} الآية إخبار في معنى النهي، وهو أبلغ من النهي الصريح؛ كما في قوله تعالى في سورة البقرة { وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ}؛ إخبار في معنى النهي الشديد (أي: إياك أن يضر كاتب أو شهيد).

- وفي هذه الآية على الرغم من أن الله عز وجل أخذ عليهم المواثيق {لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ} إلا أنهم تولّوا وأعرضوا قصدًا وعمدًا.

{لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ} بدأ الله عز وجل بأعظم الحقوق وأعلاها وهو (التوحيد)؛ عبادة الله وحده لا شريك له، والتي من أجلها أنزل الرسل، والتي بضياعها ضاع كل شيء.

{وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا} يدل على عِظم مقام البر؛ فقد ذُكر بعد التوحيد، فينبغي الانتباه لحق الوالدين؛ فعن أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ؛ جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: «**أُمُّكَ**»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «**ثُمَّ أبُوكَ**»(١).

{وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ} القربى: القرابة من الرحم والصُّلب. فأخذ عليهم الميثاق بعدما يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، أن يحسنوا إلى الوالدين والأقارب.

وعُطفت (القربى) على (الوالدين) لبيان أهمية صلة الأرحام.

ولا يصح بأي حال أن يقطع مسلمٌ رَحِمَه وإن أساءوا إليه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إليهِم وَيُسِيئُونَ إلَيَّ، وَأَحْلُمُ عنْهمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهم ما دُمْتَ علَى ذلكَ**»(٢).

{وَٱلْيَتَـٰمَىٰ} جمع اليتيم؛ واليتيم هو مَن مات أبوه دون سن البلوغ، فلا يستطيع التكسُّب.

{والمساكين}: الذين لا يملكون النفقة على أنفسهم.

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٧١).
(٢) صحيح مسلم (٢٥٥٨).

{وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا} بالكلمة الطيبة ولين الجانب وإدخال السرور عليهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحسنى.

قال الحسن البصري: الحُسْن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله.

وعن أبي ذر الغفاري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ**»[١].

لقد أمر الله عز وجل بالإحسان الفعلي {وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ}، ثم أمر بالإحسان القولي {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا} فجمع بذلك بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بما يعين على ذلك وهو {وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، {وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ} الأمر بالإحسان إلى خلقه، وكل هذه أوامر كانت لبني إسرائيل فتركوها وراء ظهورهم وأعرضوا، فكانت العقوبة والنكال الشديد عليهم بخلودهم في النار.

فائدة:

يقول ابن القيم: (قال قائل: أراني إذا دعيت باسمي دون لقبي شق ذلك عليَّ جدًّا بخلاف السلف فإنهم كانوا يدعون بأسمائهم، فقيل له: هذا لمخالفة العادات؛ لأن أُنس النفوس بالعادة طبيعة ثابتة ولأن

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٢٦).

الاسم عن السلف لم يكن عندهم دالًّا على قلة رتبة المدعو، واليوم صارت المنازل في القلوب تعلم بأمارة الاستدعاء، فإذا قصر دل على تقصير رتبته، فيقع السخط لما وراء الاستدعاء، فلما صارت المخاطبات موازين المقادير شق على المحطوط من رتبته قوة كما يشق عليه فعلًا).

.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ
وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن
دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ
تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ
وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ
أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ
بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

- بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن من أكبر الكبائر بعد الشرك به: قتل النفس؛ فهو أمرٌ عظيم عنده سبحانه.

{لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ} فما هو السَّفك؟ السفك هو الصَّب المتتابع للدم، وليس المقصود هو قتل النفس، ولكن المقصود هو الامتناع عن قتل أخيه الذي هو على مِلَّته (دينه) وهذا من المواثيق التي أخذها الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل، وهذا كقوله تعالى: { وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴿١١﴾} [الحجرات]، فلا أحد يلمز نفسه، ولكن المقصود أن المسلم يمتنع عن لمز أخيه في الإسلام، فجاء التعبير بهذه الصورة لبيان شدة الأمر وصعوبته.

إذًا المراد من قتل النفس في هذه الآية وجهان:

الوجه الأول: أن قتل أبناء الملة الواحدة لبعضهم هو بمثابة قتل الواحد منهم لنفسه.

الوجه الثاني: هو أن لا يقتل الواحد منكم أخاه حتى لا يُقاد منه قصاصًا؛ أي لا تُعرض دمك للسفك نتيجة قتلك لأخيك فيُقتص منك (والله تعالى أعلى وأعلم).

{وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ} وفي هذا تأكيد للمعنى الأول، فلا أحد يُخرج نفسه من بيته بل إن مَن يُخرجه هو شخصٌ آخر مُعتدٍ عليه.

وبعد أن ورد ذكر واحدة من أكبر الكبائر عند الله وهي (سفك

الدماء) ورد ذكر أمر من الأوامر الصعبة أيضًا وهو (الإخراج من الديار)؛ لأن أصعب شيء على الإنسان هو إخراجه من بيته فهو أمرٌ صعبٌ على النفس؛ وقد قال الله سبحانه في سفك الدماء (أنفسكم)، وفي الإخراج من البيت (أنفسكم) وهذا لبيان أن الأمر شديد في كلٍّ منهما.

{ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ} لقد اعترفتم بالميثاق الذي أُخِذَ عليكم ابتداءً {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ} وغير ذلك من المواثيق التي أُخِذت عليكم، ولكنكم نقضتم كل هذه المواثيق وخرجتم عن طاعة الله عز وجل وأصررتم على عصيانكم وضلالكم وأنتم تشهدون على أنفسكم.

{وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} تأكيد على أفعالكم البشعة حيث أنكم تعرفون كل هذه المحرمات وكونها محرمة عليكم وقد أخذ ربكم عليكم المواثيق والعهود، ولكنكم نقضتم كل هذه المواثيق وفعلتم الأفاعيل وأنتم تشهدون على أنفسكم (كمَن يشهد على نفسه).

فأنتم يا مَن تعيشون في زمن النبي ﷺ شهود على أسلافكم من اليهود، بل أنتم أيضًا تدخلون في هذا الذم الذي طالهم؛ لأنكم سِرْتُم على خُطاهم وكأن هذه الصفات البشعة قد توارثتموها جيلًا بعد جيل.

قوله تعالى: {ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا

مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥}.

{ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ} الخطاب لليهود الحاضرين وقت نزول القرآن لا يهود زمن موسى عليه السلام، والدليل قوله تعالى {هَٰٓؤُلَآءِ} لأن هؤلاء اسم إشارة، واسم الإشارة لا يكون لغائب بل لا بُد أن يكون مُشارًا به إلى حاضر.

{هَٰٓؤُلَآءِ} الخطاب بـ (هؤلاء) للدلالة على أمرين:

١- أن المقصود بالخطاب هم يهود المدينة.

٢- أن المقام مقام تعجب من حال المخاطب، فقد كان حال القوم عجيبًا! (وهذا أسلوب من أساليب العرب).

{تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ} سبق القول أن المقصود هو قتل بعضهم البعض، والآيات الدالة على ذلك كثيرة. أما الواقع فقد كان يشهد هو الآخر بذلك؛ فقد كانت المدينة قبل قدوم النبي ﷺ إليها يسكنها قبيلتان: (الأوس، الخزرج)، واليهود انقسموا في هذا الحين إلى ثلاث طوائف وهم: (يهود بني قينقاع، يهود بني قُريظة، يهود بني النضير)، وكانت هناك تحالفات بين كل قبيلة من القبيلتين بطائفة من

طوائف اليهود، وبالتالي كانت بينهم معاهدات تقتضي مناصرة الحليف ولو كان على حساب بني مِلَّتِه، فإذا حدث اقتتال بين القبائل (وكثيرًا ما كان يحدث هذا عند أتفه الأسباب) كان اليهودي يقف ضد أخيه وربما يقتله، فإذا ما انتصرت إحدى القبيلتين على الأخرى وأرادت أن تُجلي اليهود عن قطعة من الأرض فإن اليهودي المتحالف مع هذه القبيلة يشترك معها في إجلاء إخوته من اليهود (وهم من بني ملته)!! ولهذا جاء خطاب القرآن بقول {أنفسكم} وذلك لبيان عدم جواز فعل ذلك بين أبناء المِلة الواحدة، والحديث وإن كان موجهًا لبني إسرائيل إلا أنه يُقصد به كل مَن ينتمون لملة واحدة.

{وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ} وفي نفس الوقت الذي يقتلون فيه بعضهم البعض ويُخرجون بعضهم من ديارهم يسعون لدفع فدية اليهودي الذي أُسِر نتيجة نشوب الحرب!! وهذا الفعل مذموم أيضًا.

لقد حرَّم ربكم عليكم سفك دماء بعضكم ولكنكم سفكتم دماءكم، وحرّم عليكم إخراج بعضكم من دياركم ولكنكم فعلتم ذلك أيضًا، فلماذا عندما يُؤسر بعضكم تُسارعون لدفع الفدية وفك أسره؟!! فذمهم الله عز وجل غاية الذم على تلك الأفعال.

{أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ} أي لماذا استبحتم دماءكم، واستبحتم إجلاء بعضكم عن ديارهم، وحين وضعت

الحرب أوزارها، وأصبح هناك أسرى من اليهود والمشركين أسرعتم لافتداء الأسرى من اليهود؟!!

فالآية تحمل توبيخًا شديدًا لأن الإنسان في حاله مع الله لا يجوز أن يؤمن بأشياء ويترك أشياء! ولذلك أجمع أهل السنة على أن الإنسان إذا كفر بآية واحدة أو حكم واحد فكأنما كفر به كله، لماذا؟ لأن الله تعالى قال: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} لقد أخذوا جزءًا من أوامر الله ورفضوا أجزاء أخرى وهذا مما لا يجوز فعله، بل على الإنسان أن يقبل كل أوامر الله ويتجنب كل النواهي.

فائدة:

ولكن هل معنى ذلك أن مَن يمتثل لأوامر الله في أمور ويعصيه في أمور أخرى أنه كافر؟ لا، ليس هكذا ولا يجوز قول ذلك، ولكن المقصود أن مَن يتأرجح بين الطاعات والمعاصي هو على خطر عظيم، ومَن يقبل أحكامًا من الدين ويرفض أخرى فإن هذا يُدخله في قوله تعالى {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}؛ لماذا كفر بنو إسرائيل؟ لأنهم ردّوا الأحكام والأوامر على الأنبياء (حكم الله) ولم يقبلوها، فحُكِم عليهم بالكفر، وردهم الحكم والأمر كان ردَّ عنادٍ واستكبار وليس ضعفًا كمَن يقع في معصية.

فعلى العبد أن يعلم أنه ليس هناك تكليفٌ صعب، ولكنه الصدق

والعزم فقط، والذي يدّعي أن هناك عملًا صعبًا من أعمال الدين يكون الرد عليه: أنه لم يقرأ كتاب الله جيدًا، ولم يفهم عن ربه سبحانه الحكيم؛ فالصعوبة تكمن في النفس؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يستقيم فعليه أن يُجاهد في صدق النية وصدق العزم.

{فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ} فما الجزاء المترتب على هذا الذي فعلوه؟ الخزي في الدنيا، ويوم القيامة يُردون إلى أشد العذاب. لكن ما هو الخزي؟ الخزي هو الذل في النفس، وهو طارئ عليها (مُفاجئ) لإهانة لحقتها أو معرَّة أصابتها، فتكون في حالة من الذل والانكسار أمام الناس.

هذا بالفعل حدث لهؤلاء عندما أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة نتيجة نقضهم العهود والمواثيق التي كانت بينهم وبينه؛ فقتل منهم مَن قتل، وسبى منهم مَن سبى، ثم أجلى مَن تبقى منهم.

{وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ} أي لا يغفل الله سبحانه وتعالى عن أي شيء، ولا يغفل يا معشر اليهود عما تعملون.

قوله تعالى: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦}.

وفي هذا بيان لحالهم أيضًا فمَن هؤلاء؟ هؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فقالوا إنهم لا يستطيعون التخلي عن حُلفائهم أو

الامتناع عن إعانتهم ولو كان هذا على حساب دينهم؛ لأنهم يخشون أن يلحقهم العار.

فالتحالف الذي كان بينهم وبين المشركين أوجب عليهم أن يقتل اليهودي أخاه (اليهودي الموجود في الجهة المقابلة) وأن يخرجه من داره أيضًا إذا تطلب الأمر ذلك، هؤلاء خافوا من العار فاختاروا النار.

وهل هذا الأمر يحدث مثله الآن؟ نعم، يحدث كثيرًا؛ فكثيرًا ما نجد مَن يُفضِّل أن لا يُعيَّر في الدنيا ولو كان هذا يُوصله إلى النار (هذا منطق الكثير من المسلمين اليوم) اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لقد أعرضوا عن الدين بالرغم من التمكين والقُدرة على تحصيل الدين، فلا أحد غير قادر، ولكن هناك مَن لا يُريد!

{وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ} ليس لهم من دون الله ولي ولا نصير، ولن يُدفع عنهم العذاب أو يُخفف ولو ليومٍ واحد، والجميع سيُحاسب؛ كلٌّ بحسب عمله.

قوله تعالى: { وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧}.

نَعَت الحق سبحانه بني إسرائيل (بالعتو، والعناد، والاستكبار،

والمخالفة، وقتل الأنبياء، والتكذيب لهم، واتباع هوى أنفسهم) وتلك صفات ذميمة، وبيَّن أنهم قوم لا يستجيبون لأي شيء يأتيهم من عند الله تبارك وتعالى.

{وَقَفَّيْنَا} أي أتبعنا وأردفنا؛ كقوله تعالى { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴿٤٤﴾} [المؤمنون] أي: رسول بعد رسول، وكل هؤلاء أُرسلوا لبني إسرائيل من أجل أن يستقيم أمرهم على شريعة ربهم.

{وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ} عيسى ابن مريم عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد جاء بالإنجيل، والإنجيل كان فيه مخالفة لبعض الأحكام الواردة في التوراة، ولهذا بدأ اليهود في إضمار الحسد لـ (عيسى) والعداوة له عليه السلام.

وقد أعطاه الله آيات بينات تدل على نبوته حتى لا يجد بنو إسرائيل وجهًا للاعتراض على تلك النبوة، وبالرغم من ذلك جاء اعتراضهم فقالوا: كيف يأتي بما يخالف ما جاء في التوراة؟! وذلك اتباعًا منهم لهوى أنفسهم.

{وَأَيَّدْنَٰهُ} أي: قوَّيناه وأَعنَّاه.

{بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ} للعلماء في تفسيره قولان:

١- الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام. ولكن هذا قولٌ ضعيف لماذا؟ قال تعالى: {إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ

وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾} [المائدة].

هذه الآيات تُبين أن الله تعالى أيَّد نبيَّه بروح القدس، ثم ذكرت الآية أن الله أعطاه الإنجيل، وبالتالي إذا كان المقصود كما في القول الأول يكون في الآية تكرار!! والقاعدة المعمول بها هي (التأسيس أولى من التأكيد) فإنْ أمكن أن يكون الكلام في التفسير تأسيسًا (أي احتمال اللفظ لمعنى جديد) يكون أفضل من أن يكون تأكيدًا.

٢- جبريل عليه السلام. والدليل من القرآن هو آية سورة المائدة {أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ} ثم ورد فيها أيضًا بعد ذلك {وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ} فإذا سلمنا بالقول الأول يكون هناك تكرار ليس له داعٍ.

أما دليل السُّنة: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِمًا يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ قَالَتْ: يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا يُفَاخِرُ، أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ**

ﷺ»[(١)].

الشاهد: أن روح القدس هو جبريل عليه السلام.

{أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ} لقد فعلتم مع موسى عليه السلام الأفاعيل وبعد موسى جاءتكم رسل ربكم تترى فقتلتم البعض منهم وآذيتم البعض وفعلتم معهم ما لا يليق ولا يجوز أن يُفعل بأنبياء الله سبحانه.

{أَفَكُلَّمَا} فهل سيكون هذا هو حالكم دائمًا؟ وهذا دليل على الاستمرار والتكرار، فهم يتبعون هوى أنفسهم، هؤلاء أصبحوا عُبَّادًا لأنفسهم لا عُبَّادًا لله.

وقفة:

العابد لله لا يختار لنفسه بل يترك الاختيار لربه فهو وحده سبحانه الذي يُقدّر الخير لعباده ويختار لهم، أما اختيار البشر لأنفسهم فإنه لا يخلو من الشر؛ لأن صفات النفس بطبيعة الحال تتميز بالعجز والضعف والقصور الذي يجعلها عاجزة عن الاختيار السليم.

قوله تعالى: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٤٦).

مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾}.

عَلّل القوم جحودهم وتركهم لطاعة الأنبياء والإقبال على قتلهم وكفرهم بهم بعلة داحضة ألا وهي: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} الغلف: أي الغطاء؛ وكأنهم قالوا إن على قلوبنا غطاء، وهذا الغطاء هو المانع من أن يفقهوا ما يقوله النبي ﷺ!! كان هذا هو ادّعاؤهم، أما حقيقة الأمر فبيَّنها الله بعد ذلك في قوله تعالى {بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}؛ (بل) حرف إضراب؛ يضرب عما قبله ويُثبت ما بعده، ولهذا فإن القضية ليست في القلوب التي غطتها الأغلفة كما يدّعون، وإنما هو كفرهم الذي عاد عليهم بلعن الله لهم.

{فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} هل المعنى هنا أن إيمانهم قليل؟ أم أن المؤمنين منهم قِلّة؟ هناك قولان للعلماء:

١- المعنى أن إيمانهم قليل؛ لأن قليلًا نعت لمصدر متروك تقديره (فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا) فدل على أن هؤلاء إيمانهم قليل.

٢- المعنى أن المؤمنين منهم قِلة، ورد عليهم أصحاب القول الأول بأنه لو كان المقصود (قلة منهم مَن يؤمنون) لكانت الكلمة ذكرت بالرفع (فقليلٌ) ولكنها ذكرت منصوبة (فقليلًا).

سؤال: المعلوم بنَص القرآن والسنة أن اليهود كفار مُخلدون في النار فما المقصود إذًا بنسبة الإيمان القليلة المذكورة؟

الجواب: الإيمان لغةً: التصديق، وشرعًا: قول وعمل؛ إذًا

الأصل فيه التصديق: واليهود كان لديهم تصديق ببعض الأخبار كـ (وجود الله، واعترافهم بالجنة والنار، والثواب والعقاب) فإيمان القوم كان بهذه الأمور ولكنهم في نفس الوقت كفروا بالنبي ﷺ وهو خاتم النبيين الذي جاء بالرسالة الخاتمة.

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِي الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ**»(١).

فالقلوب أربعة:

١- **قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ:** وهذا هو قلب المؤمن، صافٍ طاهر، خالٍ من الشهوة التي تتسبب في الإعراض عن أمر الله، ومن الشبهة التي تُشكك في طاعة الله وأوامره، فهو قلب يتلألأ بنور الإيمان واليقين والحب وكل ما يُرضي الرب سبحانه.

٢- **وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ:** وهذا هو قلب الكافر، غُلِّف

(١) مسند أحمد (١١١٢٩).

ووضعت عليه الأربطة أيضًا.

٣- **وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ:** وهو قلب المنافق، الذي عرف ثم أعرض وأنكر، وهل يوجد من هذا الصنف؟ نعم هناك الكثير من الناس يحملون هذه القلوب، فالكثير يعرف الحق ويعرف الأوامر والنواهي (معرفة- فهم- شهادة) ولكنهم نكصوا على أعقابهم فعرفوا ثم أنكروا.

٤- **وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ:** وهذا القلب جمع بين الإيمان والنفاق، فهو ما بين الإيمان تارة والنفاق تارة، ما بين الطاعة والمعصية.

والسؤال: هل يمكن أن يجمع المسلم بين الإيمان والنفاق؟

الجواب: نعم، يمكن إذا كان نفاقًا عمليًّا وليس عقديًّا، ولكنه على خطر؛ لأن الإيمان يمده والنفاق يسحبه، فعلى أيهما سيموت! وهذا هو الخطر الذي يستهين به الكثير من المسلمين، فهم ما بين الطاعة والمعصية ولا يدري على أي شيء سيُقبض.

- اليهود قالوا: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} بالفعل أنتم قلوبكم قلوب غُلف؛ قلوب كافرة، وقوله: {فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ} ليس معناه الإيمان الذي يُنجي، ولكنه يعني الإيمان ببعض الأشياء التي لن يُنجيهم الإيمان بها، وفرقٌ بين مَن يؤمن ببعض الأشياء ويكفر ببعضها، وبين مَن يؤمن إيمانًا كاملًا ولكنه يقع في المعصية ضعفًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا
مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا
جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا
ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن
فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا
لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ٩١ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ
ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ
وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ
بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣ ﴾

{وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ} كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ يتعالون على المشركين ويتباهون بأن منهم الأنبياء وأنه سيُبعث فيهم نبي، وهذا ما تقوله التوراة! كما أنه بمجيء هذا النبي سوف ينتصرون على المشركين ويهزمونهم وسيصبحون من أعظم الأمم!!

- هذه الآيات تحمل حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم للنبي ﷺ، فأنتم كنتم تستفتحون على المشركين، والآن جاءكم النبي ﷺ بنفس الصفات التي ذُكرت في التوراة؛ فإما أن استفتاحكم بهذا النبي كان كذبًا (وهذا مُحال لأنكم بذلك تُكذبون التوراة)، وإما أنكم تجحدون نبوته (وهذا أيضًا مُحال إذ كيف تستفتحون به وتُكذبونه وتجحدون نبوته في نفس الوقت) ولكن عند بني إسرائيل لا شيء يصعُب حدوثه!

قاعدة (استسلاف المقدمات):

هذه طريقة بها يعرف المناظر كيفية إقامة الحجة على مَن يُناظره وذلك من خلال ما سبق أن نطق به لسانه هو (وكأن كلامك أنت حجة عليك).

فما هي المقدمات الخاصة بهم؟

هؤلاء استفتحوا على العرب والمشركين وقالوا: إنه سيُبعث

رسول في هذا الزمان، وذكروا جانبًا من صفاته التي وردت في توراتهم، هذا الاستفتاح معناه الاعتراف به ومن ثَمّ الإيمان به ولا بُد، فإن ظهر أمام أعينكم فليس أمامكم سوى أحد أمرين: إما الاعتراف به (إقرار بنبوته/ وإقرار بما ورد في التوراة)، وإما العناد الصريح؛ فلا تعترفون به بل تكذبونه؛ وهذا يعني أنكم كنتم كاذبين في بداية الأمر. وقد سبق لكم أن ذكرتم صفاته التي وردت في التوراة وتكذيبكم له الآن يعني تكذيبًا للتوراة أيضًا، ومن المحال أن يجتمع الاستفتاح به وعناده.

{فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ} لعن الله سبحانه الكافرين بصفة عامة، واللعن ورد بالوصف لا بالعين، فلا يجوز لعن أحد بعينه؛ لأن قلوب العباد بين يدي الله عز وجل يُقلبها كيف يشاء، وهذا الذي دعوت عليه أو لعنته قد يهتدي في وقت لاحق ويتوب فيتوب الله عليه، وإذا قيل: ولكن اللعن ذُكر كثيرًا في السنة: هذا صحيح ولكنه ورد بالوصف لا بالعين.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ**»

قَالَهَا ثَلاثًا[(١)].

كان من الممكن أن يُقال: (فلعنة اللَّه عليهم) لأن المعنى مفهوم من السياق، ولكنه سبحانه أظهر وقال {فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ} إذًا فهو إظهار في موضع الإضمار، فلماذا؟ جاءت هكذا من أجل تعميم الحكم بالوصف (فَيَعُم كل كافر تنطبق عليه تلك الصفة)؛ ثم بيَّن الله عز وجل سببَ هذا اللعن.

قوله تعالى: {بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾}.

{بِئْسَمَا} كلمة جامعة لكل أصناف المذام، كما أن كلمة (فضل الله): كلمة جامعة لكل المدائح؛ فكل فضل الله عظيم وجميل، وكله رحمة.

{ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ} فقد قدموا حظوظ النفس وهواها وآثروا العاجل على الآجل ولم يلتفتوا لمآلات الأمور، لقد اشترى القوم المتاع القليل مقابل جنات عرضها السماوات والأرض.

والسؤال: هل اشتروا هنا بمعنى شراء النفس أم بيعها؟

* **قيل**: أَبْقُوها على ما هي عليه من الكفر؛ حتى لا يكونوا

---

(١) مسند أحمد (٢٩١٥)

تابعين للنبي ﷺ وحتى تظل أهواؤهم هي المُسيِّرة لهم، فهم يرون أنهم لا بُد أن يظلوا متبوعين لا تابعين!

* **وقيل**: اشترى بمعنى (باع)؛ لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان وبذلوا أنفسهم للهوى فخسروا خسرانًا مبينًا.

- ثم بيّن الله سبحانه سبب كفرهم: ألا وهو البغي؛ {بَغْيًا}: والبغي كلمة تدور حول (الظلم، الكبر، مجاوزة الحد، الاستطالة على الناس، الحسد) كل تلك المعاني تندرج تحت كلمة البغي.

فاليهود حسدوا النبي ﷺ على نبوته، فقالوا (لماذا تتحول النبوة إلى بني إسماعيل (العرب) بعد أن كانت في بني إسحاق؟)، وإذا كانت تلك دعواكم فهل حافظتم على الرسل الذين أُرسلوا فيكم وكانوا منكم أم أنكم آذيتموهم وقتلتموهم؟! tاليهود لم يعتصموا بالله سبحانه ولكنهم تركوا العنان لأنفسهم فجمحت بهم وتطلعت وبغت وطغت وحسدت ورفضت شرع الله وقتلت أنبياءه!!

فائدة:

النفس كالفرس الجموح تجمح ولكن في فضاء العصيان والنكران والشر والبغي وكل نقص، وبالتالي لا ينبغي للعبد أن يترك نفسه لتنطلق كيف تشاء ولكن عليه أن يمنعها ويزجرها حتى تتكف عن المعاصي بل عليه أن يُلزمها بهذا ولا يحاول أن يستند إلى حجة الضعف أو عدم القدرة أو الحياة الصعبة، كلها كلمات شيطانية

يُحاول الشيطان بها أن يتلاعب بالإنسان.

{أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ} (ينزل): فعل مضارع يدل على الاستمرار، وفيه إشعار بتمادي نزول الخير على المؤمنين واستمرار الغيظ للكافرين، فكلما نزل الفضل (الخير، العطاء، الإحسان، النعيم) كلما ازداد غيظ الكافر. وفي هذا بشرى لعباد الله الموحدين بتوالي نزول الخير واستمراره رغمًا عن أنف كل أعداء الله (يهود أو مشركين) {يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾} [الصف].

{فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ} **الغضب الأول:** أنهم حسدوا النبي ﷺ فأبوا أن يُذعنوا له، وكانت حجتهم أنه كان من العرب!! والحقيقة بخلاف ذلك؛ لأن الأنبياء السابقين على الرغم من أنهم كانوا من بني إسرائيل لكنهم أيضًا فعلوا معهم الأفاعيل، حقيقة الأمر إذًا أنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ على مكانته.

الغضب الثاني: كان بسبب عنادهم وكفرهم بأنبياء الله عز وجل من قبل محمد ﷺ.

{وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} وهنا أيضًا يتكرر الإظهار في موضع الأضمار؛ لماذا؟ للإشعار بِعِلِّيَة كونهم في العذاب المهين؛ أي العِلّة التي استوجبوا بها ذلك، وهو الكفر؛ الكفر بالله وكتبه ورسله، والكفر بما يجب الإيمان به.

علّق الحكم الذي استحقوه بوصف معيَّن يُبين أنه فيهم، فقال {لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}؛ فهؤلاء الذين كفروا بالنبي ﷺ وبنبوته لهم عذاب مهين، ذكر ذلك حتى لا يعتقد أحد أن كل اليهود باءوا بغضب على غضب، فالبعض منهم أسلموا مثل: عبد الله بن سلام وغيره.

وسبق القول أن العذاب المهين لا يأتي إلا في حق الكافر، وهذا العذاب الذي نالهم أو سينالهم كان نتيجة غضب الله عليهم.

والسؤال: هل الله سبحانه يغضب؟

الجواب: نعم، وهذه الصفة من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة.

- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ**- يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِهِ-، **اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسولُ اللَّهِ في سَبِيلِ اللَّهِ**»(١).

وَقَالَ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(٢).

فصفات الرب سبحانه ثابتة بالكتاب والسنة وهذا ردًّا على مَن ينكرها، فيقول البعض إن الغضب انفعالات نفسية، وهذا قياسًا منهم على صفات البشر!!

فهذا خطأ وحرام وغير جائز، إن غضب الخالق ليس كغضب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٣)، ومسلم (١٧٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٣)، ومسلم (١٧٩٣).

المخلوق؛ لأن الله سبحانه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى] فالله يغضب غضبًا يليق بجلاله وكماله وعظيم سلطانه.

فائدة:

منشأ معظم الذنوب -إذا تأملنا فيها- نجده (الكِبر)!! هذا المرض القلبي الذي لا ينجو منه إلا القليل، وهو يصيب الإنسان دون أن يشعر، وخطورة هذا المرض القلبي تكمن في أنه يدفع صاحبه إلى الحسد والوقوع في الغيبة ورفض الحق والانتصار للنفس وإن كان على خطأ؛ ولذلك قال ربنا سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر] فمعنى (داخرين) أي: خاضعين، صاغرين، أذلاء؛ لأنهم كانوا في الدنيا يتكبرون عن عبادة الله، فوصل بهم الكبر إلى درجة الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾.

ذكر مرة أخرى قبائح اليهود مع رسل الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (ما) تأتي في القرآن على حوالي اثني عشر استعمالًا؛ ومن استعمالاتها أن تأتي (موصولة)، وهي هنا: موصولة بمعنى

الذي، تفيد العموم؛ أي وإذا قيل لهؤلاء اليهود آمِنوا بكل ما أنزل الله تعالى على رسوله من الحق والهدى، فأوجب عليهم الإيمان بالله وبكل ما جاء به موسى ومن بعده محمد ﷺ، فلا يُقتطع أو يُترك منه شيء!

{قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ} فكان ردّهم أنهم لن يؤمنوا إلا بموسى عليه السلام، وأنبيائنا من بعد موسى! وهم في الحقيقة كاذبون؛ فقد اعترضوا على الإنجيل ومن بعده القرآن! ولقد ذمّ الله عز وجل فِعْلهم لأن واجب الإيمان يُحتم على الإنسان أن يأخذ شرع الله كاملًا دون اقتطاع أو نقصان.

{وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا} إشارة لما يجب عليهم من اتباع النبي ﷺ وذلك من وجوه:

١ـ حق نبوته ﷺ؛ وقد أيّده الله تعالى بمعجزات تؤكد أن القرآن من عند الله؛ ولكنهم مع ذلك أعرضوا!

٢ـ أنه مصدق لما معكم من التوراة؛ فقد قال تعالى: {مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمۡ} وفيها تقرير؛ فالنبي ﷺ كان أميًّا، وكان لا ينطق عن الهوى، وما يخبره لأحبارهم كان مصدّقًا لما معهم من التوراة، كما أن التوراة أيضًا ذكرت نبوة محمد ﷺ.

{قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} تبكيت لبني إسرائيل ونوع من أنواع المناظرة والانتقال معهم من حال إلى

حال؛ ليبيّن فساد عقولهم وأحوالهم وخبايا نفوسهم الفاسدة المعاندة.

- فلو كنتم صادقين في دعواكم فلِمَ سعيتم في قتل زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام؟! بالرغم من أنه موجود عندكم في التوراة أنه لو أتى رسول بمعجزة وتيقّنتم أنه من عند الله فَقَتْلُه كفر!!

{فَلِمَ تَقْتُلُونَ} لِمَ جاءت صيغة الفعل المضارع للمخاطب في عهد النبي ﷺ (تقتلون) مع أنهم لم يقتلوا الأنبياء في عهد النبي ﷺ، ولم يكن هناك أنبياء غير النبي ﷺ؟! فالقتل كان في أسلافهم؟! فما وجه الجمع؟

قال العلماء: استعمال لفظة المضارع من الفصاحة والبلاغة والإعجاز؛ فالفعل المضارع على صفة الملازمة؛ فهؤلاء لديهم من قبح الأفعال (الكذب والافتراء والمبالغات في التشنيع على الأنبياء) حتى أصبحت صفة ملازمة لهم وإن لم يقتلوا في عهد النبي ﷺ. كما يدل على استمرار أفعالهم المشينة الشنيعة السيئة في تركيبهم وتبجحهم وعصيانهم وتجرئهم.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾}.

{وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ} الجملة استئنافية، ومعناها أن الجملة التي تأتي بعد الواو- والتي تسمى الواو الاستئنافية - ليست متعلقة بما قبلها من حيث المعنى أو الإعراب؛ فسينتقل الكلام إلى معنى

جديد لا يتعلق بالكلام الذي ذُكر قبله.

وفي الجملة عدة مؤكدات:

- **لام للتوكيد (لـقد)**؛ وقيل: اللام للتوطئة (أي: التهيئة بأن الجواب الذي سيأتي بعدها مبني على القسم الذي قبلها).

- **(قد)**: للاستحقاق، وقد: تأتي في الماضي للتحقيق، وفي المضارع للتقليل غالبًا.

{بِٱلۡبَيِّنَٰتِ} هنا محذوف تقديره (بالآيات البيّنات).

(البينات): العلامات الدالّات؛ وقد تم ذكر عددهم في سورة الإسراء مجملًا، وهم تسع آيات { وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴿١٠١﴾}.

- ثم ورد تفصيل هذه الآيات في مواضع متفرقة وردت في: الأعراف- النمل- طه- الشعراء- الصافات. والآيات هي: (العصا، السنون، اليد، الدم، الطوفان، الجراد، القُمّل، الضفادع، وفَلْق البحر).

ملحوظة: آية (فلق البحر) هناك نزاع بين العلماء فيها: هل هي من الآيات التسع، أم أنها مجرد معجزة أخرى؟ وأصحاب الرأي الأخير يعدون (نقص الثمرات) هي الآية التاسعة.

{ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ} قال: (ثم) ولم يقل

(و)؛ لأن (ثم) تفيد الترتيب والتراخي، وهي أبلغ من (و) في التقريع والتبكيت.

والمعنى: أي عبادتكم للعجل لم تكن مفاجأة ولكن جاءتكم الآيات مرة بعد مرة ومعجزة بعد معجزة وعلى مدار مدة طويلة.. فلم تكونوا حديثي عهد بالإيمان! ولكن بعد تأنٍّ وتمهّل وتفكّر منكم!

{ٱتَّخَذۡتُمُ} من أفعال التصيير تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر؛ المفعول الأول (العجل) والمفعول الثاني محذوف تقديره (إلَهًا)؛ أي (ثم اتخذتم العجل إلهًا) وهذا من باب التحقير والتقليل من شأنه فلم يذكره.

- **والقصة باختصار:** عندما ذهب موسى لميقات ربه جمع السامريّ حُلِيَّ بني إسرائيل وصنع به عجلًا له خوار (صوت) وقال: هذا إلهكم وإله موسى!! فعبدوا العجل من دون الله.

{وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ} أصل كلمة (الظلم) توحي بالنقص، وكل النقص في عبادتكم للعجل؛ فعبادة العجل وُضعت في غير موضعها من كل وجه؛ لأنه عجل من صنع أيديهم، لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر، ولم يروا له معجزة!! وتم جحد الإله العظيم الذي أتى بالمعجزات والبينات العظيمة.

وجاء بإيهام المبالغة في (إطلاق لفظ الظلم)؛ لأن الظلم أبوابه كثيرة (القتل، السرقة، الزنا، وكل معصية) ولكن جعل لفظ الظلم

مطلقًا في قوله تعالى (ظالمون) ليُشعر أن عبادة العجل وكأنها كل الظلم.

قوله تعالى:{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾}.

بعدما ذكر الله عز وجل أحوالهم وعبادتهم للعجل، كشف حقيقتهم أمام أنفسهم والمسلمين وجميع مَن حضروهم في زمن النبي ﷺ ومن بعدهم؛ لكي يوضح للجميع مدى كذبهم وادّعائهم أنهم لم يتبعوا إلا موسى!

{وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ} هو جبل الطور؛ أي اذكروا حين أخذنا عليكم عهدًا مؤكدًا باتباع موسى عليه السلام ورفعنا فوقكم الجبل تخويفًا لكم.

{ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟} السمع على وجهين:

١- **قيل**: المراد سمع الإجابة والطاعة؛ أي أطيعوا. ومنها في الصلاة (سمع الله لمن حمده) أي: أجاب الله لمن حقق الحمد والشكر وعبده كما يحب ويرضى؛ فالله سبحانه يجيبه، وليس المقصود به السمع الذي هو إدراك الأصوات لأن الله يسمع كل المخلوقات؛ فالله سميع. والدليل على هذا القول من القرآن: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ ﴿٥١﴾} [النور] أي: سمع إجابة.

٢- **وقيل**: المراد اسمعوا بآذانكم ولا ترفضوا السمع؛ وذلك مثلما فعل بعض الكفار مع أنبيائهم مثل قوم نوح: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾} [نوح]. وهنا المراد السمع بالأذن فقط وليس استجابة.

وقد يرجح القول الثاني قول الله سبحانه وتعالى بعدها {قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا} لأنه لو كان سمع إجابة ما قالوا بعدها سمعنا وعصينا، ولكن عُلم من ذلك أنه سمع بالآذان فقط، والله تعالى أعلم.

{قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا} هل العصيان هنا بالحال (قلوبهم)، أم العصيان باللسان؟ الوجهان محتملان؛ ولكن العصيان بالحال هو الأقوى؛ لأنه لا يرقى للعقل أن الجبل يكاد يطبق على أحدٍ ويقول سمعت وعصيت!! ولكن العصيان هنا معقود في القلب.

{وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ} (وَأُشْرِبُوا) لفظ غاية في التبكيت؛ يُبيِّن أن حب عبادة العجل خالط القلب وتمكّن منه وثبت فلا يستطيعون إخراجه مرة أخرى.

{قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ} (بِئْسَمَا) بئس: كلمة جامعة للمذام؛ أي بئس إيمانكم الذي تدّعون فجعلكم تعبدون العجل!

{إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} فليس هناك إيمان ابتداءً، والله تعالى ليس بغافل عن أفعالكم.

.

قال الله سبحانه: ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ
خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن
يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ
أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ
سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا
يَعۡمَلُونَ ٩٦ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧ مَن
كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ
بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا
مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ
ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ ﴾

{قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ} أي قل يا أيها النبي: إن كانت لكم - يا يهود - الجنة في الدار الآخرة خالصة لا يدخلها غيركم من الناس، فتمنوا الموت واطلبوه؛ لتنالوا هذه المنزلة بسرعة إن كنتم صادقين في دعواكم هذه.

وقال فريق من العلماء: إن هذه الآية نوع من أنواع (المباهلة) و(الملاعنة) بين النبي ﷺ وبني إسرائيل؛ والمقصود بها أن يجتمع الفريقان في مكان ويقول القائل منهم: أنا على حق، ولعنة الله عليّ إن كنت من الظالمين، فتنزل بعدها اللعنة يقينًا على الظالم.

والمباهلة لها شروط:

١- لا تكون إلا في أمر شرعي مشتبه فيه، أو عناد من أحد في حكم ولا يمكن دفعه إلا بالمباهلة.

٢- لا تكون إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة والترغيب والترهيب، فإن لم ينفع مع المجادل كل هذه الأمور نلجأ إلى المباهلة.

- وقد شدّد العلماء في شروط المباهلة لأنها أمر عظيم تنزل بعده اللعنة على الظالم من إحدى الفريقين، فلا بُد أن نقيم الحجة أولًا فلعلَّه جاهل فنرفع الجهل، أو لديه شُبهة فنزيل الشبهة، أو معاند فنخوّفه بالآيات البينات.

قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿أَبَدًا﴾: نفي تأبيد. لن يتمنوا الموت أبدًا؛ لأنهم يعلمون أنهم ليسوا أحباء الله وأنهم سينالون الخزي والعذاب بسبب ما قدموه في حياتهم من الكفر بالله، وتكذيب رسله، وتحريف كتبه.

- وقد علم النبي ﷺ - بالوحي- خباياهم وبأنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، وهذه من معجزات النبي ﷺ لأنها من خبايا وبواطن الأمور، ولا يعلم بواطن الأمور وخفاياها إلا الله عز وجل، فلا يعلمها النبي ﷺ إلا بوحي، وفي هذا علامة وآية واضحة على صدق نبوة النبي محمد ﷺ؛ فإنهم لم يقبلوا المباهلة. وفي الآية انتقال لبيان حال بني إسرائيل من حال لحال ومن سيئ لأسوأ.

سؤال: نهى النبي ﷺ عن تمني الموت، فلماذا قال لهم: (فتمنوا الموت)؟! الجواب: إما للمباهلة كما فصّلنا، أو أنه من قبيل إلزامهم الحجة وإقامة البرهان على بطلان دعواهم وكذبهم؛ ولذلك ختم الله الآيات بـ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عليم بأفعالهم الشنيعة وعليم بهؤلاء الظالمي أنفسهم بارتكابهم الأشياء التي أوقعتهم في الكفر والعناد، وسيجازي كلًّا بعمله.

قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ

أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾}.

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ} اللام للقسم، والنون للتوكيد، وأما جواب القسم فمحذوف وتقديره (اليهود).

{حَيَوٰةٍ} نكرة، والنكرة إما للتعظيم أو للتحقير؛ وفي هذا الموضع للتحقير؛ أي حياة حتى وإن كانت سيئة مليئة بالأمراض والهم والغم والشقاق والعناد والحروب.. فهم يتمسكون بالحياة وفقط.

{ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ} المقصود بالمشركين: قيل: المجوس. وقيل: مشركو العرب.

فتجد اليهودي منهم حريصًا على هذه الحياة نتيجة طمس بصيرته؛ فلا أبصر الحق ولا استطاع أن يصل لبر النجاة، وهم في ذلك الحرص على الحياة أشدّ من حرص المشركين الذين تأصّل في قلوبهم الكفر وتوارثوه ولا يؤمنون بالبعث، ومع ذلك لم يكن عند هؤلاء المشركين حرص اليهود على الحياة.

{يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ} (لو) شرطية لجواب محذوف تقديره (لو يُعمّر ألف سنة لكان أحب شيء إليه)؛ فهو يتمنّى أن يعيش ويحيا ألف سنة وهو يعلم أن هذه الحياة لن تنجيه إطلاقًا! فالشيطان استحوذ عليهم وأنساهم الآخرة والحساب!

وهذه الآية من أعظم الآيات لإزالة الداء العضال الذي تمكّن في

قلوب كثير من المسلمين وهو طول الأمل؛ فالعبرة بالتقوى والإيمان وليس بعدد الأعوام!

قوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾}.

ابتداءً يخاطب الله عز وجل النبي ﷺ فيقول: قل يا محمد لهؤلاء القوم - أي اليهود - الذين يعادون جبريل أنه ليس لهم الحق في هذه العداوة.

ولكن ما سبب هذه العداوة؟

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري شيخ المفسرين: أجمع أهل التأويل - أي أهل التفسير المحمود- جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل بسبب زعمهم أن جبريل عدوٌّ لهم وميكائيل وليّ لهم!!! لماذا؟ من بعض الأقوال التي قيلت: لأن جبريل عليه السلام يأتي بالشدة والحرب، أما ميكائيل عليه السلام فينزل بالقَطْر والمطر؛ وهذا المطر به حياة المخلوقات، وهذا من زعمهم الفاسد وضلالهم.

وشاهد هذا المعنى الحديث الذي رواه أنس بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ، بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟، وَمَا بَالُ الوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى

أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟، قَالَ: «**أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا**» قَالَ ابْنُ سَلاَمٍ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، قَالَ: «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ، وَأَمَّا الوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الوَلَدَ**»[١].

الشاهد: (ذَاكَ عَدُوُّ اليهودِ مِن الملائكةِ) فكانوا يعادون جبريل عليه السلام، فبَيّن الله سبحانه وتعالى هذا الضلال وقال {قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّـجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ}.

وهل نزل جبريل عليه السلام بالقرآن على النبي ﷺ فسمعه وردّده وحفظه وبلّغه أمته، أم نزل جبريل بالقرآن على قلب النبي ﷺ؟

- في هذه الآية {نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ}، وفي سورة الشعراء قال تعالى {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤} فدلت الآيات على أن القرآن نزل على القلب، لكن لا يصح أن نأخذ الحكم الشرعي من دليل واحد فقط.

ملحوظة: لا ينبغي أن يأخذ طالب العلم دليلًا واحدًا من الآيات أو الأحاديث ثم يأتي بتفسيرها أو يفسرها من نفسه، فأهل العلم معلوم عنهم أن أي مسألة علمية لا بُد لها من جمع الأدلة أولًا؛ لأنه

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٣٨).

لا يصح أن أصدر حكمًا في شرع الله بدون جمع الأدلة.

ففي هذه الآية قد يُقال إن القرآن نزل على قلب النبي ﷺ وهذا غير صحيح، فأكثر الأمة على أنه أُنزل عليه لا على قلبه؛ لأن هناك آيات أُخَر تدل على أن القرآن سمعه النبي ﷺ من جبريل، وكان يردده معه وحفظه في قلبه وسمعه ولسانه؛ فسمعه بأذنه ورده بلسانه وحفظه في قلبه، الثلاثة معًا؛ ودليل ذلك في سورة القيامة {لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾} فمن شدة حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن كان يردد مع جبريل ويكرر ويعجل به؛ يريد حفظه من حبه إياه، فطمأن اللهُ النبي ﷺ أنه سيحفظه وسيثبت في قلبه وعقله وذهنه وسيبلغه على أكمل وجه لأمته وأمره بعدم التعجل.

فلماذا خَصّ إذًا القلب بالذكر؟

لأن القرآن ينزل فيثبت في القلب وتثبت فيه المعاني فهو محل الحفظ؛ فنحن مثلًا نقول عندما نرى شخصًا أتقن حفظ القرآن نقول عنه (حفظه عن ظهر قلب) أي ثابت في قلبه.

سؤال: في قوله تعالى {فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ} الهاء الأولى في كلمة {فَإِنَّهُۥ} والهاء الثانية في كلمة {نَزَّلَهُۥ} على مَن تعود؟ قولان للعلماء:

القول الأول: الهاء الأولى عائدة على (جبريل) والهاء الثانية عائدة على (القرآن)، وفسّروا عدم ذكر اسم جبريل عليه السلام أنه تفخيم لشأنه وتعظيم لأمره؛ فهو من الشهرة والمعرفة بمكان، وذلك مثل قوله تعالى: {مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ} معروف أنها الأرض.

القول الثاني: المعنى فإن الله نزّل جبريل عليه السلام لا أنه نزل من نفسه.

- والمعنيان متقاربان، حتى في المعنى الأول؛ فجبريل أيضًا نزل بإذن الله.

في قوله {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أين جواب الشرط في الآية؟ لها ثلاثة أوجه عند أهل العلم:

الوجه الأول: أن تقدير جواب الشرط (إن عادى جبريلَ أحدٌ من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته) فهذه العداوة فاسدة من كل وجه؛ فجبريل لم ينزل من تلقاء نفسه، هو نزل بالوحي من عند الله عز وجل وهو مأمور، والمأمور معذور فيما يبلغه، فلا ينبغي أن أغضب من شخص يأتي لي برسالة!! هل الرسالة من عنده؟!! بل إنه مشكور أنه قام بإيصال الرسالة التي أُمر بها على أكمل وجه والتي تحمل البشارة والهداية والنور المبين وهو القرآن.

الوجه الثاني: أن تقدير جواب الشرط (إن عاداه أحد فالسبب في

عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقًا لكتابهم، وموافقًا له، وهم كارهون للقرآن) أي أنه تعالى بين أن اليهود إن كانوا يعادونه فيحق لهم ذاك؛ لأنه نزل عليك الكتاب برهانًا على نبوتك وتصديقًا لما بين أيديهم من التوراة، مما يجعلهم يكرهونه ويعتقدون أنه السبب في كل هذا!! فقد أقيمت الحجة عليهم برسالة جبريل وهي نزول القرآن على النبي ﷺ.

الوجه الثالث: قيل جواب الشرط محذوف وتقديره (موتوا بغيظكم) فالرسالة ستنزل، والقرآن سينزل ويُبيّن ضلالكم وأخطاءكم وعنادكم وكفركم، والله يفعل ما يشاء. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة وكل منها يُقبَل.

والناس في مسألة الملائكة أصناف وطوائف:

١ـ **هناك صنف من الناس يسبون الملائكة:** وهم اليهود وطائفة من الروافض (الشيعة)؛ فاليهود كرهوا جبريل وقالوا: عدو لنا. وطائفة من الروافض كرهوا جبريل ووصفوه بالخيانة!! نسأل الله السلامة ـ أشد من اليهود والله- فيقولون إنه نزل بالرسالة على محمد ﷺ وكان من المفروض أن ينزل بها على (عليّ)!!

الرد: إن كان جبريل -على حدّ وصفك هذا- أنه خان! فأين الله؟ لماذا لم يمنعه الله عز وجل؟!! بل أنت بهذا وكأنك نسبت لله أيضًا عدم العلم؛ لأن الله إذا علم أن جبريل سيخون سيمنعه من الخيانة!!!

نحمد الله على نعمة العقل والتفكير والله إنها لنعمة تستحق الشكر.

٢- **طائفة من أهل الشرك على النقيض من هذا عبدوا الملائكة**؛ قال تعالى في سورة سبأ: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١}.

٣- **الطائفة المنصورة أهل الإيمان والإسلام:** عرفوا أن الملائكة عِبَادٌ مُكْرَمُون، خَلَقَهم الله من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قال تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦} [الأنبياء] إذًا يكون هناك توسط في الأمر.

هل يصح تسمية أحد بأسماء ملائكة؟

نعم، ويصح حتى لو باسم (مالك) خازن النار؛ والدليل على ذلك أن صحابيًّا كان على عهد النبي ﷺ يُسمى مالك بن صعصعة رضي الله عنه، ولم يغير النبي ﷺ اسمه، فقد ورد في السُّنة أن النبي ﷺ إذا وجد اسمًا غير موافق للشرع أو به كراهة كان يغير اسمه، فدلّ ذلك على الجواز.

قوله تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨}.

ذَكَرَ الله عز وجل الملائكة على الإطلاق {وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ} ثم خصص فقال {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ} فما الفائدة؟ قولان للعلماء:

القول الأول: أن ذلك من باب عطف الخاص على العام والذي يفيد التشريف والتفضيل؛ فلما ذَكَرَ الله الملائكة على الإطلاق (وهذا هو العام) عطف عليهم جبريل وميكائيل (وهذا هو الخاص) دلّ ذلك على أنهم أشرف رسل الله ومن أشرف الملائكة. والدليل على ذلك: أن النبي في غزوة بدر قال لأبي بكر وعليّ: «**مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ، وَمَعَ الْآخَرِ مِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ - أَوْ قَالَ: يَشْهَدُ الصَّفَّ**»(١).

القول الثاني: قيل: خُصّوا بالذكر ردًّا على اليهود الذين كانوا يسبّون جبريل ويمجدون ميكائيل، فبيّن الله فساد هذه العقيدة وأن جبريل له منزلة كمنزلة ميكائيل، بل ربما أفضل وأعلى- كما قال بعض العلماء- لأنه ينزل بالوحي الذي فيه حياة الإنسان وحياة الروح وسبب خلوده أبد الآبدين في جنات النعيم، أما ميكائيل ملك عظيم أيضًا ولكن ينزل بالقطر الذي فيه حياة المخلوقات، أي أمور دنيوية فقط، وإن كان كل ملائكة الله عِظَام.

{فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ} أخبر تعالى أنَّ مَن عادَى الله تعالى، أو ملَكًا من الملائكة، أو رسولًا من الرُّسُل-سيأتي تفصيل الرسل في النساء- فهو كافر، والله تعالى يُعادي كلَّ كافر.

استطراد: أحد الأشخاص كان يروّج للمنهج الصوفي فكانوا

(١) مسند أحمد (٣٠٨/٢) بإسناد صحيح.

يُسأل من البعض كيف أن السلفيين متشددون!! فأحبَّ أن يروّج لمنهجه وكيف أنهم مختلفون بأنهم يحبون الناس جميعًا حتى الكفار!!

الرد: إن كان الله يقول {فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ} كيف أقول: أنا أحب الكافر؟! وهذه مشكلة أي شخص يحيد عن منهج أهل السنة والجماعة -أيًّا كان مسماه- نحن نقول: قال الله وقال رسول الله ﷺ مُنقادين لأوامر وأحكام الشرع من قرآن وسنة، مُتّبعين لأقوال السلف من الصحابة ومَن بعدهم الذين فسّروا لنا القرآن والسنة، وهذا هو منهجنا. فكيف إذًا يقول الله أنه عدوّ للكافر، وأنت تقول: أنا لا أكره الكافر، ولا أكره عقيدته ولا كفره؟!!

- وقد يَرُدّ البعض قائلًا: إن النبي ﷺ كان يدعو الكفار وما زال المسلمون في كل وقت يسافرون لدعوة الكفار.

نعم أدعو الكافر لكي يدخل في الدين وأنقذه من جهنم، وليس حبًّا في عقيدته ولا دينه، أنا فقط أشفق عليه، مع الأخذ في الاعتبار أننا لا نُجبر أحدًا، فلا نضرب ولا نَسُب إطلاقًا، وليس هذا نهج النبي ﷺ، فلم يكن يقاتلهم ولا يسبّهم، بل بالعكس كانوا يسبّونه، ولم يكن النبي ﷺ يرد عليهم، هذه هي أخلاقنا.

- ولكن ما نذكره هو جانب قلبي؛ ماذا يوجد في القلب؟ القلب به عداء لهذا المعاند والمكابر الذي عُرض عليهم الإسلام مرارًا وتكرارًا وظلّ معاندًا، يكره الرسول والقرآن والدين ثم أقول: أنا

أحبه!! فأين الولاء والبراء؟!! وللمزيد يمكن الرجوع لدروس الولاء والبراء لكي نحاول معرفة ضوابط الشرع في هذا الأمر.

قوله تعالى: { وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾}.

أي أنزلنا إليك يا محمد آيات بينات واضحات تدل دلالة صريحة واضحة ساطعة على نبوتك، وهذه الآيات حَوَى القرآن فيها خفايا اليهود وعلومهم ومكنونات أسرارهم وأخبارهم وأخبار أحبارهم الأوائل الذين حرّفوا وبدّلوا فيها أمورًا لا تُعلم أبدًا إلا بالوحي.

- حَوَى القرآن كل هذا ولم يمنعهم من اتباعك إلا الحسد والبغي الذي يعمي الإنسان عن الحق؛ فأي إنسان منصف ولديه بقايا فطرة سليمة ويريد أن ينقذ نفسه من الضلال لا بُد أن يعلم أنك رسول الله من عند الله.

{وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ} الفاسق هو الخارج عن الطاعة، واللام فيها إما للعهد وإما للجنس؛ فاللام إذا كانت للعهد فهم المعهودون بالفسق والضلال وردّ الحق، وهذا هو دأبهم وشأنهم وحالهم، وهم اليهود، وأما إن كانت اللام للجنس فهم بذلك داخلون أيضًا تحت هذا الذم في جنس الفَسَقَة دخولًا أوليًّا؛ فلا يوجد فسق بعد قتل وسب الأنبياء وردّ الحق.

قوله تعالى: { أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾}.

{أَوَ كُلَّمَا} واو العطف دخلت على ألف الاستفهام لإعظام الإنكار عليهم، وكلما أداة شرط تفيد التكرار؛ أي مع عظم الجريمة التي ارتكبوها من كثرة نقض العهود والمواثيق وردّ الحق أصبح عندهم وكأنها سمة متكررة، فما أجمل التعبير القرآني! {أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} أي كلما عاهدوا عهدًا وقالوا قولًا ينبذه فريق منهم ويردّوه!! فيه شيء من التعجب لأمرهم وإنكار لأحوالهم وكيف كانت لديهم القدرة على تكرار نقض العهود، لكن ما السبب في نبذ هذا الفريق للعهود؟ تأتي الإجابة في الآية: لأنهم غير مؤمنين {لَا يُؤْمِنُونَ} بخلاف المؤمنين والصحابة الكرام الذين جاءهم الحق فاتبعوه وشُرحت صدورهم، بل نزل في بعضهم قرآن: { مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴿٢٣﴾} [الأحزاب] وغيرها من الآيات.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عند كفر هؤلاء اليهود برسالته وكأن الله يريد أن يهوّن على النبي ﷺ فهذا هو صنيعهم ودأبهم كأسلافهم من اليهود من زمن موسى وعلى مر الزمان.

{نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} أي وإن لم يكن فريق منهم لم ينقض العهد إلا أن أكثر هؤلاء اليهود لا يؤمنون.

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ

نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾}.

أي بعد أن نبذوا العهود والمواثيق التي أمرهم الله أن يتمسكوا بها كذّبوا النبي ﷺ الذي بعثه الله رحمةً للعالمين وبدلًا من أن ينصروه كذّبوه مع أن نَعْتَه في كتبهم؛ قال تعالى: {ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾} [الأعراف].

{مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} أي مصدق لما في التوراة، وكانت صفات النبي ﷺ موجودة عندهم في التوراة.

هل الكتاب الذي نبذوه (التوراة) أم (القرآن)؟

قيل: التوراة؛ لأنهم بكفرهم بالرسول النبي ﷺ الذي هو مصدق لما معهم من التوراة فكأنهم نبذوا التوراة؛ فإذا رَفَضْتَ النبي ﷺ ولم تؤمن بشريعته فكأنك نبذت التوراة. وقيل: القرآن؛ نبذوه وراء ظهورهم. وكلا المعنيين يستقيم وليس بينهما تعارض فقد نبذوا الاثنيين.

{وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ} تدل على الاستغناء، وعدم الالتفات بالكلية لما جاء به النبي ﷺ؛ فأعرضوا إعراضًا كاملًا وألقوه وراء ظهورهم.

{كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} جملة حالية؛ أي نبذوه وراء ظهورهم مع تشبيههم بمن لا يعلم؛ فدلّت الكلمة {كَأَنَّهُمْ} على أنهم كانوا على

علم جيد بصفات النبي ﷺ ولكنهم تجاهلوا نبوته استكبارًا وبُغضًا.

.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ
وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ
أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا
مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ
إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ
ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ
كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ
خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ
رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤
مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن
يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن
يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾

{وَٱتَّبَعُواْ} أي اليهود. {وَٱتَّبَعُواْ} فعل ماض، {تَتۡلُواْ} فعل مضارع، والجمع بينهما يدل على أنه صفة ملازمة لهم؛ كاتّباع الأحوال الشيطانية والغش والسحر، فكان من دأبهم عدم اتباع الوحي.

{عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ} (على) هنا بمعنى (في) أي: واتبعوا ما تتلوا الشياطين في ملك سليمان، ففي اللغة العربية قد تأتي (إلى) بمعنى (في)، و(في) قد تأتي بمعنى (إلى)؛ قال تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ٧١} [طه] أي على جذوع النخل.

القصة باختصار شديد: في زمن سليمان عليه السلام أو بعدما مات سليمان كان السحر منتشرًا، فنسب اليهود ذلك المُلك الذي أعطاه اللهُ سليمانَ إلى تعليم الشياطين!! وقيل: إنه بعد موت سليمان كتبوا هذه الأسحار ووضعوها تحت الكرسي الخاص به ثم أخرجوا هذه الأسحار وادّعوا أن سليمان لم يكن نبيًّا!! وإنما كل هذا المُلك من اتّباع السحر!

{وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ} بالرغم من أن اليهود قالوا إن سليمان (اتّبع السحر) إلا أن الله عز وجل لم يقل (وما اتبع سليمان) ولكن قال {وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ} فلماذا؟ لأن مجرد اتباع السحر وتعلّمه كفر.. ومن هنا استدل العلماء على أنَّ مَن تعلّم السحر كَفَر؛ فلا يجوز شراء كتب السحر ولا القراءة فيها ولا أي شيء خاص بهذا...فمهما حدث من ابتلاءات ومصائب لا يصح بأي حال من الأحوال إلا الاعتصام بالله عز وجل؛ لأنه لا يحدث شيء إلا

بإذنه سبحانه. ففي الآية الكريمة برّأه الله عز وجل من هذا الاتهام.

فائدة هامة:

قال الشيخ السعدي: (ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع, ابتلي بالاشتغال بما يضره, فمن ترك عبادة الرحمن ابتلي بعبادة الأوثان, ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه, ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان, ومن ترك الذل لربه ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل).

فكل مَن كان عنده الوقت والقدرة والفرصة أن ينشغل بالحق وبما ينفعه في آخرته ثم انشغل بالباطل شغله الله بما يضره؛ فالله سبحانه كريم يسّر لنا الدين والعلم بكل الوسائل المتاحة أمامنا الآن، ولكن بالرغم من ذلك انشغل المسلمون وأعرضوا عن كل هذا، فَسُلِّطَتْ عليهم الدنيا فانشغلوا بها.

{يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ} ما هو السحر؟ السحر هو الشيء الخفي؛ فكل شيء لطف وخفي يُقال عليه سحر. والسحر حق؛ قد يقتل ويُمرِض وله تأثير - كله بإذن الله-، وكل مَن يقول إنه غير موجود فليحذر؛ لأن ذلك فكر المعتزلة وهي فرقة من الفِرَق الضالة. أما أهل السنة والجماعة فمُجْمِعُون على أن السحر موجود والنبي ﷺ

سُحِر.

{وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ} (ما) موصولة بمعنى (الذي) وليست النافية؛ لأن الله أنزل الملكين هاروت وماروت - وهم ملائكة من ملائكة الله- بالفعل على الأرض، يعلمون الناس السحر على وجه الفتنة والاختبار والامتحان، فنزلوا بـ (بابل) وهي أرض في العراق.

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} قال الملكان إنهم سيعلمون الناس من القدرات الخارقة وغيرها من الأعمال، لكن حذّروهم أنهم فتنة واختبار وامتحان، لكن بالرغم من ذلك التحذير والنصح من الملكين تعلم الناس السحر!

{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي مع أن السحر له تأثير وضرر بالأبدان والنفوس ويفرق بين الرجل وامرأته، لكن طمأن الله سبحانه وتعالى القلوب، وحتى يثبت في العقول القدرة الإلهية والقضاء والقدر، وعظيم قدرة الله، والتوّجه إلى الله فنعلم أنه ليس لنا إلا الله.

{إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ} : **الإذن من الله نوعان:**

١- **إذن كوني قدري:** وهو متعلق بالمشيئة- كما في هذه الآية- فهو نافذ لا محال، وهذا الإذن القدري يوجد به أشياء يحبها الله عز وجل وأشياء لا يحبها الله؛ فشاء الله أن يكون هناك: شيطان،

معاصٍ، عداوة.. وهي أشياء لا يحبها الله.

٢- **إذن شرعي:** قال تعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وكل ما في الإذن الشرعي يحبه الله؛ لأن كل شرع الله محبوب إلى الله، فهذا ما شرعه الله للعباد وأمر به، والإذن الشرعي قد يلتزم به أحد ولا يلتزم به آخر، فالإذن الشرعي به اختيار على عكس الإذن القدري الذي يقع لا محالة ولا اختيار للإنسان فيه. والله لم يتركنا هملًا ولكن أعطانا الوسائل التي تُطَمْئِنُ القلوب؛ فحتى لو أصيب أحد بالسحر فقد ورد من القرآن والسنة ما يدفع هذا؛ ومن هذه الوسائل التي تكون سببًا في الشفاء بإذن الله: سورة البقرة، والأذكار، والرقية الشرعية، والدعاء، والتودد إلى الله، والاستقامة على شرع الله، والبعد عن المعاصي.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ على المسلم أن يتيقّن أن أي أمر من الله لا بُد أن يكون فيه مصلحة تامة أو راجحة؛ مثل الحجاب والصلاة وصلة الأرحام، وكل أوامر الله خير محض للعباد أو غالب (راجح)، وكل ما نهانا الله عنه هو شر محض أو غالب (راجح) مثل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة] فحتى إن كان هناك نفع ولو قليل في المعصية إلا أن الإثم أكبر، وهكذا في كل شرع الله.

سؤال: هل من الممكن أن يُبتلى الإنسان بتيسير المعاصي؟

الجواب: نعم، فإن لم يكن لديه علم عن الله فسيقع في المعصية، أما لو لديه علم عن الله فسيفهم أن هذا ابتلاء بالمعصية؛ وفي هذه الآية تَيَسّر للناس السحر ابتلاءً واختبارًا وفتنة، وأيضًا أصحاب السبت تيسرت لهم أسباب الصيد في اليوم الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه؛ فكان السمك يخرج لهم على الماء، وذلك أيضًا كان اختبارًا وابتلاءً وفتنة، ولما حَرّم الله على المحرمين صيد البر {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴿٩٤﴾} [المائدة] فيكون كل ذلك اختبارًا بالمعصية أمام العبد، فهل سيقول: المعصية أمامي ولن أفعل ما دام الله أمر بذلك وينجح.. أم لا؟!

{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} لقد علم أولئك اليهود أن هذا السحر فتنة - لأن الملكين أخبروهم وحذروهم منه صراحة - ومع ذلك أصروا وتعلموا الكفر.

{مِنْ خَلَـٰقٍ} من نصيب.

{وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ} حيث استبدلوا السحر بوحي الله وشرعه بل حرصوا على ذلك.

{لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} وصفهم بالجهل وعدم العلم.

قوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ

كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾}.

- بعد كل هذه الأمور العظيمة التي ارتكبوها من الإعراض عن الحق وعدم انتفاعهم به، بيّن الله عز وجل أن ما دعا إليه القرآن هو الخير كله؛ {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ} بالقرآن وما فيه من خير ونفع {وَٱتَّقَوۡاْ} ما يقدح في الإيمان بالوقوف عند حدود الله والامتثال لأوامر الله وترك العناد والشقاق... لكان ذلك خيرًا لهم، ولعوّضهم الله خيرًا مما تركوا.

- وهذه أيضًا سنة ماضية فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه؛ فإذا تيّقن المسلم من هذه القاعدة فسيهوّن عليه مشقة الترك، بل لن تكون هناك مشقة من الأصل؛ لأن ما ستتركه لله خالصًا سيأتيك يقينًا ما هو أفضل منه، شرط أن يكون الترك لله. فمن الناس مَن يخاف أن يترك الحرام لأن ذلك اليقين غير موجود لديه، فلو تيقّن لترك.

{لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٌ}: جاء الجواب على صيغة الثبوت والدوام؛ فـ {مَثُوبَةٌ} على وزن (مَفعلة) شيء ثابت لا يتحرك، وهذا من بلاغة القرآن ففيه إشعار بعلو المنزلة والثبات لمن يمتثل لأوامر الله وأن هذه المثوبة لم تكن مجرد شيء مرّ، فلم يقل مثلًا لـ (أُثِيبه)، لا.. فالجزاء غير منقطع.

{مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ} تشريف لهذه المثوبة بأنها من عند الله سبحانه

وتعالى، وليست من عند أي أحد، وكفى بذلك تشريفًا.

{خَيْرٌ} نكرة، وتم حذف المفضل عليه فلم يذكره؛ فلم يقل (لمثوبة من عند الله خير مما تركتموه) لماذا؟ زيادة تشريف لهذه المثوبة، وكأن الخير كله أن تتبع ما أمر الله وتترك ما حَرّم الله.

{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}: إشعار بمدى فضل العلم عن الله عز وجل، وفهم أحكامه، وقبول أوامره وعدم ردّها.

قوله تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾}.

فيه تحذير للمؤمنين لعدم استعمال أي كلمة بها شيء ضار، أو لها معنى آخر عند الأعداء، وهذا في باب سد الذرائع.

- لكن ما معنى (ذرائع): الذريعة هي أي وسيلة للفساد (وهذا في باب الفقه وله أدلته) وملخصه أن أي شيء سيوصل الإنسان لشر فيجب الابتعاد عنه.

- كان الصحابة يستخدمون لفظ (راعنا) مع النبي ﷺ وهي تحمل معنى طيبًا؛ فهي من ارعانا واحفظ لنا أمورنا، لكن اليهود- كعادتهم في تحريف الكلام- حوّلوا هذه الكلمة إلى كلمة عندهم من الرعونة التي تعني الجهالة والإفراط في الجهل واستخدموها للهمز واللمز على النبي ﷺ!! وهذا من شدة كرههم للنبي ﷺ! فنهاهم الله عن هذا اللفظ، وأمرهم باستعمال كلمة بديلة {وَقُولُوا انْظُرْنَا

وَٱسْمَعُواْۗ}.

{وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي أن كفرهم بالنبي ﷺ واجتراحهم للسيئات وتحريفهم للكلام سيكون سببًا لعذابهم في الدنيا وفي الآخرة.

قوله تعالى: {مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥}.

ما يحب الكفار - سواء أهل كتاب أو مشركين - أن يُنَزَّلَ عليكم أيّ خير من ربكم.

{مِنْ خَيْرٍ} للاستغراق؛ فأي نوع من أنواع الخير قليلًا كان أو كثيرًا.

{وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ} أي أن هذا الذي تودّونه من عدم نزول الخير على المؤمنين لن يحدث لأن {ٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُۚ} ولن تمنعوا تلك الرحمات بحسدكم وببغضكم.

{بِرَحْمَتِهِ} ما المقصود بالرحمة هنا؟ للعلماء ثلاثة أقوال:

١ - الإسلام.

٢- نبوة النبي محمد ﷺ.

٣- عموم الرحمة (الهداية/ العناية/.... كل شيء به رحمة).

- وليس هناك تعارض بين الثلاثة أقوال؛ فالإسلام رحمة،

والنبي ﷺ رحمة، فكلها رحمات، ورحمة الله وسعت كل شيء.

{مَن يَشَآءُۚ} ولله في ذلك حِكْمة؛ لأنه سبحانه يعلم مَن يستحق تلك الرحمة ومن لا يستحقها.

{وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ} خبر من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده ابتداء وتفضلًا منه عليهم، ولا أحد يمنع فضل الله ونِعَمَه.

.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ
بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦
أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ
مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨
وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ
كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ
فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ
١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ
تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ
إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ
أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ ﴾

{مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} الآية تضمنت بيانًا لمسألة من المسائل العظيمة وهي مسألة (النسخ)، والنسخ في القرآن أو السنة من المسائل التي ينبغي للمسلم أن يعلمها، والمتصدر للتفسير هو أولى الناس بمعرفة (الناسخ والمنسوخ).

ما هو النسخ؟

والنسخ يُطلق على معنيين:

١ـ **النقل**: النقل من كتاب لآخر؛ قال الحق سبحانه: {هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾} [الجاثية]، والقرآن كُله بهذا الاعتبار يُعتبر منسوخًا لأنه نُقِلَ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (بيت العِزَّة) في ليلة القدر { إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾} [القدر]، وهذا النوع من النسخ ليس المقصود في الآية التي نحن بصددها.

٢ـ **الإزالة والإبطال:** والإزالة تنقسم إلى قسمين:

أ- إزالة الشيء وإقامة غيره مكانه.

ب- إزالة الشيء وعدم إقامة غيره مكانه.

فالحق سبحانه يُغير الحكم الوارد في آيةٍ ما إلى حكمٍ آخر ربما يكون أشد وربما يكون أخف (وهذا هو المعنى المقصود في هذه الآية).

- وكان اليهود يُنكرون النسخ ويقولون بعدم جوازه مع أنه ذُكِرَ في التوراة، وبالتالي فإن إنكارهم له يُعد كُفرًا محضًا لأن الله سبحانه وتعالى بيَّن الحكمة من النسخ، والنسخ ثابت في الشرائع (ومنها شريعة نبينا ﷺ) وهذا ما بيّنه الحق سبحانه وتعالى لعباده.

والنسخ له ثلاثة أقسام وهي:

١- نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

وهذا يأتي في القرآن كثيرًا؛ **مثال:** قال رب العِزَّة: { لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾} [البقرة] (الناسخة)، هذه الآية نسخت قوله سبحانه: {لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾} [البقرة] (المنسوخة).

فقد كان الحكم في بداية الأمر أن العبد يُحاسب بمجرد تفكيره في المعصية، ثم نُسخ هذا الحكم بالآية الخاتمة لسورة البقرة أن كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

مثال: قال الحق سبحانه: { شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾} [البقرة] (الناسخة)، أصبح الصيام واجبًا بمقتضى هذه الآية وقد كان في بداية الأمر اختياريًّا؛ فهذه الآية نسخت قوله سبحانه: {أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾} [البقرة] (المنسوخة).

وهذه الآيات باقية في الكتاب العزيز (لم يرفعها ربنا) يتلوها العباد، ولكن الأحكام الواردة فيها تغيرت.

٢- نسخ التلاوة وبقاء الحكم:

مثال: رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» هذه كانت آية في القرآن فنسخها ربنا سبحانه تلاوةً؛ أي أنها غير موجودة في المصحف الآن ولكن بقي الحكم، فمن المعلوم أن الشيخ والشيخة (الرجل المحصن أو المرأة المحصنة) إذا زنا أحدهما فإن حكمه هو الرجم حتى الموت، فبقي الحكم ونسخت التلاوة.

٣ـ**نسخ التلاوة والحكم معًا:** فلم تعد الآية موجودة في كتاب الله وكذا الحكم غير موجود.

مثال: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»(١).

هذه هي الأقسام الثلاثة للنسخ، وقد ينتقل الحكم في النسخ من الأخف إلى الأثقل، أو من الأثقل إلى الأخف؛ فأما الأخف الذي يصبح أثقل فهو كما ورد في آيات الصيام السابق ذكرها فقد كان الصيام اختياريًّا ثم صار إلزامًا، وأما الأثقل الذي صار أخفّ فهو كما ورد في آيات البقرة، وكما جاء أيضًا في سورة الأنفال؛ قال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنفال]. لقد كان الأمر في أوله يقضي بمقاتلة المسلم لعشرة من المشركين؛ أي عليه أن يقتلهم في ساحة القتال وكان هذا من الأمور الصعبة فخُفف هذا الحكم بالآية التالية مباشرة لتلك الآية فقال سبحانه: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥٢).

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال] فأصبح الرجل يُعادل رَجُلَين بدلًا من عشرة.

وهناك من الآيات ما نُسخ ولم يأتِ بدلًا منه: مثل: كانت مناجاة النبي ﷺ في بادئ الأمر تستلزم أن يسبقها تقديم صدقة: قال الحق سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [المجادلة]. ثم نُسخت هذه الآية بعد ذلك فجاء قوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة].

ومن صور النسخ أيضًا: نسخ القرآن بالسنة ونسخ السنة بالقرآن.

هناك شُبهة خاصة بالمعتزلة ألا وهي (إنكار النسخ): لماذا أنكر هؤلاء (المعتزلة) النسخ؟ أو ما هي حجتهم في ذلك؟ قالوا إن النسخ يعني البَدَاء، ولكن ما المقصود بالبَدَاء؟ البداء يعني: الظهور والإبانة بعد الخفاء؛ كشخص بدا له شيءٌ ما بعد أنّ فكر فيه - وهذا ممتنع عن الله سبحانه - فكيف تقولون بأن الله ينسخ والنسخ يعني البداء (التفكير في أمرٍ ما ثم العدول عنه)؟

الرد: القول بأن البَدَاء يعني النسخ يدل على خلط المفاهيم

بعضها ببعض!! ويكون ذلك نتيجة:

١-ترك النصوص الشرعية وعدم الرجوع للأحاديث النبوية.

٢-عدم سؤال أهل العلم.

٣-إدخال العقل في المسألة.

فتعريف النسخ بمعنى البَدَاء (العدول عن الأمر بعد التفكير فيه أو تجدد العلم بتجدد الأحداث) هو بالفعل ممتنع عن الحق سبحانه وتعالى، ولكن البداء يختلف عن النسخ.

فالبداء يستلزم سبق الجهل وحدوث العلم تبعًا لحدوث المستجدات لقصور العقول عن إدراك المغيبات، فإذا أطلقت هذه المعاني على الإنسان فلا محذور فيها لتحققها، وأما إذا أطلقت على الله عز وجل فلا شك أنه كفر يخرج صاحبه من الملة.

وأهل السنة والجماعة لا يقولون بالبداء ولكن الأمر يرجع إلى تخبطات المعتزلة، ومشكلة الفِرَق الضالة ليست كما يُصورها البعض دائمًا أنها تنحصر في مخالفة منهجهم لمنهج أهل السنة في الصفات بل إن هذا يُعد بعضًا من كل، فهؤلاء لديهم مشكلات عديدة في كل ما يعتقدونه.

{نُنسِهَا} أي ينساها الإنسان، فتُزال من قلوب العباد، ولكن بحسب نوع النسخ فتُزال من قلوبهم: حُكمًا وتِلاوةً، أو تُزال تلاوة فقط، أو تزال حكمًا وتبقى تلاوة.

{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ}: فإذا ما نُسخت تلاوةً وحُكمًا فلا يُلتفت إلى هذا ولا ذاك؛ لأن الله سوف يأتيٰ بخيرٍ منها أو مثلها، وفي هذا دليل على أن هذا النسخ لا يكون إلا في مصلحة العباد، فالعليم الحكيم الرحيم سبحانه الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلا، لا يفعل لعباده إلا كل ما هو خيرٌ ونفع، فالخير كله سيأتي فيما أراده الرب سبحانه للعباد.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: قيل أي: بل تعلم. وقيل: استفهام غرضه التقرير لما تقدم (فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير يفعل ما يشاء في ملكه، ولا يعترض على أقداره إلا جاهل بتقدير الله وحكمته ورحمته وهيمنته وملكه وملكوته ولطفه)، كما أن هذا الاستفهام يحمل التوبيخ والإنكار على مَن أنكر النسخ.

وَ{كُلِّ} من ألفاظ العموم.

وَ{شَيْءٍ} نكرة؛ فدل ذلك على إطلاق القدرة، فأخبر سبحانه أنه على كل شيء قدير لبيان أن أي شيء يأتي على البال أو لا يأتي فهو عليه قدير.

وقفة: بعض الفِرَق الضالة يقولون: إن الله قادر على الأشياء التي أرادها فقط!!

الرد: هذا ضلال مبين؛ لأن الله سبحانه قادر على كل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو قادر عليه سبحانه ولكنه لم يقدره

لحكمة، فهو على كل شيء قدير وليس كما يدعون أنه على ما يشاء قادر!

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

ألم تعلم أيها المخاطب أن الله له ملك السماوات والأرض، ينسخ ما يشاء ويُبقي في ملكه ما يشاء، فهو يفعل ما يشاء وقتما شاء وكيفما شاء، هذا المُلك ليس لأحد غير الله وحده فهو مالك السماوات والأرض.

ومَن قدح في النسخ وفي أفعال الله فقد قدح في مُلك الله وذاته وقدرته وعلمه، فالله على كل شيء قدير وهو المالك المتصرف في ملكه.

﴿لَهُۥ﴾ فاللام: هي لام الامتلاك والملك والاستحقاق (يستحق ملك السماوات والأرض فهو خالقهما وصاحبهما، وإذا كان هو المالك فهو صاحب الحق المتصرف فيهما كما يشاء، أقداره كلها خير، ونواهيه لا يستقيم حال العباد إلا بالامتناع عنها).

وبالتالي فلا يأتي أحد ليتكلم فيما يفعله الله أو لا يفعله، هل يمكن أن يُعَدِّل المخلوق على الخالق في أفعاله؟!! سبحانه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء] مع اليقين الكامل أن أفعاله سبحانه كلها خير وهي الأصلح والأصوب والأفضل لعباده بلا ريب وبلا

أدنى شك، والمعترض على شرع الله سبحانه وتعالى هو في حقيقة الأمر مُعترض على حكمته وبالتالي هو شاك في تلك الحكمة.

والعبد عبد مُسَخَّر خاضع لأمره (الديني-القدري) ليس له حق الاعتراض، وبالرغم من ذلك قال سبحانه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيا أيها العبد إياك أن تتصور أن كونك عبدًا وليس لك حق التصرف في المُلك أن المَلِك سوف يظلمك أو يقهرك لفعل شيء فيه ضرر أو ظلم لك (حاشاه سبحانه وتعالى).

سؤال: لماذا خص السماوات والأرض بالمُلك بالرغم من مُلْك الله لكل شيء؟

يقول العلماء: لأن السماوات والأرض هي أعظم المخلوقات الظاهرة المرئية؛ فما نراه منها شيء ضخم عظيم يدل على عظم ملك الله وقدرته، فذكّرهم بتلك المخلوقات حتى يعلموا مَن هو الله فيقف العبد عند حده فإذا ما تعداه فإنه جاهل، فكل شيء في الكون هو في قبضة الملك سبحانه.

يقول الحق سبحانه في ختام الآية السابقة لهذه الآية ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم أعقب ذلك بقوله وللمرة الثانية ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلماذا؟ يقول العلماء في هذا الشأن: إن الكلام جاء بمنزلة عطف البيان والذي يعني البيان لما قبله. وقيل أيضًا: إنه تكرار للأول (ألم تعلم) من أجل الاستشهاد

على ما ذكره، فالله على كل شيء قدير.

{وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ومَن يتولانا غير ملك الملوك سبحانه الذي له السلطان القاهر والمُلك الباهر المستلزم للقدرة التامة الكاملة على التصرف في كل شيء (إيجادًا وإعدامًا وأمرًا ونهيًا) حسب التقدير والمشيئة، فلا معارض لأمره ولا مُعَقب لحكمه، هذا شأنه فكيف يخرج شيء عن قدرته؟!!

{وَلِيٍّ} الولي هو: المالك، {نَصِيرٍ} والنصير هو: المعين.

والمالك قد يملك ولا ينصر، وقد ينصر وهو لا يملك، هذا في حق العباد، أما الله الملك الحق الولي المالك فهو يتولى العباد المؤمنين الموحدين وينصرهم ويعينهم.

قوله تعالى: { أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾}.

بعدما بيَّن الله تبارك وتعالى مسألة النسخ، نَهَىٰ المؤمنين عن سؤال رسولهم؛ ولكن ما هو المقصود بالأسئلة التي نهى الله عباده عن أن يسألوها لأنبيائهم؟

المقصود هي أسئلة التعنت والاعتراض وأسئلة الشاكين المُذبذبين، أسئلة الغير واثق في شرع الحكيم أو في رسالة النبي ﷺ، فنهى المؤمنين عن مثل تلك الأسئلة وذلك كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل، كقولهم:{أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٥٣﴾} [النساء].

أما أسئلة الاسترشاد والرغبة في معرفة أمور الدين فهي من الأشياء المحمودة: قال الحق سبحانه: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣} [النحل].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون النبي ﷺ وقد أقرهم الله على هذا السؤال {يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩} [البقرة].

وقفة مع آية سورة المائدة:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١} [المائدة]، **لماذا نهى الله المؤمنين عن السؤال؟**

نهى الله عن السؤال عن أشياء لن تحدث؛ فلا يفترض أحد الصحابة مسألة ويسأل عنها لأن هذا خطأ، فعلى العبد أن يسأل عن أمور دينه الواقعة بالفعل؛ والدليل على عِظم الأمر وكونه خطأ: عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ**

مَسْأَلَتِهِ» (١).

فانشغال العقل بأمور لا تنفع العبد في دينه ولا تعلو بإيمانه لا بُد من التوقف عن الخوض فيها حيث لا جدوى منها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»**، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ»**، ثُمَّ قَالَ: **«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»** (٢).

حذر النبي ﷺ أصحابه من السؤال عن أشياء لم يُخبرهم بها، ثم ذكر لهم علة ذلك وهي هلاك السابقين بسبب اختلافهم على أنبيائهم وكثرة سؤالهم.

{أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ}: وفي هذا إنكار عليهم، فإياكم أن تفعلوا كما فعل قوم موسى عليه السلام معه؛ لأن هذه الأفعال ستُلحق بكم الأذى كما حدث لقوم موسى.

{وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ} هؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).
(٢)أخرجه مسلم (١٣٣٧).

حين سألوا موسى أن يُرِيهم الله جهرة أخذتهم الصاعقة، ومَن يخرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال والعناد والعدول عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم والذهاب بالعقل الفاسد والفكر الشارد إلى تكذيب النبي ﷺ وكذا الأنبياء والقدح في رسالتهم فقد بدَّل الكفر بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي تمنى كثير من أهل الكتاب أن يُرجعوكم إلى ما كنتم عليه من الكفر قبل مبعث النبي ﷺ، ويحسن الوقف عند كفارًا لأن المسألة قد بُينت.

والود هو التمني، ومن الإنصاف بيان أنه مهما كان الإنسان سيئًا في طباعه كافرًا فلا بُد أن يكون هناك إنصاف؛ لأن أسلوب التعميم لا يجوز، فلا يصح تعميم حُكمٍ ما على كل الناس، فأهل الكتاب الذين هم كفار بنص الكتاب إلا أنه بالرغم من ذلك يقول الله عنهم ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أي أن الكلام لا يشمل الجميع فقد يكون هناك منهم مَن لا يتمنى ذلك التمني.

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ذكر الله سبحانه سبب تمني كثير من

اليهود والنصارى أن يردُّوا المؤمنين كفارًا وذلك بسبب الحسد الذي في أنفسهم.

ما هو الحسد؟

الحسد: هو قلق في النفس من رؤية النعمة على الغير، وعبّر عن بلوغ الحسد إلى غايته فكأنه لا يمكن أن يأتي معه الترك فقال {مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} فدلّ ذلك على أن هذا الحسد جزء من طبائعهم، ثابت لديهم، غالب على أنفسهم ولن يخرج منهم.

والحسد نوعان: أحدهما محمود والآخر مذموم:

١ـ **الحسد المذموم:** هو تمني زوال النعمة (كحسد اليهود للمسلمين) وهو من صفات اليهود (الدرجة الأولى)، وهذا النوع جاء ذمه في كتاب الله تعالى فقال: { أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾} [النساء].

والحسد في حقيقة الأمر يعني الاعتراض على أقدار الله وحكمته وكأن الله سبحانه لا يعلم مَن يستحق ومَن لا يستحق!

٢ـ **الحسد المحمود:** هو قول النبي ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ**

الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» [١].

* وهذا النوع المقصود به الغبطة: فيدعو الإنسان لأخيه صاحب النعمة بدوامها، وتمني عدم زوالها عنه، إلى جانب تمني النفس أن تنال نصيبًا منها.

- وقد ترجم الإمام البخاري في هذا النوع بابًا أسماه (الاغتباط في العلم والحكمة)، والغبطة هي التي قال فيها ربنا سبحانه: {خِتَامُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾} [المطففين]، والقلب السليم هو القلب الذي يحزن إذا رأى أن النعمة قلَّت في يدي أخيه (سواء في الدين أو الدنيا).

- أما اليهود فقد كانت قلوبهم سوداء مليئة بالشر.

{مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ} هؤلاء لم يحسدوا المسلمين إلا بعدما تبيّن وثبت وتأكد لديهم أن هذا هو الحق الذي جاء من عند الله، والآيات السابقة حملت من الأدلة الكثير على أن القوم على يقين تام بأن هذا هو الرسول الخاتم المبعوث من عند الله ولكنَّهم رافضون لهذا، بل ويحاولون سحب الناس ليلحَقوا بهم على ضلالهم، وتلك هي سمة كل شخص صاحب باطل فهو يريد من كل المحيطين به أن يكونوا تابعين له في ضلاله مُشابهين له في غيّه.

{فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ} العفو: ترك المؤاخذة بالذنب (فلا قصاص

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

ممن ظلم)، أما الصفح فهو: إزالة أثره من النفس وهذا أعلى من سابقه، فيغفر بعدم أخذ الحق ويعفو فلا يُعاتب صاحب الذنب، ثم إذا ما صفح لا يجد أثرًا لهذا الذنب في نفسه، هذا أمر إلهي وعلى العباد أن يُجاهدوا أنفسهم في العفو والصفح والمغفرة.

ملحوظة: قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:{ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩} [التوبة]، هناك قول لبعض أهل العلم: أن كل آية ورد فيها الامتناع عن القتال (فهي مكية) ونُسخت بآيات ورد فيها الإذن بالقتال.

لكن اعترض بعض أهل العلم الأكابر على هذا الكلام: وقالوا: إن هذا القول ضعيف لأن معاندة اليهود كانت في المدينة، كما أن الأمر بالصفح والعفو كان أيضًا في المدينة وليس مكة.

{يَأۡتِيَ ٱللَّهُ} لفظ الإتيان الذي يضاف إلى الله جل جلاله نوعان (مطلق ومقيد): والإتيان المطلق: كقوله تعالى: {هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ١٥٨} [الأنعام]، وقوله سبحانه:{ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢} [الفجر]، هذا إتيان مطلق، فالله عز وجل يأتي على الحقيقة إتيانًا يليق بكماله وجلاله وهي صفة من صفات الله الفعلية.

واحذروا ممن يقولون: إن أهل السنة ثلاثة أقسام أو طوائف (أشاعرة- ماتريدية- سلفية)!! هذا باطل من كل وجه فكلٍّ من الأشاعرة والماتريدية ليسوا من أهل السنة، يمكن أن يكون لديهم أشياء من أهل السنة ولكنهم فِرَق لديها مشكلات وعليهم أن يعودوا إلى منهج أهل السنة.

وأهل السنة والجماعة قاطبة والسلف بدءًا من الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا يُثبتون صفتين هما (الإتيان- المجيء). وهذا خلافًا لاعتقادات أهل البدع والأهواء مثل (المفوِّضة والمؤولة)!!

والتفويض معناه: عدم معرفة معنى الصفة.

والتأويل: القول في الصفات بما ليس عليه دليل من الكتاب ولا من السنة.

وهذا بعيد كل البعد عن اعتقاد أهل السنة.

فأهل السنة يثبتون ما أثبت الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ بغير تحريف ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل.

{حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ}: والأمر هنا المقصود به الأمر بالقتال كقوله تعالى: {قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩} [التوبة]، وهذا هو الأمر الذي يكون له سبب معين، والأمر من الله جاء بقتال هؤلاء

اليهود (بني قريظة- بني قينقاع- بني النضير).

لقد أمر الله عز وجل بقتال هؤلاء وإجلائهم عن المدينة نتيجة ما فعلوه من أفعال شنيعة.

{إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} تمام القدرة لله تعالى وأنه سينصركم فهم لا يعجزونه سبحانه.

قوله تعالى: { وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾}.

أمر من الله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

{وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ} فمَن يُقدم يُقدم لنفسه، ومَن يُطع يُطع لنفسه؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»(١)، يسأل النبي ﷺ صحابته لجذب النفوس وانتباه الأذهان لما سيُقال، وهذا من براعة المعلم؛ فمن وقت لآخر يسأل لكي ينتبه مَن شرد ذهنه، وحين سألهم النبي ﷺ هذا السؤال أجمع الحاضرون على أن مال الإنسان نفسه أحب إليه من مال وارثه أو غيره، فأخبرهم ﷺ بخلاف ما يعتقدون؛ فمالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت، وهذا صحيح وصدق رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

فكم تصدقنا وكم أنفقنا وقدمنا لأنفسنا وكم أبقينا؟ اعملوا وقدموا لأنفسكم لأن الكل سيرحل.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيًا ... والقوم حولك يضحكون سرورًا

فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

{خَيْرٍ} جنس الخير، تعميم للخير (إحسان-صدقات- زكاة) أي خير.

{تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ} فما من شيء يضيع عند الله عز وجل؛ فما تُقدمه سوف تجده، بل ويُضاعف الله الحسنات ويغفر ويعفو ويصفح عن كثير من سيئاتنا وذنوبنا.

{إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ} في هذه الآية بيان واضح جَليّ بوعدٍ للمؤمنين ووعيد لغيرهم؛ فكما أن الله بصير بما يعمل المؤمنون وما يقدمونه لأنفسهم من خير فهو بصير أيضًا بما يعمل غيرهم.

قوله تعالى: { وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾}.

هذه الآية كما قال أهل العلم: من الآيات التي فيها اللَّفّ والنشر الإجمالي؛ وهو نوع من أنواع المحسنات البديعية، أسلوب بلاغي عظيم، فيأتي اللفظ مُجملًا ثم يُفصل، وهو من روائع القرآن وكنوزه التي لا تفنى، كما أن بلاغات القرآن لا يستطيع أن يحصيها أو

يحصرها شخص أو أشخاص.

- فأجمل القول بقوله تعالى {وَقَالُواْ} فمَن الذين قالوا؟ فإنَّ السّامِعَ يَرُدُّ إلى كُلِّ فَرِيقٍ قَوْلَهُ؛ أي وقالت اليهود (لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا)، وقالت النصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى)، فلف بين القولين {وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ}، ثم وقع النشر لهذا اللف في قوله {إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ} ففُهِم من الآية أن اليهود والنصارى هم الذين يقولون أنهم سيدخلون الجنة، وتنازع اليهود والنصارى في هذه المسألة وتبادلوا الاتهامات فيما بينهم.

مثال آخر لتوضيح اللف والنشر: قال ربنا سبحانه:{ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ١٢} [الإسراء].

هذه الآية من اللف والنشر الغير مرتب، {فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً} إذا توقفنا هنا يسمى هذا لفًّا ولكن لماذا؟ لأنه ليس هناك تفصيل، ثم جاء التفصيل في الشق الثاني من الآية حين قال الحق سبحانه {لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ} فجعل النهار للسعي وجلب الرزق، وجعل الليل للعلم بعدد السنين والحساب. ولماذا قيل إن اللف والنشر هنا غير مرتب؟ لأنه في آية اللف ذكر الليل ثم ذكر النهار، أما عند النشر فقد قال {لتبتغوا} أي بدأ بالنهار ثم الليل.

{تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} حين قال القوم (لن يدخل الجنة إلا.. وإلا) رد عليهم الحق سبحانه وبيّن أن ما يقولونه ما هو إلا أمنية باطلة فاسدة ولن يتحقق هذا التمني الباطل، ومن أين جئتم بهذه الأدلة التي تستندون إليها في زعمكم هذا؟!! فلا الكتاب ولا النبي ﷺ قالوا هذا!!

كما أن الوحي لم ينزل عليكم ليُخبركم بأنكم أنتم أصحاب الجنة، فهاتوا أدلتكم على هذا الادّعاء، ولكنه مجرد كلام مرسل مطلق من وحي الشيطان والهوى والنفس.

- هذا هو منهج ومنطق أصحاب الضلال فدائمًا يتكلمون كلامًا مرسلًا ويُلقون التهم جزافًا بدون أدلة فهم لا يستندون لشيء غير الهوى.

وهذه الآية تُقال لأي شخص يتهم غيره بتهمة أو يتفوه بأشياء خاطئة (هاتوا برهانكم) لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن كان الكلام موجهًا لليهود والرد على أحوالهم، لكن الآية عامة.

قوله تعالى: {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾}.

{بَلَىٰ} يحسن الوقف عليها بخلاف (بل)، و(بلى) حرف إضراب؛ فالله عز وجل يُضرب عن هذا القول الفاسد (لن يدخل

الجنة إلا)، حرف اضراب ينفي ما قبله ويُثبت ما بعده، فاضربْ بهذا القول عرض الحائط فهو قول باطل، فما قولكم هذا إلا افتراء على الله نتيجة عقيدتكم الفاسدة التي صورت لكم أنكم أنتم مَن سيدخل الجنة.

{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} هذه الآية شملت شرطي العبادة ألا وهما: الإخلاص- والاتباع.

{أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ} أخلص لله الأعمال فتوجه بقلبه وعقله وكل كيانه إلى خالقه ومع هذا الإخلاص {وَهُوَ مُحْسِنٌ} والإحسان كما جاء في حديث جبريل أن تعبد الله كأنك تراه، فيقوم العبد بأداء شرع الله وهو في حالة من المراقبة.

- وكيف يُؤدَّى العمل كما أُمرنا به إلا بالاتباع، وهناك أكثر من ثلاثة وثلاثين موضعًا في القرآن أُمرنا فيها باتباع النبي ﷺ وكذا السنة تنص على ذلك.

{فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ} سوف يؤجر لأن العمل كان خالصًا وسيكتب في ميزان حسناته لأنه كان متبعًا للنبي ﷺ فإذا لم يعمله بالكلية أو لم يكن على الاتباع فإنه لن يقبل وهو مردود «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا، فهو رَدٌّ**» كما أنه إذا كان رياء وسمعة فلن يقبل أيضًا.

- وأصل الإسلام الاستسلام والخضوع، وخصّ الوجه لأن

الإنسان بكل كيانه متوجه إلى الله، ثم يأتي بعد ذلك حبه للنبي ﷺ وامتثاله لأمر الله باتباعه وهنا يأتي بالعمل على أكمل وجه.

الفهرس

المقدمة ٣

من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ ٤

من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ .... ۝٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾ ٢٠

من قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا .... ۝١٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ ٣١

من قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ .... ۝٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٢٩﴾ ٤٩

من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ .... ۝٣٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ ٧٢

من قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ .... ۝٣٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ ١٢٦

من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ .... ۝٤٩﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧﴾ ١٦٩

من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ .... ۝٥٨﴾ إلى قوله ١٩٤

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾

من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ .... ٦٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾ ٢٠٩

من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ .... ٧٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ ٢٣٢

من قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ ٢٤٩

من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ .... ٨٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ ٢٦٥

من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ .... ٨٩﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾ ٢٧٩

من قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ .... ٩٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ ٢٩٤

من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ .... ١٠٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ ٣١٠

من قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ.... ١٠٦﴾ إلى قوله تعالى: ٣٢٠

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

الفهرس ٣٤٤